أعلام العرب
١١٦

عبد الوهاب الشعراني

إمام القرن العاشر

تأليف

عبد الحفيظ فرغلي علي القرني



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٥

الاخراج الفنى

راجية حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا

تقـــديم

بقلم فضيلة الامام الاكبر
الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلاة الله وسلامه على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين .

وبعد ، فان الله ـ جلت حكمته وتعالت كلمته ـ قد اصطفى من عباده قوما ساروا على الحق واتبعوا طريقه ، وأخلصوا لله فى سرهم وعلانيتهم ، وتحققوا بقوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين » فغمرهم الله برحمته واكرمهم بمعرفته ، وافاض عليهم من علمه فازدادوا له حبا وبه معرفة .

صفا ايمانهم وقوى يقينهم فاشتد اقبالهم على الله ، وحققوا معنى الافتقار بفرارهم الدائم اليه ، لم يستكثروا فى جنب الله طاعة ، ولم يستصغروا زلة ، فلم يهدأ لهم بال . ولم يغمض لهم جفن ، ولم يستقر بهم مضجع . فحياتهم ليل قائم ونهار صائم وحنين دائم ، وذكر لا ينقطع وشوق لا يهدأ ، يقتفون فى ذلك أثر قائدهم الأعلى سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى يحكى القرآن الكريم حاله قائلا : « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » .

ومتابعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شرط جوهرى فى التصوف ، فهو على حد تعبير الصوفية : علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة .

والرسول صلى الله عليه وسلم ــ كان قمة خلقية سامقة ، وصفه القرآن الكريم بأنه على خلق عظيم ، وحكى عن نفسه قائلا « أدبني ربي فاحسن تأديبي » وكان هـــذا النهج الخلقي الســامي منارا للصوفية ، يسيرون في ضوئه ، ويقبسون من هديه ، وكان شعارهم العملي : كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه . ولذلك نسمع حجة الاسلام الامام الغزالي ــ رضي الله عنه ــ يقول : « ان الطريق الى التصوف هو تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على اللهتعالى » ويقول : « لو رأيت انسانا يطير في الهواء ويمشي على الماء وهو يتعاطى أمرا يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان » .

فالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو المثل الأعلى للصــوفية جميعا ، يسيرون على منهجه وينسجون على منواله ، هو امامهــم الأسمى في كل ما يأتون ويدعون وهم يتابعونه مهتمين في ذلك بقول الله ــ عز وجل ــ : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

هذا هو الطريق الصوفي : التزام بالشرع ومتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وجهاد للنفس ، وتحل بالأخلاق الفاضلة ونصح للعباد وعلم وعمل ..

ومن القمم العلمية الصوفية التي يعتز بها الطريق الصوفي الامام القطب « عبد الوهاب الشعراني » رضي الله عنه . الذي عاش في القرن العاشر الهجري ..

فقد كان صورة مثالية للصوفية في عصره ومنارا للسالكين بعده ..

جاهد في الله حق جهاده على بصيرة ومعرفة ، فهابه الملوك

والأمراء . لأنه لم يذل نفسه لهم بل اعتز بعزة الله الذى وهبه العلم والمعرفة فصان بذلك حق العلم وحفظ نعمته ورفع من مكانة العلماء .

وتخلق بأخلاق النبى - صلى الله عليه وسلم - التى يعتز بها الصوفية فكان مثالا كاملا فى الورع والتواضع والزهد والكرم والحياء ...

ولم يقف بمعزل عن المجتمع الذى يعيش فيه ولكنه وجد من الواجب عليه أن يكون أداة صالحة فى ترقيته وتثقيفه والأخذ بيد أفراده إلى ما هو أفضل ، والعمل على انصافهم من حكامهم ورؤسائهم .

واعطاه الله فهما ثاقبا فتنبه لما يحيط به من خرافات وأوهام ، فجهر بكلمة الحق وأعطى للناس صورة صحيحة للتصوف الحق حتى يغلق الطريق أمام أدعيائه ومستغليه ومشوهى صورته .

وكان الشعرانى - الذى تخرج فى الأزهر - عالما مستنيرا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، فهاله أن تتضارب آراء الفقهاء فيما بينهم . وتتضارب آراء الفقهاء والصوفية . فحاول أن يضع بتآليفه المتعددة وآرائه الثاقبة منهجا صحيحا يوفق فيه بين هذه الآراء المتضاربة والمذاهب المختلفة ، حتى يبدد ما علق بالأذهان من شبهات واختلافات ، وكان سباقا فى هذا الميدان ، وتآليفه الكثيرة تشهد بذلك من أمثال : كشف الغمة ، والميزان .

لقد ضاق الشعرانى ذرعا بحياة الجدل الذى ولده ضيق العقول وركود الأذهان الذى يصاحب عادة تخلف الشعوب فى ظل حكام يريدون أن يشغلوا الناس بسفاسف الأمور عن معاليها ، وحاول أن يقدم للمجتمع نماذج خلقية سامية عن طريق زاويته التى أسسها وجعلها مدرسة جامعة يتلقى فيها طلابها كل ما يحتاجون إليه من شئون دينهم ودنياهم ..

وقد شغلت شخصية الشعرانى بال النقاد والمؤرخين - والمستشرقين منهم بصفة خاصة - لأنهم رأوا فيها صورة غريبة عن المجتمع الذى نشأ فيه ، حتى قال عنه « ماكدونالد » : ان الشعرانى كان رجلا دراكا نفاذا مخلصا واسع العقل ... وكان عقله من العقول النادرة فى الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى .

وقال عنه « نيكلسون » : انه أعظم صوفى عرفه العالم الاسلامى كله .

هذه الشخصية الصوفية المؤمنة التى يعتز الأزهر بأنها احدى ذخائره جديرة بأن تعرض فى كتاب يقرؤه الناس ليستفيدوا من سيرة صاحبها ويقتفوا أثرها وليعرفوا كيف كانت عقلية هذا الرجل الذى الف ما يقرب من ثلثمائة كتاب بعضها لم يسبق اليه مما جعل العلماء والنقاد يحنون رءوسهم له اجلالا واكبارا .

وما أجدر الناس فى وقت طغت فيه المادة واستشرى داؤها أن يتلفتوا نحو تراثهم الروحى الفياض بالخير والنفع ، الزاخر بالثروة ، علهم يجدون شفاء لهذه الأمراض المستعصية فى مجتمعهم .

وهذا الكتاب « عبد الوهاب الشعرانى امام القرن العاشر » قدم فيه مؤلفه الأستاذ عبد الحفيظ فرغلى على القرنى ترجمة صادقة لهذا القطب المجاهد . وبذل فى ذلك مجهودا كريما سوف يلمسه القارىء بنفسه .

وانى لأرجو الله أن يثيبه عليه وينفع به - وبما قدم من كتب غيره - المسلمين انه نعم المولى ونعم النصير .

هذا وبالله التوفيق . ؟

٢٤ من ذى لحجة ١٣٩٦ هـ
١٦ من ديسمبر ١٩٧٦ م

عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه باحسان وسلم تسليما كثيرا .
وبعد ،

فأضع بين يدى القارئ الكريم صفحات من سيرة علم من أعلام العرب والاسلام والتصوف ، أشرق فى القرن العاشر الهجرى ، وأبلى بلاء حسنا فى وقت كان فى أمس الحاجة الى جهوده واصلاحه . ذلك هو الامام « الشعرانى » الذى طبق علمه الآفاق ، وترك بعده مذخورا وافيا فى العلم والتصـوف ، وأثرا واضـحا مازال ينتظر مجهود الأفاضل من المحققين والناشرين ، حتى يضيفوا الى التراث العربى صفحات مشرقة مجيدة .

والامام « الشعرانى » ـ وان كان غنيا عن التعريف ـ الا أننا فى احتياج شديد الى تصفح سيرته لنستفيد بما فيها من جوانب كريمة فى مختلف [illegible] .
الوقت الذى نبحث فيه [illegible] ، ونسير على هديها ، لتكون لنا النبراس المضىء نحو غاية كريمة وهدف سليم .

جاء « الشـــعرانى » فى ظروف متناقضه . وكانت البيئة المصرية ـ على الصورة التى سنبين بعد ـ تحتاج اليه ، وقد اضطلع برسالته التى وقف حياته عليها وقام بها خير قيام ، حتى استطاع أن يحنى له قامة الحـكام والولاة المعاصرين له ، وأن يطـامن من كبريائهم ، ويكفكف من غرب جبروتهم . ولذلك رسم المثل الصحيح للعالم الحق الذى يستطيع بعلمه وخلقه أن يفعل الكثير .

ووجه « الشعراني » التصـــوف وقـد لعبت به طائفة من المغرضين يسخرونه في أهوائهم ، ويخلطون به الزيف ، ويقتاتون على حسابه ، فنقاه من بدعهم وصـفاه من خرافاتهم وأوهامهم ، واستطاع أن يوضح للأذهان حقيقة التصوف الرائعة ، وأنه هو جوهر الدين وروحه ، وأنه هو الذى يلتقى مع مقام الاحسان الذى يعبد الانسان فيه ربه كأنه يراه ، فان لم يكن يراه فان الله يراه ٠

وفي عهد « الشعراني » تضاربت آراء الفقهاء واحتدم الخلاف بين أئمة المذاهب مما نجم عنه اضطراب فى أهواء الناس ومنازعهم ، فأهاب « الشعراني » بهؤلاء أن يكفوا عن هذه الخلافات ، وأن ينبذوا الفرقة ، ووضع « بميزانه » أول أســـاس للتقريب بين المذاهب والفقهاء ٠

لقد أنار « الشعراني » الطريق فى مختلف الجوانب والاتجاهات فكان حقيقا بأن يتصفح القـارىء سيرة هـذا العبقرى فى كتاب يتناول هذه الجوانب المختلفة فى عصره وبيئته ، وفى حياته ونشأته وتعلمه . وفى تصوفه ، وفى اصـلاحاته المتعددة ، وفى أخلاقـه الرائعة ، وفى آثاره الوافرة ٠ وستبهره تلك الشخصية التى أيدها الحق وبارك فى حياتها ، فتمكنت من انجاز الكثير فى الوقت اليسير ، وحتى يقتبس لنفسه منها ما يمكنه من السير فى الحياة على منهج كريم ٠

وانى لأستلهم الله سبحانه وتعالى التوفيق فى تنـاول بعض هذه النواحى المشار اليها وبخاصة فى ميدان التصوف الذى شهر به، وبه الاستعانة بدءا وختما ٠ ؟

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

• ملامح العصر والبيئة

نحن الآن فى القرن العاشر الهجرى الذى يقابل القرن السادس عشر الميلادى ، حيث نشأ « الشعرانى » رضوان الله عليه ، وعاش فى ظل دولتين متعاقبتين : دولة المماليك الشراكسة ، ودولة العثمانيين .

والشراكسة جنس من الترك ، أكثر الملك « المنصور قلاوون » من شرائهم وتابعه فى ذلك أولاده وحفدته ، وكونوا من هؤلاء المماليك جندا وأعوانا سرعان ما غلبوا على الدولة ، واستكثروا من جنسهم . ووضعوا من القواعد والنظم ما يقوى من سلطانهم ، ويبسط من نفوذهم ، حتى دام لهم ملك يقدر بثمانية وثلاثين ومائة عام تقريبا .

وأول مملوك شركسى تولى السلطنة هو « السلطان الظاهر سيف الدين برقوق » سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وتعاقب من بعده السلاطين حتى جاء السلطان « الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى » فى السادس من رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة (١٤٦٧ م) وفى عصره كانت ولادة « الشعرانى » .

وشهد الشعرانى من سلاطين الشراكسة بعد « قايتباى » هذا ستة ملوك آخرون هم : —

١ ـ الملك الناصر « أبا السعادات محمد بن السلطان قايتباى » من ذى العقدة سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ م) .

٢ ـ الملك الظاهر « قانصوة الأشرف » من ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة (١٤٩٨ م) .

٣ ــ الملك الأشرف « جانبلاط » وتولى فى مستهل ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة (١٤٩٩ م) ولم يهنأ بالسلطنة فقد خلع أو اغتيل فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة (١٥٠٠ م) ٠

٤ ــ الملك العادل « طومان باى » وتولى فى التاريخ المذكور ولم يعمر كذلك ٠

٥ ــ الملك الأشرف « قانصوة الغورى » وتولى فى شوال سنه ست وتسعمائة (١٥٠١ م) ، وظل فى الحكم حتى قتله السلطان « سليم الأول » مؤسس دولة العثمانيين فى مصر ٠ وفى عهده زحفت جيوش العثمانين فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦ م) ، ولما قتل ولى الشراكسة من بعده « طومان باى » وهو السادس الذى لم يلبث أن قتل هو أيضا بعد ذلك بقليل سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (١٥١٧ م) ٠

والمتتبع لتاريخ هؤلاء السلاطين يدرك مدى ما كانوا يعيشون فيه من جو المؤامرات والدسائس التى كان يحوكها بعضهم لبعض . وكان ينسحب أثر ذلك الجو الخانق على الشعب ، فيلقى من ورائه الظلم والاضطهاد والارهاب والقلق ، ولم يكن يخلص من فتنة حتى يلقى غيرها ، مما شجع الخارجين على القانون على أن يستفحل أمرهم ، ويستشرى خطرهم ، وبذلك أصبح الفرد المصرى لا يسلم من أحد الشرين : شر الأمراء وشر السفهاء ٠ يحكى صاحب كتاب « سمط النجوم العوالى » عن سيرة السلطان « قانصوه الغورى ، الذى تولى الحكم سنة ست وتسعمائة : « أهلك أغوات عصره بعضهم ببعض ، واتخذ مماليك جددا ٠٠ صاروا يظلمون الناس

ويعاملون الخلق عسفا وغشما ، وهو يغضى عنهم ويتغافل ، فأظهروا الفساد وأهلكوا العباد وأكثروا للفساد وطغوا فى البلاد ٠٠ وصار يصادر الناس ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس ، وكثرت « العوانية » فى أيامه لكثرة ما يصغى اليهم ، وصاروا اذا شاهدوا أحدا توسع فى دنياه ، وأظهر التجمل فى ملبسه ومثواه وشوا به الى السلطان ، فيرسل اليه يطلب القرض ويصفى أمواله ٠٠ وقد بطل الميراث فى أيامه وصار اذا مات أحد يأخذ ماله جميعه للسلطنة ، ويترك أولاده فقراء ٠٠ وقد ضاع الشرع فى أيامه » (١) ٠

وفى تاريخ « ابن اياس » من الوقائع التى تشهد بذلك الشىء الكثير ، ومن ذلك ما يرويه فى تاريخ « الأشرف قايتباى » من أنه توسع فى نفقة مماليكه حتى بلغت نحو ألف ألف دينار ، وبعد أن أخذوا هذه النفقة أطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا البغال والخيول حتى « أكاديش » الطواحين وحصل منهم الضرر الشامل فى حق التجار وغيرهم (٢) ٠ كما يتحدث عن هجوم قطاع الطرق على الناس فى مواضع كثيرة من كتابه ، ويعلل ظهور الطاعون الذى تفشى وجاء على مرات متوالية بكثرة الفساد الذى فشا فى أيام السلاطين ٠

ونتيجة لذلك فقد ساءت الحالة الاقتصادية وتفاقم خطرها ، ويقرر الدكتور « على ابراهيم حسن » أنه « رغم ما بذله المماليك فى سبيل انعاش الحالة الاقتصادية فى البلاد ، فقد انتابها الركود أحيانا نتيجة كثرة حوادث السلب والنهب واغارات البدو وظلم المماليك ، وكثيرا ما خوت خزانة الدولة المملوكية حتى لم تعد

---

(١) سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى جـ ٤ لعبد الملك بن حسين العصامى المكى ٠

(٢) تاريخ ابن اياس ص ٥٤٨ ٠

قادرة على سد حاجات البلاد ، وذلك حين كانت تنتشر بها المجاعات والأوبئة التى تهدد الحرث والنسل ، فيذهب ضحيتها الآلاف من الأنفس البشرية دون أن تستطيع الحكومة أن تصد تيارها الجارف (١)

وتفاقم خطر هؤلاء المماليك وبخاصة آخرهم السلطان «قانصوة الغورى» حتى ضج الناس بالشكوى ، وابتهلوا الى الله ان يخلصهم من شرهم ، ونظروا الى العثمانيين على انهم جند الخلاص الذى يقضى على الظالمين وينصر المظلومين ، ويكفى للدلالة على ذلك ما نظمه « ابن اياس » لسان حال المصريين اذ ذاك قائلا : ــ

في دولة الغورى رأينا العجب — وقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى فى عامنا ما جرى — من قلة الأمن وقطع الطريق (٢)

وفى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة استقر الأمر للعثمانيين فى مصر بقيادة السلطان « سليم الأول » بعد قتال مرير بينه وبين آخر سلاطين المماليك « طومان باى » الثانى الذى ولاه المماليك أمرهم بعد مقتل « قانصوه الغورى » فى موقعة « مرج دابق » . ولم تهدأ الأحوال الا بعد القبض على « طومان باى » وصلبه على « باب زويلة » .

وفى سنة ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) تولى السلطان سليمان ابن السلطان « سليم » الحكم ، ودامت أيامه ما يقرب من نصف قرن فقد توفى سنة أربع وسبعين وتسعمائة (١٥٦٦) فى احدى غزواته ، بعد وفاة « الشعرانى » بسنة واحدة .

---

(١) مصر فى القرون الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ص ٤٩٨ .
(٢) تاريخ ابن اياس ص ٩٩٥ .

ولم تكن أيام المصريين فى عهد العثمانيين بأفضل منها فى أيام المماليك الشراكسة ، ولكنها كانت أسوأ منها ، فقد استمر الظلم الواقع على كاهل الشعب ، وأصبح حالهم ينطبق عليه قول الشاعر :

المستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار .

أثقلت الضرائب كاهل المصريين ، وتفاقم الارهاب والعسف . وجأر الناس بالشكوى من الظلم الذى عم البلاد . والذى جعل بعض الشعراء يلجأ الى الله قائلا :

يارب زاد الظلم واستحوذوا   والفعل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا الاك فانظر لنا   ونجنا منهم وخذهم اليك (١)

وزاد الأمر سوءا انتقال الخلافة من مصر التى كان ينظر اليها على أنها زعيمة العالم العربى ، وفيها استقر الأمر للعباسيين بعد فرار آخر خليفة لهم من وجه التتار وفقدت مصر فى أيام العثمانيين هذا المركز الأدبى ، الذى كان يكفل لها الكثير من الاجلال والاكبار .

وهكذا نجد أن مصر أصبحت فى عزلة عما كان يجرى حولها فى العالم ، ففى الوقت الذى كانت أوربا تعيش عصر نهضتها أصبحت مصر مقضيا عليها بالتخلف الذى فرضه عليها فساد الحكم المتعاقب والتألب الاستعمارى الأوربى والانطواء الذى انطوته على نفسها ، والذى ساعد عليه اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م ، والذى حرم مصر من مزية الاتصال بالعالم الخارجى فترة طويلة من الزمن ، وقضى عليها اقتصاديا وأصابها بموجة عارمة من الكساد والتأخر . فقد انتقل مركز التجارة من حوض البحر المتوسط

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢٣ .

الى المحيط الأطلسى ، فنضبت منابع الثروة فى مصر ، بعد أن كانت خزائنها تفيض بأموال التجار الأجانب (١) ٠

نقل العثمانيون من مصر كل شيء له قيمة يقدرون على نقله ، حتى الصناع المهرة ضنوا بهم على وطنهم وعمروا بهـــم الآستانة ولم يحترموا فى ذلك المساجد والأضرحة ، ومن أمثلة ذلك ما يحكيه « ابن اياس » فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ من أن العثمانيين هجموا على مقام الامام « الشافعى » ــ رضى الله عنه ــ ونهبوا ما فيه من البسط والقناديل ولم تسلم من أذاهم البيوت وحرماتها ، فقد صاروا يتوجهون الى الأماكن المختلفة ويأخذون ما فيها من الأبواب والسقوف والشبابيك الحديد والطيقان ويحملونها على الجمال ٠ والذى لايقــدرون على حمــله الى بلادهم كانــوا يبيعونه بالثمن البخس ٠

وبذلك فقدت مصر كثيرا من وســائل نهضتها ، وأغلقت المدارس وتعطلت دور العلم والكتب ولم يبق الا بصيص من نــور تمثل فى الأزهر الذى ظل حفيظا على حمل شعلة الثقافة والمعرفة وانحصر العــلم فى ذلك الوقت فى علوم الدين النقلية من فقه وتفســير وغيرها ، واللسانيــة من نحو وبيان ولغة ، وجمدت الدراسات ، وتحول التأليف الى شروح على متون أو تعليقات على شروح ، وركدت العلوم العقلية حتى أصبح طلبها فرض كفاية(٢) ورجعت النهضة العلمية التى كادت تكون مزدهرة فى عصر المماليك الى الوراء كثيرا ، ففى الحق ــ انه على الرغــم من بطش المماليك وظلمهم ــ « زخــر عصرهم بالعدد الوافــر من العلماء المجتهدين

---

(١) مصر فى القرون الوسطى ص ٤٩٨ ٠

(٢) الشعرانى لتوفيق الطويل العدد ١٤ من سلسلة أعلام الاسلام ٠

ذوى الآراء ، وزخر بكثير من الصوفيـة وأهل الكلام والمنجمين والفلكيين والمؤرخين وغيرهم ، وتتابعت طبقات المؤلفين من بينهم ، وكان نشاط حركة التأليف مثار العجب ، فقد وضع كثير من العلماء مؤلفات عظيمة القيمة والمؤلفات هى الثمرة الخالدة والأثر الباقى على الزمن والوصلة الصالحة بين ماضى العلم ومستقبله ، وكانت هذه الكتب التى تؤلف حلقة ذهبية فى سلسلة العلوم الاسلامية تملأ دور الكتب فى القاهرة بجوار ما تقتنيه هذه الدور من كتب السابقين ، فلما فتح العثمانيون مصر ، وأزالوا حكم المماليك نهبوا هذه الذخائر العلميـة فيما نهبوا ، وحملوها الى القسطنطينية ولايزال كثير منها مغتربا عن وطنه حتى الآن » (١) •

وكان لذلك أثره فيما بعد ، فقد بدا على مر الأيام نور العلم يخبو وشأنه يضعف شيئا فشيئا بفقدان مصادره ووسائله وعدم التشجيع عليه حتى وصلت البـلاد الى حالة يرثى لها من الجهل والضـياع •

فى هذا الجو الغريب عكف الناس على دينهـم ، ولجأوا الى التصوف يلوذون به من عنت الحكام وجور الأيـام وفساد الأمور وحين تدلهم الأمور يفزع النـاس الى الله ، فهو الذى يأخذ بيـد المستجير ويجيب المضطر اذا دعاه ويكشف عنه السوء • وليس ذلك غريبا ؛ فالشدائد هى التى توقف الانسان على باب مولاه وصدق الله العظيم اذ يقول : فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ ولكن قست قلوبهم !!

الا أن التصوف ـ والحق يقال ـ لا يلجأ اليه كل الناس فى أوقات ضيقهم وضعفهم ولكن هنـــاك من أقبلوا عليه وهم أقوى

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى جـ ٧ ص ٢٤٩ •

وانفسهم وبين المتصوفين وغيرهم ، كما كان الجدال محتدما ، فى ميادين أخرى غير ميدان التصوف ، كان محتدما بين الفقهاء ، والعلماء وأئمة المذاهب ، ونشأ عن هذا الجدال الصاخب اضطراب عقلى ، وجدب روحى ، وفساد خلقى ، مما حدا المصلحين والمخلصين على أن يرفعوا لواء الاصلاح ، وينادوا بتطهير صفوف التصوف من أدعيائه ، حتى يعرفه الناس على وجهه الصحيح الذى شرعه الله ، وتولى زعامة هذا الاصلاح « الشعرانى » الذى لم تقتصر جهوده على ذلك فحسب ، ولكنه ولى وجهه شطر كل ما يحتاج الى اصلاح ، يعمل فيه بمبضعه الساحر ، ويسخر فى طريق ذلك جهده ووقته وقلمه ، حتى أبلى فى ذلك بلاء حسنا ، وكان له ثماره اليانعة وآثاره المحمودة ٠

• نسبه ومولده ونشأته

نشأ الشعرانى فى بيئة علمية صوفية ، وكفل له ذلك جوا مناسبا أعانه على الوصول الى ما وصل اليه من مكانة مرموقة فى فى ميدانى العلم والتصوف .

نســبه : ـ

هو عبـد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمـد بن محمـد ابن زرفا (١) (بفتح الزاى وسكون الراء) بن موسى بن السلطان أحمد « بمدينة تلمسـان » ابن السلطان سـعيد ابن السلطان قاشين ابن السلطان محيى ابن السلطان زرفا ابن السلطان زيان ابن السلطان محمد ابن السلطان موسى (٢) ابن السيد محمـد ابن الحنفية بن الامام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ (٣) ولكن يبـدو أن السـلطان موسى لم يكن ابن محمد بن الحنفية مباشرة ، فقد حدث صاحب الخطط التوفيقية فيما نقله عن صاحب الدرر المنظمة نقلا عن « الشعرانى » أن هناك ثلاثة أسماء مطموسة بين موسى المذكور وبين محمد بن الحنفية .

وأصله عربى من قبيلة « بنى زغلة » وكان جده أبو عبد الله السلطان أحمد يطلق عليه : السلطان أحمد الزغلى ، وكان معاصرا

---

(١) فى الكواكب السائرة « ذوقا » دال فواوفقاف جـ ٣ ص ١٧٦ .
(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ١٠٩ .
(٣) المناقب الكبرى ص ٣٨ .

عمنا وبين الخليفة سيدى يعقوب العباسي مالا يوصف » (١) خوفا من انقراض نسب الخليفة العباسي فيولى الناس أولاد « موسى » الخلافة ، ولكن « الشعرانى » يؤكد زهده وزهد أسرته فى ذلك فيقول : ـ « ولعمرى للشرفاء أحق منا بذلك وهم كثيرون فى أرض مصر » (١) ٠

وقد تولى « يعقوب » العباسي خلافة العباسيين سنة ثلاث وتسعمائة ، وأسست خلافتهم فى عهد « الظاهر بيبرس » سنة تسع وخمسين وستمائة فى مصر وكانت خلافة اسمية لا فعلية ، وعلى ذلك فقد كان « يعقوب » معاصرا « للشعرانى » ويبدو أن تصريح « يعقوب » المذكور آنفا حدث قبل توليه الخلافة ، لأنه وجد من يعارضه فيها عند توليته ، وكانت معارضته من قبل أولاد عمه الأدنى (٢) فليس غريبا اذن أن يخشى منازعة أولاد عمه الأقصى ممن كانت القلوب تنطوى على اعجاب بهم واكبـار لهم لصلاحهم وورعهم وزهدهم ٠

وقد أعقب « موسى » وكنيته « أبو عمران » الذى صدر له أمر شيخه « أبى مدين » بالتوجه الى مصر ذرية اشتهرت بالصلاح والتقوى ، ويبدو أنه عاش عمرا مديدا حافلا بالخير والبركة ، فقد توفى فيما يرويه صاحب المناقب الكبرى سنة سبع وسبعمائة ، ومعنى ذلك أن عمره امتد الى ما فوق المائة سنة ٠ ويقص عنه أنه كان ذا مروءة نادرة وفتوة صوفية وكرامات مشهورة ٠

وأعظم كرامة تنسب اليه ـ فى نظرنـا ـ هى تلك الذريـة الكريمة التى ظلت حفيظة على التقوى والصلاح ٠

---

(١) المناقب الكبرى ـ المقدمة ٠

(٢) راجع تاريخ ابن اياس ص ٦٣٦ ٠

ومن تلك الذرية جد « الشعرانى » الذى هاجر الى المنوفية ، فقد حدثوا عنه أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه رغم ذلك كان يستدل بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة فى وقائع الأحوال ، فيتعجب الناس من ذلك ٠

ومن بعده ابنه الذى ورث عنه حاله وزاد عليه : « نور الدين على الأنصارى » ، ومن أقواله المأثورة عنه : ــ الأصل فى الطريق الى الله تعالى طيب المطعم ٠ رافق الشيخ «زكريا الأنصارى» شيخ الاسلام فى طلب العلم ، وكان الشيخ « زكريا » يتحدث عنه كثيرا ، ومن كمال ورعه أنه كان لا يأكل طعام الأزهر ، ولا يشرب ماءه ، ويتقوت على ما ترسله اليه أمه من الريف ، ويملأ جرته كل يوم من ساحل بولاق ، وكان لا يأكل حمام الأبراج ولا عسل النحل لأنها فى ظنه تتقوت على مال الغير الذى ربما لا تسمح نفسه بذلك بدليل محاولته منعها بوسائل مختلفة ، وكان كثير العبادة قالت له زوجته : أما تستريح ليلة واحدة ؟ فكان يقول لها : ما دخلنا هذه الدار للراحة ٠ توفى سنة احدى وتسعين وثمانمائة، وله من العمر ثلاث وستون سنة تقريبا ٠

واعقب من بعده ابنه الشيخ « شهاب الدين أحمد » والد « الشعرانى » ويذكر بعض المؤرخين عنه أنه كان أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الحقيقة التى تذكرها أغلب المصادر ومن بينها « المناقب الكبرى » و « الكواكب السائرة » أنه كان عالما فقيها مؤلفا حافظا للقرآن الكريم ، وقد قرأ الشعرانى عليه النصف الأخير من القرآن الكريم ، وسمع عنه الحديث الشريف ، وحدث « الشعرانى » عنه قائلا : ــ سمعت والدى يقول : جمعت من

وقد تلقى والد « الشعرانى » العلم عن والـده الذى تلقى بدوره العلم عن شيخ الاسلام « صـالح البلقينى » وعن الشيخ « يحيى المنـاوى » وعن « الحافظ ابن حجـر » وغيرهم من فحول عصرهم ٠

وتوفى والد « الشعرانى » فى صفر عام سـبع وتسعمائة ودفن بجوار والده فى « ساقية أبى شعرة » وله ضريح ظـاهر يزار ٠

و « للشعرانى » شقيق اسمه « عبد القادر » تولى كفالتـه بعد والده وتلقى عليه بعض العلوم قبل هجرته الى القاهرة ، وكان عالما ورعا له مناقب كثيرة فى الزهد والعفة والورع ، وأثر عنـه أنه كان يقدم مصالح المسلمين على مصالحه ، ويقول عنه «الشعرانى»: ما رأيت أوسع منه خلقا ٠ وقد حج معه « الشعرانى » سنة أربع عشرة وتسعمائة ٠

وكانت داره فى « ساقية أبى شعرة » تعج بالزائرين كأنها مارستان : كل امرأة مرضت أو عجزت يرسلها الناس له ، وكذلك الأيتام والأرامل كان ينفق عليهم ويكسوهم ، ويفتح الله عليه برزق هؤلاء جميعا ٠ قال بعض الثقات : أمسيت فى السفر ، فدلونى على بيت الشيخ « عبد القادر » فوجدت الزقاق مزدحما ، وما وجدت موضعا أدخل فيه بحمارتى ، وقد قرى الكل فى تلك الليلة ٠

ومن تمام زهده وكرم خلقه أنهم قالوا له مرة : ألا تشترى بهائم ؟ فقال : اذا اشتهت نفسى ذلك وقفت على مرتفع خارج البلد وقت رجوع الناس من حقولهم ، وقلت : كل هذه البهائم الآيبة من المرعى لى ، فانه لا فرق بين أن تكون فى دارى أو فى دور أهـل البلد ، لأنه لا ملك لأحد مع الله ٠

ومما يحدث به « الشعراني » قوله : أخبرني الأمير يوسف من جند السلطان « سليمان » : طفت ببلاد حلب والروم والشام ومصر وزرت فقراءها فما رأيت أحداً على قدم أخيك الشيخ « عبد القادر » في الأخلاق التي أعطاها الله له ·

ويقال ان نجابة « الشعراني » من رضاع أدب أخيه « عبد القادر » ، وكان « لعبد القادر » توجيهات روحية لأخيه ، من ذلك ما يرويه كتاب « المناقب الكبرى » : كان « الشعراني » يزرع لفقراء زاويته مساحة من « البطيخ » في جزيرة قريبة من « ساقية أبي شعرة » ، فكتب لأخيه « عبد القادر الرسالة التالية :ـ « ·· وبعد ، فانك يا أخي تعلم أن البطيخ المزروع في جزيرة ·· انما هو على اسم الفقراء ليس عليه حارس ولا بواب ، ولا هو في بلد ينظر اليه الناس وانما هو في جزيرة وسط بحر ، ونخشى من بعض الناس أن يؤذونا فيه من البر أو البحر بالمراكب ، فان رأيت أن تنظر لنا أحدا يحرسه أو يذهب اليه كل قليل فافعل ، وأجرك على الله ، ولا تتوان في ذلك ·· » ·

فرد عليه « عبد القادر » بهذه الرسالة : ـ « ·· وبعد ، فقد كنت أظنك في غير هذه الرتبة ، أما اذ أنت على ما ذكرت لي من الحال ، فأعلم أن ما قسمه الله تعالى لأهل مصر لا يستطيع أهل الريف أن يأكلوه أبدا ، وأن ما قسمه الله تعالى لأهل الريف لا يقدر أحد من الثقلين أن يوصله اليك أبدا ، ويالله العجب ، تقول : انك زرعت ذلك للفقراء ، وأى فارق بين الفقراء المقيمين عندك والفقراء المنتشرين في أقطار الأرض ؟ وفي أى كتاب نزل يحرم فقراء الأرياف ويبر فقراء الأمصار ؟ والحمد لله وحده ·· »

وكلا الأخوين له وجهة نظر ، فعبد القادر يدعو الى التفويض والتسليم وعدم الحرص على حطام الدنيا وشمول الاهتمام بالفقراء

وفي حياة والده بدأ يتلقى دروسا من العلم ويحفظ القرآن ، وربما يكون قد تمكن من حفظه في حياة والده ، فقد حدث أنه حفظ القرآن وعمره سبع سـنوات ، وحدث أيضا أنه حفـظ على والده ما يقرب من نصفه ، وحدث أنه قرأ عليه سورة الصافات مرة وهي في النصف الأخير من القرآن ، وهذه دلالات نفهم منهـا أنه حفظ القرآن قبل أن يموت أبوه ، كما تمكن أيضا من أن ينال قدرا غير يسير من العلم ، جعل أباه يعتقد فيه خيرا ، فيسعى لأن يحصل له على اجازة من شيخ عصره الحافظ « جلال الدين السيوطى » بجميع مروياته رغم صغر سنه ــ والاجازة أن يأذن ثقة من الثقات لغيره بأن يروى عنه حديثا أو كتابا ، سواء كان ذلك الكتاب من تاليفه أم كان يرويه عن شيوخه بالاسناد الى مؤلفه ــ ونجح الأب في ذلك ، فقد أرسل « السيوطى » « للشعرانى » ورقة مع والده حين سافر اليه في القاهرة لهذا الغرض باجازته بجميع مروياته ومؤلفاته ، وليس ذلك غريبا ، فانه ليس من شروط الاجازة أن يتصل المجاز له بمن أذن له اتصالا مباشرا ، بل ان الاجازة أصبحت هواية محبوبة يجمعهـا الآباء لأبنائهم من مشاهير الشيوخ والعلماء ، وقد التف الناس حول « نجم الغزى » العالم المشهور المتوفى (١٠٦١هـ) أثناء طوافه بالكعبة وقت الحج يطلبون منه الاجازات (١) .

ويحدثنا « الشعرانى » عن « السيوطى » بأنه ألبسه خرقة الصوفية قائلا : «لبست الخرقة وهى عرقية وجبة ورداء من يد حافظ العصر الشيخ جلال الدين السيوطى حين اجتمعت به مع والدى في روضة المقياس بمصر المحروسة في الثانى عشر من ربيع الأول سنة احدى عشرة وتسعمائة » .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة اجازة .

وقد أورد صاحب المناقب الكبرى ذلك ، وهى عبارة يفهم منها التناقض فقد مات والد « الشعرانى » سنة سبع وتسعمائة ، و « الشعرانى » لم يصاحب أباه عند سفره الى القاهرة لحصوله على الاجازة له ، لأنه يصرح بأن « السيوطى » أرسل له هذه الاجازة مع والده مكتوبة بخط يده ، ولم يطأ « الشعرانى » أرض القاهرة الا بعد وفاة والده وفي مفتتح سنة احدى عشرة وتسعمائة ، واذن فقد كان لباس الخرقة رؤيا منامية ، ولم تكن يقظة ، وبهذا يمكن تفسير هذا التناقض ، والرؤى فى عالم الأولياء والصوفية لها خطرها الذى يعتد به ويعول عليه · وكثيرا ما يفهمون منها دلالات خاصة ويأتمرون بأمر ما تشير اليه ·

• رحلة الشعرانى الى القاهرة

طلبه العلم :

وما أن أهل عام أحد عشر وتسعمائة حتى رحل « الشعرانى الى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف ، شأنه فى ذلك شأن كل نابه يحفظ القرآن ، ويعد نفسه للتفقه فى الدين والنبوغ فى العلم ·

وقد أعد « الشعرانى » نفسه لذلك ، فقد حفظ فى قريته قبل هجرته الى القاهرة كثيرا من المتون ، واطلع على قدر غير يسير من شروحها ، وكان أستاذاه فى ذلك أباه وأخاه « عبد القادر » ، ومن محفوظاته فى هذه السن المبكرة « أبو شجاع ، والأجرومية » حفظهما ثم حللهما على أسـتاذيه المذكورين ، ولابد أن مخايل النجابة قد ظهرت عليه حينذاك مما حدا أباه بأن يسعى له فى طلب الاجازة له من حافظ العصر وامامه « السيوطى » ·

ويمم فور وصوله القاهرة الجامع الأزهر ، وهو الكعبة التى يحج اليها ــ وماتزال ــ كل طالب علم ، ومكث زهاء خمس سنوات فى رحابه طالبا مجدا يقرأ ويدرس بفهم وعناية كل ما يقع تحت يده من سائر العلوم الشرعية واللسانية والعقلية · وكان من الكتب التى حفظها فى هذه الفترة · « المنهاج للنووى » ثم « ألفية ابن مالك » ثم « التوضيح لابن هشام » و « جمع الجوامع » ثم ألفية العراقى » ثم « تلخيص المفتاح » ثم « الشاطبية » ثم « قواعد ابن هشـــام » وغيرها من المختصرات ·

وقد حفظ ذلك وغيره حفظا جيدا ، حتى صار يعرف متشابهاتها كالقرآن في جودة الحفظ ، ولم تلبث أن ارتقت همته الى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة لكونه أجمع كتاب فى الفقــه على مذهب « الامام الشافعى » رضى الله عنه فحفظ منه الى باب القضـــاء على الغائب .

وكان يتجه الى الحفظ لأن حفظ المادة أدعى الى بقائها فى الذهن وعدم ذهابها منه ، وذلك بناء على قاعدة تربوية كانت سائدة فى ذلك الوقت تقول : من حفظ المتون حاز الفنون .

أساتذته فى الطلب :

وتتلمذ « الشعرانى على كثير من علماء عصره الأجلاء ، وكان يعقب الحفظ أو يصاحبه شرح ما يحفظ على شيوخ الأزهر حينئذ ، وهم الذين تتلمذ عليهم ، وأخلص فى بره لهم والحفاوة بهم .

والمطلع على قائمة شيوخه وقائمــــة الكتب التى قرأها حفظا وشرحا أو شرحا فقط يدرك مدى ما وسعه صدره علما ومعرفة ، ومدى ما كان عليه من الصبر ومعاناة العلم والتلذذ به .

فمن هؤلاء الشيوخ الذين يتحدث عنهم في كتابه « لطائف المنن » الشيخ « أمين الدين » الامام المحدث بجامع الغمرى ، قرأ عليــه شرح « المنهاج للمحلى » وقد كان كما حدث عنه أعـلم أهل زمانه بما دق وخفى من أمر هذا الشرح لأنه كان قد قرأه على المبرزين من تلامذة الامام الســيوطى ، وقد أعان « الشعرانى » على فهـم هذا الشرح اطلاعه على ما ناســـبه من شروح وكتب وتعليقــات ككتاب « القوت للأذرعى » و « العمـــدة لابن الملقن » وشرح « ابن قاضى شهبة » وشرح « الروض للشيخ زكريا الأنصارى » وغيرها ، وكان يختار من بعضها التعليقات فيضيفها الى الشرح ، ويقيد ما يعن له

من ملاحظات فيضيفها أيضا ، وكانت تبلغ هذه الزيادات أحيانا ما يصل الى ضعف الكتاب الذى يقرؤه ، وكان يراجع هذه التعليقات والزيادات على أستاذه امام الغمرى ، أو غيره من الأساتذة فيعجبون منه وبها ٠

وكان يعمد الى اختيار التعليقات الملائمة واثباتها على حاشية الكتاب لضيق ذات يده التى لا تمكنه من اقتناء الكتب فى كثير من الأحيان ، فقد كان منقطعا لطلب العلم ، ولم يكن يحيا الا على ما يصله من اخوته المقيمين فى الريف ، ولم تكن له حرفة ـ كما تزعم بعض المصادر يحترفها كالنسج أو الحياكة ، ويبدو أن أخاه الشيخ « عبد القادر » هو الذى كان يقوم من دون اخوته العشرة بأوده لأنه شقيقه الوحيد ، وهو الذى تولى كفالته بعد أبيه ، وهو الذى صحبه فى رحلته الى القاهرة ليوطد له اقامته ويطمئن عليه ٠

وعلى الرغم من افتقاره كان متعففا ، قد عطف الله عليه قلب رجل اسمه « خضر » تحدث عنه بأنه رباه وهو يتيم ، ولكنه كان متعففا عن ماله ومال زوجته بالرغم من حرصهما الزائد على توفير كل شىء له ، وكان « الشعرانى » يلقبه بوالده وتحدث عنه فى « لطائف المنن » بهذا اللقب (١) ، وتحدث عنه فى كتابه « لواقح الأنوار القدسية » قائلا : كان جدى الشيخ نور الدين يشفق على الايتام فببركته قيض الله تعالى لى الشيخ « خضر » الذى ربانى وزوجته فعشت معهما فى أرغد عيش وأرفهه من المآكل والملبس حتى ماتا ٠٠ فكنت أعد ذلك من جملة ما جوزى به جدى » (٢) ٠

وحياته في ظل هذه الأسرة لا تنافي تعففه فقد كان لا يتطلع اطلاقا الى شىء ، ويحيا معهما على القناعة بما يقدمان له ، بدليل أنه رد

---

(١) لطائف المنن جـ ١ ص ٦٨ ٠

(٢) لواقح الأنوار ص ١٧٧ ٠

المال الذى أوصى له به الشيخ خضر الى ورثته ولم يقبله . وكان يطوى أياما متعددة ، ويحرص مع ذلك على البحث عن مصادر العلم ، فاذا ما عثر على كتاب استعاره من صاحبه ليقرأه وينتفع بزبدته ويختار منه ما شاء ليثبته فى تعليقاته ، وأحيانا كان يدخر من رزقه القليل ما يشترى به ما يحتاج اليه .

ومن الكتب الذى قرأها على شيخه « أمين الدين » شرح جمع الجوامع « لجلال الدين السيوطى » وحاشية « كمال الدين بن أبى شريف » وقرأ عليه أيضا شرح « ألفية العراقى للجلال السخاوى » وقرأ عليه شرح « ألفية بن مالك لابن عقيل » وشرح « الشـواهد للعينى » والكتب الستة فى الحديث . وكثيرا جدا غير ذلك .

وكان الشيخ « أمين الدين » عالما جليلا وله سند عال أخذ عن « الحافظ ابن حجر » ولنجابة تلميذه « الشعرانى » أجازه فى رواية مؤلفاته عنه .

ومن شيوخه فى الأزهر الامام العلامة « شمس الدين الدواخلى » قرأ عليه أيضا الكتب والشروح السابقة ، وكان « الدواخلى » فقيها صوفيا أصوليا نحويا محققا للأبحاث والعـلوم بارعا فيهـا على اختلافها .

وقد قرأ عليه غير ما قرأه على شيخه السابق شرح « الارشاد لابن أبى شريف » وشرح « البهجة الكبير للشيخ زكريا » وشرح « الارشاد للجوجرى » و « القوت والتوسط والفتح للأذرعى » ، وشرح « الروض » الى جزء من باب الجهاد ، وقد استعان «الشعرانى» على هذا الشرح بكتاب « الخادم » وكتاب « القـوت » وغيرهما من الكتب التى تنحو نحو هذا الشرح .

وكعادته فى اطـلاعاته كان يثبت على الشرح كل ما يلاحظه ويستفيده من قراءاته ونقوله وأفكاره حتى تصبح الاضافات أكثر

من الكتاب نفسه ، وقد قال له أستاذه مرة ما معناه : لولا أنك تثبت لى عن طريق تلخيصك الكتب التى تشير اليها ما صدقتك فى أنك اطلعت على بعضها • وهذا القول يفيد كثرة قراءاته واطلاعاته وتعدد الكتب التى كان يرجع اليها •

ومن الكتب التى قراها على هذا الشيخ أيضا شرح « الألفية » لابن المصنف ، وشرح « التوضيح للشيخ خالد » وكتاب « المطول » بحواشيه ، وشرح « ألفية العراقى » للمصنف وللسخاوى » وكتاب « شرح جمع الجوامع بحاشيته لابن أبى شريف » وغيرها •

وشيوخ الشعرانى كثيرون جدا قدرهم هو بنحو خمسين شيخا مرة وقدرهم مرة بنحو مائة من أجلاء العلماء الذين كانوا يعجبون به ويدهشون لقوة عارضته وسرعة حافظته وشدة فهمه ، وقد قرأ مرة على الشيخ « نور الدين المحلى » شرح « جمع الجوامع » بحاشيته من ذهنه فأثار بذلك عجبه •

ويروى بعض المؤرخين أنه تتلمذ على « الجلال السيوطى » وعلى الشيخ « زكريا الأنصارى » (١) ولكن تلمذته « للسيوطى » كانت تلمذة اجلال ونسب لأن « السيوطى » رحمه الله توفى فى التاسع من جمادى الأولى سنة احدى عشرة وتسعمائة ، وهى السنة التى قدم « الشعرانى » فى مستهلها الى القاهرة ، فكأن لقاءهما لم يدم أكثر من أشهر معدودة ، وقد يكون الشعرانى قد تلقى على يدى أستاذه فى هذه المدة القصيرة بعض الدروس تبركا به كما أشار هو الى ذلك بقوله : لما جئت الى مصر قبيل موته اجتمعت به مرة واحدة ، قرأت عليه بعض أحاديث من الكتب الستة ، وشيئا من المنهاج فى الفقه تبركا به ، ثم بعد شهر سمعت ناعيه فحضرت الصلاة عليه (٢) •

---

(١) الشعرانى للدكتور توفيق الطويل •
(٢) المناقب الكبرى •

وأما شيخ الاسلام « زكريا الأنصارى » فقد تتلمذ « الشعرانى عليه فترة طويلة وكان بينهما ود متصل ، تحدث عنه « الشعرانى » كثيرا ، وقرأ له كتبه وراجع شرحها عليه ، كما قرأ عليه شرحه لرسالة « القشيرى » ، وشرح مختصره « لجمع الجوامع » ، وشرح « التحرير » وشرح « القطعة » التى وضعها على « مختصر المزنى » وكان يطـالع عليه شرح « البخارى » للحافظ ابن حجر وشرحه « للعينى » وشرحه « للكرمانى » وشرحه « للبرماوى» وشرحه « للقسطلانى » ، وقرأ عليه « الكشاف » مع حواشيه وقرأ عليه شرحه « للروض » فكان يطالع عليه جميع المواد التى استمد منها شرحه ، ونبهه على نحو أربعة عشر موضعا ذكر أنها من أبحاث « الزركشى » والحال أنها من كلام الأصحاب فأصلحها ، وقرأ عليه « القواعد الكبرى » للشيخ « عز الدين » وغير ذلك ٠

وتلك تلمذة طويلة ، واذا عرفنا أن « الأنصارى » توفى فى آخر سنة ست وعشرين وتسعمائة أدركنا أن صلتهما دامت ما يقرب من خمسة عشر عاما ، وهى مدة ليست بالقصيرة فى حياة العـــلم والمعرفة ، لا سيما اذا بارك الله فيها كما يبارك دائما فى أوقات أهل التقى ، فلحظاتهم تقدر بأعمار مديدة من سنى غيرهم ٠

حرصه على العلم :

كان « الشعرانى » حريصا على اغتنام كل دقيقة من حياته فى طلب العلم ، فلم يكن يرى الا قارئا أو ناسخا أو مصغيا أو سائلا ، يحكى عن أحد شيوخه قائلا : كان فى بعض الأوقات يقـــول لى : هلا تذهب بنا الى بحر النيل نشم الهواء ، فأقول له : يا سيدى مجالستكم عندى أعظم من شم الهواء ، فيدعو لى (١) » وهذه اجابة

---

(١) لطائف المنن جـ ١ ص ٣٥ ٠

يفهم منها بره بأستاذه كما يفهم منها حرصه على عدم تضييع الوقت ، والا فكيف نفسر كل ذلك المذخور العظيم الذى تمكن من الاطلاع عليه وقراءته ، اطلاع فهم ودراية كان يثير عجب العلماء الأجلاء ؟ وقد رأينا أن أحد شيوخه قال له : « لولا أنك تلخص لى ما تقرؤه ما كنت أصدق أنك قد اطلعت على بعض ما تذكره من كتب .

وتناولت اطلاعاته سائر العلوم والفنون . يشهد لذلك تنوع تآليفه وكثرتها ، فقد قرأ فى كتب الفقه والحديث والتفسير والتصوف والأصول والكلام والفتاوى والطب ما لا يحصى كثرة ، يقول صاحب المناقب : اطلع على كتب الفقه كلها حتى لا يكاد يظن أحد أنه متعبد بمذهب الامام الشافعى لاحاطته بأدلة الأئمة ومعرفته بمنازع أقوالهم ، ويشهد لذلك تآليفه التى نمت نحو التقريب بين المذاهب وسد الثغرات بينها ككتاب « الميزان » وكتاب « كشف الغمة » .

ومن ذلك ندرك أن « الشعرانى » لم يكن يشغل باله الا طلب العلم وتتبع مظانه ومصادره ، لا يضن فى سبيل ذلك بوقت أو جهد ، يعينه على ذلك ملكة صافية واستعداد فطرى ، واستقامة صاحبته منذ نعومة أظفاره ، فتعلق قلبه بكل جليل وانصرف خاطره عن كل لهو . والمتحدثون عن مناقبه يذكرون عن ذلك طرائف كثيرة ، وقد أشار اليها هو نفسه فى كتبه وآثاره .

مكانته في العلم :

ليس من شك في أن العلم طريقه التحصيل. وقد جد «الشعرانى» فى طريق ذلك واجتهد . ووصل الى مكانة علمية مرموقة ، شهد له بها القاصى والدانى . ونطقت بها آثاره الخالدة التى تركها تتحدى الزمن وتتعلم منها الأجيال .

وقد كانت شهادة العلماء له بالتفوق وهو مازال تلميذا ، فكيف وقد أصبح عالما له قدم راسخة فى ميادين العلم والاجتهاد على

اختلاف المعارف والفنون ؟ يقول فى لطائف المنن : وكان ذهنى بحمد الله سيالا لا يسمع شيئا وينساه ولم أزل كذلك حتى ترادفت على الهموم لما بلغت فى السن الى نحو خمس وعشرين سنة ، وذلك نحو ثلاث وعشرين من القرن العاشر وقال لى مرات (يقصد شيخه شهاب الدين الرملى الذى كان يقرأ عليه) بدايتك نهاية غيرك . فانى ما رأيت أحدا تيسر له مطالعة هذه الكتب كلها فى هذا الزمان » ٠

لقد ظفر باجازة « الجلال السيوطى » وهو مازال فى العاشرة من عمره ، ولا يطعن ذلك فى « الجلال السيوطى » الذى لم يكن قد رأى « الشعرانى » حين كتب له مجيزا الرواية عنه . فالفراسة الصادقة لها القدرة على التنبؤ والكشف ، وقد ورد فى الأثر : اتقوا فراسة المؤمن فانه يرى بنور الله ، ومكانة « السيوطى » رحمه الله فى علمه وصلاحه وورعه وايمانه لا يستكثر عليها القدرة على التفرس فترى فى « الشعرانى » ـ وهو سليل تلك الدوحة التى ذاع صيتها فى عالم المعرفة والتقوى ـ الأهلية الكاملة فيما بعد على حمل الشعلة المقدسة شعلة العلم والمعرفة ، وقد صدقت فراسة « السيوطى » ولله الحمد ٠

كما ظفر باجازة شيخه « أمين الدين » امام جامع الغمرى ، الذى صاحبه حينا من الدهر فأحسن صحبته ، وتلقى عنه علوما جمة ومعارف واسعة وقد أدرك الغمرى فيه نباهة وعلو قدر وسمو مكانة فأجازه بجميع مروياته وعلومه وتآليفه ٠

وكان العارفون من العلماء يدركون ما وصل اليه «الشعرانى» من علم ومعرفة ويجلونه لذلك ، من أمثال شيخ الاسلام « زكريا الأنصارى » الذى عرف له فضله ، واتصلت معه مودته حتى مات رحمه الله وهو راض عنه تماما ، ومن أمثال الشيخ « ناصر الدين اللقانى » المالكى ، الذى كان اذا ما قصده « الشعرانى » زائرا بقوم

له من فوق « مرتبته » ويجلسه عليها بجامع الأزهر . وكان يجلس بين يديه كجلسة المتعلم وكان « الشعرانى » يضيق بذلك ضـــيقا شديدا ، ويحاول عبثا أن يثني الشيخ عن فعله ، ولكنه كان يصر على ذلك اعترافا منه بقدر زائره ومكانته .

وكان كثير منهم يقصده تعظيما له وتقديرا من أمثال الشيخ «شهاب الدين أحمد بن الشلبي الحنفي» وأخيه الشيخ «سراج الدين» ويتحدث « الشعرانى بصدد ذلك معترفا بأن مجيئهم اليه راجلين يصيبه بكثير من الخجل منهم لما عرفه من مكانتهم وارتفاع قدرهم ، وكان يذوب حياء بسبب تكلفهم المجىء له بهذه الكيفية .

وبلغ من اتساع علمه أنه كان يكفي طلاب زاويته من الافتقار الى غيره فى كافة العلوم التى يتطلبها المجاورون من فقه ونحو وبيان وبلاغة وطب وأصول وتوحيد وتفسير وحديث وغيرها ، فقد كانوا يجدون عنده ضالتهم .

وقد استطارت شهرة « الشعرانى » العلمية حتى أثارت الاعجاب والحسد ، فالتف حوله التلاميذ ، وناصبه بعض العلماء العداء حين رأوا منه ذلك المجد العلمي والتقدم والبراعة ، وحين رأوا تلك التآليف العديدة التى طبقت شهرتها الآفاق وتلقفتهـــا الأيدى فى العالمين العربى والاسـلامى ، والتهمتها العيون والأذهان ، ووعتها القلوب والأفهام ، فنفسوا عليه هذه المكانة وكادوا له ، ولكنه خرج من هذه الفتنة مرفوع الرأس ناصـــع الجبين ، وباء حساده بالخزى والعار . يقول عنه « نجم الدين الغزى » : طالع الكتب مطالعة كثيرة ، وكان رحمه الله تعالى من آيات الله تعالى فى العلم والتصوف والتأليف، وكتبه كلها نافعة وقد دلت كتبه التى تقدر بحوالى [٣٠٨] على أنه اجتمع بكثير من العلماء والأولياء والصالحين (١) .

---

(١) الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة جـ ٣ ص ١٧٦ بتصرف فى العبارة .

وتقول دائرة المعارف الاسلامية : كان « الشعرانى » عالما كثير الاحاطة ، كما تقول : كانت « للشعرانى » مكانة عقلية مرموقة .. وله الى جانب ذلك أثر بالغ فى العالم الاسلامى بفضل ما أوتى من غزارة عجيبة في مادته ، فقد كان قلمه يسيل بأسلوب سهل المأخذ قريب للأفهام مما أدى الى اقبال الناس على تواليفه ، وقد راجت كتبه بالفعل فى حياته ولاتزال موضع التقدير العظيم كما يتبين من تعدد طبعاتها .

واعتد الدكتور زكى مبارك بكتب « الشــعرانى » واعتبرها وثيقة تصور المجتمع الاسلامى فى القرن العاشر فهى على هذا الأساس مصدر علمى هام ، وعند حديثه عن بعض الآداب الصوفية يقول : اعتددنا بكتبه لأن « الشعرانى » فى نظرنا من كبار الباحثــين فى الآداب العملية ولأن آراءه لا تزال تسيطر على الجماهير من أهل هذه البلاد (١) .

و « الشعرانى » ليس فى حاجة الى تزكية فآثاره تنطق بعلمه وفضله ، تلك الآثار التى تقدر فى بعض الأحيان بثلاثمـائة مؤلف بعضها لم يسبق اليه ، وقد أجبرت هذه المؤلفات الكثير من المعارضين على أن يحنوا رءوسهم اجلالا لهذه الشخصية الفــذة ، واستنطقت المستشرقين بشهادات رائعة من بينها تلك العبارات التى نقتطفها من كتاب « التصوف الاسلامى والامام الشعرانى » .

يقول المستشرق « فولرز » : ان « الشعرانى » كان من الناحية العملية والنظرية صوفيا من الطراز الأول ، وكان فى الوقت نفسه كاتبا بارزا أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحا يـكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ، وان كتبه التى تجاوزت السبعين عدا من

---

(١) التصوف الاسلامى فى الأدب الأخلاق جـ ١ ص ٥٠ .

بينها أربعة وعشرون كتابا تعتبر ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق اليه أبدا ولم يعالج فكرتها أحد قبله ·

ويقول « ماكدونالد » : « ان الشعرانى » كان رجلا داركا نفاذا مخلصا واسع العقل ·· وكان عقله من العقول النادرة فى الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى فى الاسلام ·

ويقول « نيكلسون » : انه أعظم صوفى عرفه العالم الاسلامى كله ، وانه منذ فتح المغول العالم الاسلامى ركدت الحركة الفكرية فى الاسلام ، واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد ، فلا نجد بوادر انطلاق أو نتاج خصب أو أى أثر لتفكير أصيل وضىء باستثناء شخصيتين شاذتين هما « ابن خلدون » المؤرخ و « الشعرانى » الصوفى ، وكان « الشعرانى » بالذات مفكرا مبدعا أصيلا أثر تأثيرا واسع المدى فى العالم الاسلامى يشهد به الى يومنا الحاح القراء الحاحا متواصلا على طلب مؤلفاته ·

ويقول عنه الدكتور توفيق الطويل : كان الشعرانى واسع الالمام بعلوم عصره محيطا بما وقع له من كتب البارزين من أهلها قدامى ومعاصرين · وأورد عنه هذه القصة التى تدل على سعة علمه وثقافته : كتب أحد الحساد سؤالا يتصل بفقرات وردت فى كتاب « العهود والمواثيق » وقدمه الى شيخ الاسلام « الفتوحى الحنبلى » فامتنع عن التعليق عليه بحجة أن « الشعرانى » قد قرأ من الكتب ما لا نعرف له اسما وأنه لو ادعى تاليفها ما وجد فى مصر منازعا ·

وقائمة الكتب التى ألفها الشعرانى طويلة جدا . ذكر كتاب المناقب الكبرى منها عددا وافرا يزيد على مائة كتاب ، وأوضح أن بعضها يقع فى ستة مجلدات وبعضها فى خمسة مجلدات وأغلبها فى مجلدين ·

وأورد بعضهم أنه ألف ما يقرب من ثلاثمائة مجلد ، وفى الخطط التوفيقية أنه ألف سبعين كتابا ، والمترجمون « للشعراني » يذكرون أن « بروكلمان » فى كتابه تاريخ أدب اللغة العربية أحصى له ستين مؤلفا تضمنت من فيض المعلومات ما يشهد بقوة ذاكرته وقدرته على استيعاب ما يقرأ وما يسمع (١) ٠

ولا ينبغى أن نستكثر أو ننكر هذا النتاج الضخم على « الشعراني » مادام لا يوجد ما يدل عليه من مخطوطات ، فقد عرفنا محنة مصر فى أيام الفتح العثمانى وأن هؤلاء الفاتحين قد نقلوا الى بلادهم ما أمكنهم أن ينقلوه من نفائس ومن بينها الكتب والمخطوطات ، فلا يبعد أن تكون كتب الشعرانى التى أشارت اليها بعض المصادر ولم توجد قد أصابها ما أصاب غيرها من تغريب وتشريد ٠

على أن هناك مخطوطات كثيرة « للشعرانى » لا تزال تنتظر عناية الغيورين على التراث الاسلامي فتنتقذها من عوادى الاهمال ، وتعيدها قريبة من الأيدى والعقول فى صورة قشيبة من النشر والتحقيق ٠

و « الشعرانى » يعد من نعم الله عليه أن جميع أشياخه فى الفقه والتصوف وغيرهما من العلوم ماتوا وهم عنه راضون ، وذلك من أكبر النعم ، فان رضا الأشياخ على طلابهم عنوان رضاء الله عز وجل عنهم ٠

---

(١) الشعرانى للدكتور توفيق الطويل ٠

● بين العلم والتصوف

بكر « الشعرانى » فى سلوك الطريق الصوفى ، وقد مارس « التصوف » فى بدء حياته بحكم النشأة فى بيئة يغلب عليها الطابع الصوفى ، فأسرته العريقة فى هذا الاتجاه كان لها أثر فى هذه النزعة التى صاحبت الطفل منذ بدأ يعقل ٠

وقد مر بنا طرف من حياة هذه الأسرة المعتقدة التى التف حولها الناس لما شهر عنها من صلاح وتقوى ، سواء فى المكان الذى نزحت اليه أولا منذ قدومها من المغرب ، والذى حطت رحالها فيه بين ربوع « منية ابن خصيب » فى منطقة « ههيه » ومنطقة « البهنسة » ذات الأضرحة والقباب حيث يقيم الناس حولها مولدا فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، ويمد بعض الخيرين موائد وأسمطة تستضيف الزائرين وتطعمهم ابتغاء وجه الله ٠ أو فى المكان الذى نزحت اليه فروع هذه الأسرة فى « ساقية أبى شعرة » من اقليم المنوفية حيث أقام جد « الشعرانى » زاوية يتلقى الناس العلم فيها ، ويتلون الأوراد ويقيمون الأذكار ، وتوارثها من بعده أولاده وأحفاده ، وظلت عامرة حتى رآها « الشعرانى » ورأى أضرحة أجداده وأعمامه وبعض أفراد أسرته بجوار هذه الزاوية يوليها الناس كثيرا من الحب والتقدير ٠

وفى طفولته الأولى كان كثير العبادة والتهجد دائم السهر ، يجد لذة فى ذلك حتى قبل مجيئه الى القاهرة ٠ واستمر فى اداء ذلك بعد مجيئه اليها لم ينقطع عنه ، ولطالما نازعته نفسه الرغبة فى التفرغ للعبادة ولكنه وجد الصبر على معاناة العلم أمرا هاما ،

ونصح له شيوخه الكثيرون ألا يشغل نفسه عن طلب العلم بالاقبال على التصوف والتفرغ له قبل أن يأخذ من العــلم نصيبه الوافر ليكون ذلك أدعى الى تنبته وتحققه وجمعه بين علمى الشريعة والحقيقة •

ولكن كل ذلك لم يمنعه من كثرة الصوم والتعفف الزائد وكف النفس عن التطلع الى الشهوات وصرفها عن كل ما تميل اليه من شهرة أو أثرة أو حب للثناء •

كان ذلك قبل أن يتخذ له شيخا صوفيا يرشده الى كيفية معالجة النفس وتزكيتها ، ويعد هذا من قبيل الهام الله الذى قيض له عقلا يهديه وزاجرا نفسيا يحميه • وحين أقبل على الطريق أقبل عليها بهمة لا تعرف الكلل فقد « قطع العلائق الدنيوية ، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض لا ليلا ولا نهارا ، بل اتخذ له حبلا بسقف خلوته يجعله فى عنقه ليلا حتى لا يسقط ، وكان يطوى الأيام المتوالية ، ويديم الصوم ويفطر على أوقية من الخبز » (١) وهكذا كانت همته فى الطريق لا تقل عن همته فى طلب العلم •

ولقد بالغ فى تهذيب نفسه حتى حملها على ما تكره ، والزمها الاقبال على ما تنفر منه الطباع ، ويقول فى ذلك « تركت أكل لذيذ الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات نحو سنتين ، ثم أكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين . ثم أغانى الله بالحلال المناسب لمقامى اذ ذاك » (٢) وكان يخرج الى موارد البرك التى يغسل الناس فيها الخس والجزر والفجل فيلتقط منها ما يكفيه مما أعرضوا عنه • على أن عناية الله لاحظته فى هذه الفترة فجعلته يسيغ التراب فيجد فيه طعم لحم المرق (٣) •

(١) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٨ ص ٣٧٢ •
(٢) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ٢٩ •
(٣) اللطائف الكبرى ص ١٢٨ •

وفى هذه الفترة نفر من الناس كما نفر الناس منه ، فاعتزلهم وأقام بعيدا عنهم فى الأماكن الخربة والمساجد المهجورة ، ويحكى أنه أقام فى البرج الذى فوق الســـور من خرابة الأحمدى مدة سنة .

ومن ذلك السلوك ندرك أنه أخذ نفسه بما يأخذ به المريدون أنفسهم من حب للعزلة وزهد فى الدنيا ومجاهدة للنفس واقبال على العبادة ، متحليا بالصمت والسهر ، وتعشق الســـهر حتى استلذه ، وحمل نفسه عليه حملا شديدا فكان لا ينام الا الخطفة بعد الخطفة وهو جالس غير مضطجع ، وقد علق رقبته بحبل فى السقف ــ كما رأينا ــ يحول بينه وبين السقوط على الأرض من غلبة النوم، وكان يلجأ الى وسائل أخرى غير ذلك كان ينزل الى المغطس بسراويله فى شدة البرد حتى يفيق من النعاس ، أو يضرب أفخاذه بالسباط ضربا موجعا بدون رحمة .

وهذا أقسى ما يمــكن أن يجـاهد به الانسان نفسه ، ولكن الغـاية العظمى يســـتلذ الطموح الخطر فى طريقها ، وقد كان « الشعرانى » طموحا .

وقد أنتجت هذه المجاهدة ثمارها البالغة « فقويت روحانيته فصار يطير من صحن الجامع الغمرى الى سطحه » (١) .

ويبدو أن ذلك الســلوك كله لم يكن يصحبه فيه شيخ أو مرشد ، ولكنه اجتهاد نفسى عبر هو عنه بقوله : انه من منة الله عليه أن ألهمه مجاهدة نفسه من غير شيخ لما تبحر فى العلم (٢) . وظل ذلك حاله حتى ألهمه الله صحبة الشيوخ والاجتماع على أهل الطريق وانقياده لهم فاجتمع على شيوخه ومؤدبيه .

---

(١) شذرات الذهب جـ ٨ ص ٣٧٢ .
(٢) لطائف المنن جـ ١ ص ٤٩ .

شيوخه فى الطريق :

وشيوخ « الشعرانى » فى طريقه الى الله كثيرون ، ويمكن أن يوضع فى قائمة هؤلاء الشيوخ كل من أحبهم وتتلمذ عليهم من الصوفية السابقين الذين تركوا وراءهم آثارا تقرأ أو أخبارا تذكر من أمثال سلطان العاشـــقين « ابن الفارض » وسلطان العارفين « ابن عربى » ومن أمثال « الحلاج » و « ذى النون » وشيخ العرب « أحمد البدوى » وغيرهم من شيوخ التصوف الأجلاء ، كما يمكن أن يوضع فى هذه القائمة شقيقه « عبد القادر » الذى تولى كفالته بعد أبيه • وكانت له معه توجيهات روحية ومراسلات مرت علينا صورة منها ، يفهم منها كيف تكون مكانة الولى عند الله ، وجاء فى « المناقب الكبرى » : أصل نجابة الشعرانى من رضاع أدب أخيه عبد القادر •

ومن هؤلاء الشيوخ ، الشيخ « زكريا الأنصارى » الذى ألبسه الخرقة ، وقد صرح « الشعرانى » بذلك فى قوله : لبست الخرقة وهى طاقية من قطن من يد شيخ الاسلام زكريا الأنصارى (١) • ولا تعارض بين نسبة الباسها الى الشيخ « زكريا » وبين نسبة الباسها الى « السيوطى » فقد مر أن لباسها على يد « السيوطى » كان رؤيا منامية • هذا الى أنه يجوز أن يرتدى الصوفى الصاعد الخرقة أكثر من مرة وعلى أياد متعددة •

وكان شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم شيوخا متصوفين جمعوا بين العلم والعمل ، ولم يكن العلم حرفة فى ذلك الوقت عند أغلب العلماء ، ولكنه كان عند هؤلاء وسيلة لتحصيل المكارم ، وواسطة تطلب بها الآخرة ، وكان صلاح العالم وتقواه وورعه أمرا

---

(١) المناقب الكبرى ص ٦٢ •

غير مشكوك فيه • هكذا كانت سيما أغلب العلماء وصفة الكثيرين منهم ، والقليل النادر هم الذين تزيوا بزى العلماء ولم يتخلقوا بآدابهم •

وقد تأثر الشعرانى بشيوخه أولئك وما منهم أحد الا وقد أمده ينصح أو أرشده الى فعل أو لحظه بطرف ، ولذلك لا تغفل قائمة شيوخ الشعرانى أسماء هؤلاء الأجلاء •

على أن من بين هؤلاء الشيوخ من كان له تأثير خاص فى حياة « الشعرانى » من أمثال الشيخ « أمين الدين » امام جامع «الغمرى» والشيخ « على الشونى » الذى أمره أن يتوجه الى جامع الغمرى للاقامة فيه •

وقصة ذلك أنه كان ملازما الجامع الأزهر منذ قدومه من الريف عاكفا على طلب العلم حافظا لكل ما وصل الى يده من فنونه حتى سمت همته الى حفظ كتاب « الروض » مختصر « الروضة » لكونه أجمع كتاب فى مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وحفظ منه قدرا كبيرا حتى وصل الى باب « القضاء على الغائب » فى أواخر الكتاب ، وفى أثناء سيره فى الطريق لقيه الشيخ « أحمد البهلول » — وهو ولى من أرباب الأحوال — عند باب الخرق (الخلق) قريبا من « باب زويلة » فقال له مكاشفا : قف على باب « القضاء على الغائب » ولا تقض على غائب بشىء • فما قدر بعد ذلك على حفظ شىء •

ولقيه « البهلول » بعد ذلك فقال له : أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، واستشار « الشعرانى » شيوخه فى ذلك فأشاروا عليه بأن لا يدخل طريق القوم حتى يتم شرح محفوظاته ويفهمها جيدا ويتبحر فيها ، واستمع الى نصحهم، فجمع بين الاصغاء الى الدروس ومجاهدة نفسه ومطالعة كتب التصوف •

ولقيه « البهلول » مرة أخرى فقال له : ان أردت حياة قلبك الحياة التى لا موت بعدها فاخرج عن الركون الى الخلق ، ومت عن هواك وارادتك ، فاستشار شيخه « الشـــونى » الذى كان يحبه ويصطفيه ، فأشار عليه بالتوجه الى مسجد « الغمرى » . وكان هذا المسجد معهدا علميا عتيدا ، غاصــا بالطلاب المجاورين الذين يتلقون العلم على يد شيوخ أجلاء (١) .

وقد كان فتوجه من فوره الى جامع الغمرى حيث أقام هناك مدة طويلة تقدر بحوالى سبعة عشر عاما (٢) .

وباقامته فى هذا المسجد لم يفقد صلته بالأزهر ، ولم سفطع علاقته بالعلم ولكنه جمع فيه بين طريق العلم وطريق التصوف . فقد ذكر أنه حفظ فيه العلم وشرح الكتب وسلك طريق الصوفية ، ثم رتب مجلس الصـــلاة على النبى صلى الله عليه وســـلم فى حوالى سنة ثمانى عشرة وتسعمائة (٢) .

ولكنه ظل واضعا عبارة « البهلول » السابقة نصب عينه .. ولا سيما وهو يدرك تماما من قراءاته لكتب التصوف أن هذه الطريق مليئة بالمخاطر ، زاخرة بالعقبات ، فلن يمكن اجتيازها الا بواسطة شيخ يسوس له نفسه ويوقفه على كيفية قيادتها .

فالتقى بكثير من الشيوخ قبل أن يلتقى بالخواص فى نهاية مطافه بهم .

ولكن قبل التقائه به كان له فى جامع « الغمرى » شأن وأى شأن .

---

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ٢٣ .

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ١٠٩ .

فى مدارج الكمال :

وجد « الشعرانى » فى جامع « الغمرى » عناية كريمة من امامه ومن أسرته ، وأفسحوا له صدرهم الرحب ، وفى خلوة هناك أقام يراوح بين العلم والعبادة آخذا بحظه منهما ٠

وفى ظلال هذا الجامع حدثت له الفيوضات الروحية الكريمة التى كان لها الأثر فى رسم مستقبله الروحى الزاهر ، وكان تحوله اليه فى حدود سنة سبع عشرة وتسعمائة تقريبا ، وبعد ذلك بدأ يرتب مجلسا للصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم يعكف عليه بعد العشاء الآخرة كل ليلة ، وظل هذا دأبه مع غيره من الأوراد والأذكار التى كان يأخذ نفسه بها ويجعلها وردا له ٠

صفت نفسه بالمجاهدات المتعددة التى أشرنا اليها حتى تغلبت روحانيته على جسديته فتمكن من الطير فى الهواء ، فكان يطير من صحن الجامع الى السطح أو المنارة ، وذلك مظهر لتعشق روحه للعلو ، فهى تطيعه فى الصعود وتستعصى عليه فى الهبوط ٠

واعتقده الناس فى الجامع وأقبلوا عليه من كل فج ، وقدموا اليه الهدايا والأموال التى كان يعرض عنها مرات ويقبلها ليبعثرها فى صحن الجامع مرات ، فيلتقطها الصبيان والفقراء ٠

وكان ذلك يرفعه فى أعين الناس ، لأن الطبيعة الانسانية جبلت على الميل الى الزاهدين فى عرض الناس وأموالهم ٠ وكان ذلك أيضا يرفعه فى عين الله ، لأن اقباله عليه كان صادقا ورغبته مخلصة فى طريق الوصول الى الله ٠

وفى يوم طرق خلوته شيخه « أحمد البهلول » الذى كان لا يفتأ يتردد عليه بين الحين والحين ٠ وهو الذى كان قد وجهه الى سلوك طريق القوم ٠ وقال له : هل أنت متزوج ؟

أجاب الشعراني : لا ·

قال له : ولم ؟

أجاب الشعراني : لأني فقير لا أملك المهر الذي أتزوج به ·

قال البهلول : أمدد يدك . وقبض على يده ، وقال له : لقد زوجتك وأنكحتك « زينب بنت خليل القصبي » وأقبضت عنك المهر ثلاثين دينارا ، وأخدمتك اخوتها الثلاثة ، وأعطيتك البيت المغلق على اسمها · قل : قبلت نكاحها لنفسي ، فقال « الشعراني » : قبلت ·

وانصرف « البهلول » من عنده وأغلق الباب وراءه ، ولم يمض قليل حتى طرق باب الخلوة طارق ، وسأل « الشعراني » : من الطارق ؟

فرد الطارق قائلا : أنا خليل القصبي ·

ودخل الخلوة بعد الاستئذان ، قال « للشعراني » : أريد أن أصاهرك · وأزوجك ابنتي ·

وأطرق « الشعراني » قليلا في حيرة ، ثم أجاب في ثبات أنا فقير لا أملك شيئا ولا مهر معي ·

وهنا يتدخل في الحوار مجاور في الجامع سمع حديثهما من أوله ويقول : أنا عندي ثلاثون دينارا أدفعها مهرا عن الشيخ · وأصبر عليه حتى يأذن الله بالفرج ·

ويقبض « القصبي » المهر راضيا ، ويزيد قائلا : ولها بيت مغلق على اسمها أعطيه لكما ، ولها ثلاثة اخوة هم خدمك ويتعلمون على يديك ·

وتتحقق بذلك نبوءة « البهلول » وتكون « زينب » هذه أول زوجة يبتني بها « الشعراني » في حياته ، وقد تزوج بعدها ثلاث

نسوة أخر هن « حليمة ، وفاطمـة ، وأم الحسن ابنة الشيخ أبى السعود بن مدين الأشمونى » وكانت « زينب وحليمة وفاطمة » من محلة القصب من اقليم الغربية .

ويعد « الشعرانى » من نعم الله عليه اصلاح زوجاته له ، فقد كن طائعات قانتات صـابرات معه على حاله ، لم يحدث منهن ما يحدث من الزوجات عادة فى التطلع الى غير ما قسـم الله لهن من سعة الرزق والتلذذ بالحياة .

ومن « فاطمة » أنعم الله عليه بالخلف الباقى «عبد الرحمن» الذى حمل اسم أبيه من بعده ، وان كانت غيرها قد ولدت له ولكن لم يشأ الله أن يبقى لهن وللشعرانى غير « عبد الرحمن » المذكور ، وقد احتسب صابرا راضيا كل ولد له غيره .

وفى جامع الغمرى تشرف « السـلطان سـليم » بمقابلة الشعرانى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، حين فتح مصر وأقام بقلعة الجبل ، ووفدت عليه الوفود ، حتى أزمع على الرحيل الى تركيا ، فقال : هل بقى أحد من العلماء أو الأولياء لم نره ؟

فقالوا له : ما بقى الا رجل عظيم ولكنه صغير السن ، لم تجر عادته أن يقابل أحدا من الولاة أو يحضر مجلسهم .

فقال السلطان « سليم » : أنا أذهب اليه .

وذهب السـلطان « سـليم » وقابل « الشـعرانى » وأحبه وأعتقده . وقبل شفاعته فى العفو عن القاضى «محيى الدين عبد القادر الأزبكى » رأس الكتاب بديوان القلعة ، وكان قد غضـب عليه السلطان وتوعده وأخذ منه السجلات ، ويقال انه أهدر دمه . فخشى على نفسه ولجأ الى « الشعرانى » فاستجار به ، فأمنه « الشعرانى » وانتهز فرصة زيارة السلطان « سليم » له فكلمه فى شأنه فأجابه ورده الى سابق عمله .

وفى جامع الغمرى يذكر « الشعرانى » أنه رأى الخضر عليه السلام ، واجتمع معه على سطح الجامع ، حيث دله على الميزان المدخلة الى جميع أقوال الأئمة المجتهدين والمقلدين واتصالها بالشريعة المحمدية . وفى هذا الاجتماع أخذ الخضر بيــده وأوقفــه على عين الشريعة حتى لقد تجسدت له ورآها رأى العين ، ورأى اتصال جميع أقوال الأئمة العلماء بها ، ولا يخرج قول من أقوالهم عنها ، وقد أمره الخضر بتأليف كتــابه « الميزان الخضرية » الذى لم يلبث أن أعقبه بكتاب شرح فيه ذلك بعنوان « الميزان الشعرانية » .

فى مدرسة أم خوند :

وأقام « الشــــعرانى » فى جامع الغمرى زهاء ســبع عشرة سنة (١) . وكان هذا الجامع قد أسسه « أبو العباس الغمرى » الذى اشتهر بتعمير المساجد فى المدن والقرى ، ثم تحول منه الى مدرسة « أم خوند » بخط بين السورين .

وأفاض بعض المؤرخين فى سبب تحوله من جامع الغمرى الى المكان الجديد ، وذكروا فى ذلك أسبابا متعددة حاولوا فيها أن يحطوا من قدر الشيخ .

ولكن السبب الرئيسى يعود الى ما وصل اليه « الشعرانى » من منزلة سامية ، جعلت القلوب تنعطف نحوه وتتجه اليه ، وكثر زواره ومعتقدوه ، وكان ذلك سببا فى اثارة الحسد فى نفوس المجاورين حوله والمقيمين معه فى الجامع ، فنغصوا عليه اقامته فعزم على التحول منه .

يقول « على مبارك » فى الخطط التوفيقية : تحول «الشعرانى» من الجامع الغمرى الى المدرســـة المعروفة بأم خوند بخط كافور

---

(١) الخطط التوفيقية ــ الشعرانى لتوفيق الطويل .

الاخشيدى بالقرب من سكنه الآن لأن جمـــاعة من اهل الغمرى حسدوه على اجتماع الناس عليه فى مجلس الصلاة على النبى . فنغصوا عليه وبسطوا ألسنتهم فى شأنه ، فأسمعوه غليظ القول وتحالفوا على المصحف ألا يحضروا معه مجلس الذكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما لا فائدة فيه .

وكان « الشعرانى » قد رتب فى هذا المسجد مجلسا للصلاة على النبى باشارة من شيخه « على الشونى » فكان مواظبا على اقامة هذا المجلس ، وكان يحضره عدد لا حصر له من المجاورين والمريدين والمحبين .

وقد انتهز أولاد « الغمرى » فرصة مناسبة لاحراج الشيخ واخراجه من الجامع ذلك أنه كان فى ليلة اشتد عليه الحال ، فصاح باسم « الله » صيحة هائلة ارتجت لها جوانب المسجد ، وكاد أن يتصدع بسببها بيت الشيخ « أبى الحسن الغمرى » .

ولما عرف مصدر الصوت بادر الشيخ « أبو الحسن » بالرغبه فى ترك المنزل ولكن « الشعرانى » كان قد سبقه الى ذلك ، وتحول الى مدرسة « أم خوند » فحط رحاله هناك بعد أن مكث على بابها حوالى ستة أيام ، رأى فى نهايتها رؤيا تفيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن له بالاقامة بالمدرسة المذكورة .

وهذا السبب هو الذى ذكره صاحب « المناقب الكبرى » ، وهو الذى يتمشى مع المنطق والعقل ، فكثيرا ما يدب الحسد الى قلوب الناس حين يرون بعض النابهين يبزونهم علما وشهرة .

وذكر صاحب « المناقب الكبرى » أيضا أن الشيخ « أحمد الطهواى » الضرير رأى رؤيا تفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم يأمر « الشعرانى » بالتحول الى مدرســة « أم خونه » بخط بين السورين ، فأقام بها ثم بنى الزاوية بعد ذلك .

وليس هناك من تعارض بين هذا السبب والسبب السابق . فقد يكون السبب الأول وهو الصيحة مترتبا على السبب الثانى وهو الرؤيا ، وقد يكون هذان السببان ناتجين عن تأثر السعاة والحاقدين الذين كثيرا ما يشوشون على الناس أحوالهم ، وينفرونهم من البقاء فى المكان الذى توجـد فيه أسـباب التنفير والتشويش ، نظرا لما يطلبونه من استقرار يمكنهم من التفرغ للجهاد والعبادة .

وبالرغم من ذلك فان « الشـعرانى » لم يذكر عن اسرة « الغمرى » الا كل خير ، وفى ترجمته للشيخ «أبى الحسن الغمرى» فى طبقاته يبين منزلة هذا الرجل فى نفسه ومنزلته هو عنده ، ويقول عنه : كان رضى الله عنه من الصفاء والصلاح على جانب عظيم .. صحبته ثلاثين سنة الى أن مات ما رأيته تغير على يوما واحدا ، فلما انتقلت من جامعه صار يتردد الى فأكاد ان أذوب من الخجل من مشيه الى ، ويقول أنا أشتاق اليك » .

ونلاحظ أن ذكر « الثلاثين سـنة » جاء على وجه التقريب لا التحديد ، فالمعروف أن « الشعرانى » جاء الى القاهرة فى مفتتح سنة احدى عشرة وتسعمائة ، و « أبو الحسن الغمرى » توفى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة .

وبتحول « الشعرانى » الى مدرسة « أم خوند » الذى كان على وجه التقريب سنة أربع وثلاثين وتسعمائة بدأ مرحلة جديدة فى حياته . فقد استقر به المقام فى مكان هادىء يستطيع أن يفرغ نفسه لرسالته التى كرس جهوده لها .

وتتجاوب فى حناياه كلمات « البهلول » التى تقول له : « ان أردت حياة قلبك الحياة التى لا موت بعدها فاخرج عن الركون

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٣٢ .

الى الخلق . ومت عن هواك وارادتك ، فهناك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ، ويعطيك عطاء لا منع بعده ، ويريحك راحة لا تعب بعدها ، ويعلمك علما لا جهل بعده ، ويطهرك طهارة لا تدنيس بعدها ، ويرفع قدرك في قلوب عباده فلا تحقر بعدها . قد ذهبت أيام المحن وجاءت أيام المنن » (١) .

وتعمل هذه الكلمات في نفسه عملها ، وكان قد سبق له أن سمع هذه الكلمات من قبل ، واستجاب لها ، ولزم العبادة والمجاهدة ، وصاحب من أجل ذلك كثيرا من أجلاء الصوفية وشيوخهم . وانتفع بالكثير منهم . ولكنه مع ذلك لم تستيقظ هذه الكلمات في نفسه كما استيقظت الآن ، ولم يبد له سحرها كما بدأ اليوم .

لقد صاحب الشيخ « نور الدين الشوني » منذ قدومه الى القاهرة واستمر في مصاحبته ومازال مستمرا .

وصاحب الشيخ « أمين الدين » امام جامع الغمرى ، والشيخ « أبا الحسن الغمرى » وصاحب الشيوخ « الحريثي والشناوى والمرصفي ومحمد بن عنان » وغيرهم ، ولكنه مع ذلك يشعر أنه في احتياج شديد الى جلاء معنى الكلمات السابقة التى لا تزال تتردد في صدره بالرغم من وفاة صاحبها منذ أكثر من ست سنوات (٢) .

ودله المخلصون على « الخواص » .

ووجد عند « الخواص » ضالته .

ولنترك « الشعراني » يقرر بنفسه كيف كان أثر « الخواص » في حياته . فيقول : ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطرق،

---

(١) التصوف الاسلامي والامام الشعراني ص ٣٥ .

(٢) توفى البهلول سنة ٩٢٨ (المناقب الكبرى) .

التمس لديهم المفاتيح والأبواب ، فلم يكن لى وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة : « على المرصفى ، ومحمد الشناوى ، وعلى الخواص » رضى الله عنهم ، فسلكت على يد الأولين شيئا يسيرا ، وكان فطامى على يد الخواص ، أعنى الفطام اليسير المعهود بين القوم ، والا فالحق أنه لا فطام حتى يموت الانسان » (١) . وسيأتى حديث عن ذلك — ان شاء الله تعالى .

وفى مدرسة « أم خوند » حصل الشعرانى على حقائق كثيرة، ودانت له العلوم والمعارف التى اقتطف ثمارها اليانعة ، وظهرت له مؤلفات طريفة تدور حول مختلف الفنون ولا سيما التصوف الذى أصبح له فيه القدح المعلى .

زاوية الشعرانى :

وفى أثناء اقامته بمدرسة « أم خوند » أنشأ زاويته المشهورة التى لم تلبث أن أصبحت منارة العلم والعرفان ، وألحق بالزاوية مسكنا انتقل اليه وترك مدرسة « أم خوند » وكانت مدة اقامته بهذه المدرسة تقدر بحوالى سبع سنوات .

وكان لبناء الزاوية قصة عجيبة سبقها ارهاصات منها : الحريق الذى اشتعل فى مدرسة « أم خوند » وترتب عليه سقوط الأدوار الثلاثة العليا ولم يصب أحد بسوء .

ومنها : أن رجلا صالحا رأى أحد الأمراء يعزم على بناء هذا المكان الذى بنيت فيه الزاوية قصرا له ، فحذر الأمير من البناء قائلا له : هذا ليس لك وانما هو زاوية عبد الوهاب ، فلم يأبه له الأمير واستمر فى عزمه ، فلم يلبث أن مات بعد أيام دون أن يحقق قصده من بناء القصر .

---

(١) لطائف المنن جـ ١ ص ٥١ .

ومنها تهيؤ السبب الذى أدى الى ذلك العمل ، وهو ما نقصده بالقصة العجيبة . ذلك أن السلطان « سليم » كان قد غضب على القاضى « محيى الدين عبد القادر الأزبكى » ، فلجأ الى « الشعرانى » مستجيرا به ، فأخذ عليه العهد ان عفا عنه السلطان ليبنين لله مسجدا ، فقبل ، وكلم « الشعرانى » السلطان فى أمره فعفا عنه . وحين حان الوقت طلب « الشعرانى » من القاضى الوفاء بالوعد .

وربما يفهم من ذلك أن المدة طويلة جدا بين أخذ العهد عليه والوفاء به ، فقد مضى بين غضب السلطان وعفوه وبين الشروع فى البناء ما يقرب من ثمانية عشر عاما ، ويمكن الرد على ذلك بأن « الشعرانى » لم يطالب القاضى بالوفاء بعهده الا بعد أن أصبحت الفرصة مهيأة لذلك . وربما يكون أمر الغضب على القاضى قد تكرر من السلطان « سليمان » أو نائبه فى عصر اشتهر بالتناقض وسرعة الرضا والغضب ، وأمر بتجريده من أملاكه واهدار دمه مرة أخرى ، وتكررت مع ذلك وساطة « الشعرانى » على عادته التى دأب عليها فى التوسط للناس لدى الحكام والمسئولين فاستصدر عفوا آخر عنه وأخذ عليه العهد قبله بأن يبنى الزاوية .

وأيا كان الأمر ، فقد نفذ القاضى وعده ، وشرع فى شراء الأرض وأعد لها ما يلزمها من عمارة وأموال ، وبدأ فى اقامة مبناه، ولم يتم الثلثين حتى سافر الى الحجاز ومات فى الطريق . فأكمل « الشعرانى » البناء بالمال الذى رصده القاضى لهذه العمارة .

ويحاول البعض أن يشيروا الى فساد فى الأصول التى استمدت منها الأموال التى أقيمت بها الزاوية ، فيذكرون سوء استغلال القاضى « محيى الدين الأزبكى » شروط وظيفته التى كان يقوم بها ، وأثرى عن طريق ذلك اثراء جعله يخشى على نفسه حين أقبلت دولة بنى عثمان ، وبدأ الأمراء يفتشون أصول الأشياء ، فأراد أن يخرج

عن أجزاء كبيرة من ممتلكاته حتى اذا ما فتش لا يوجد عنده شيء ، واشترى من أجل ذلك تلك الأرض التى أنشـــأ عليها المسجد والمدرسة ، ووقف عليهما ما يمتلكه من أرض وعقار ٠

وتلقف بعض المستشرقين هذه القصة ، ونسجوا حولها جوا غريبا يحاولون من ورائه التشكيك فى ورع « الشعرانى » واثارة الظنون حوله ، جريا على عادتهم التى دأبوا عليها من غمز يكشف عن رغبة في الغض من شأن القمم الاسلامية ، ويظهر ذلك واضحا فى كتابة دائرة المعارف الاســـلامية فى بعض مواضـعها عن « الشعرانى » حين تذكر مثلا علمه الغزير ثم تقول بعد ذلك : انه خلا من روح النقد ، أو تقول : ان للشعرانى مكانة عقلية مرموقة ، ثم تتبع ذلك بقولها : ينبغى ألا نسرف فى تقديرها ٠ أو ادعاؤها بأن « الشعرانى » طلب منه « السيد البدوى » أن يزيل بكارة امرأته « فاطمة » التى ظلت فترة طويلة دون أن يدخل بها (١) ٠ أمام ضريحه ٠ وبالطبع لا يصدق عاقل امكان حدوث ذلك ٠

ولذلك لا يستغرب أن يتلقف المغرضون منهم ذلك الخيال الذى تخيلوه حول منشيء الزاوية لينسجوا منه حقيقة متوهمة تهدف الى تشويه سيرة هذا الرجل العظيم ، وقد حاولوا هذه المحـاولة من قبل حين أرادوا أن يلقوا الشبهات حول خروجه من جامع « الغمرى » زاعمين أن سبب ذلك قصة حب حدثت بين هذا الصوفى الجليل المتبتل الذى نذر نفسه لله وبين فتاة من أسرة « الغمرى » ، وليس شيء من ذلك كله له أصـــل من الحقيقة والواقع ٠

والخطط التوفيقية هى التى ذكرت قصة القاضى « عبدالقادر» ونسبت اليه الاتهام المتقدم ، وبينت أن رغبته فى انشــاء الزاوية

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة أحمد البدوى ٠

ترجع الى حرصه على حماية ما استغله من أموال فاشترى وبنى ووقف ·

ولكن ، هل كان فى هذا العمل حماية لما استغله أم خروج عنه كلية لله ؟

ان حماية الاستغلال تكون بتهريب المستغل الى جهات أخرى يضمن بها المستغل حمايته ووصول موارده اليه · أما أن تخرج هذه الموارد والمصادر من يده جملة فلا يمكن أن يسـمى حماية للاستغلال كما فهم البعض أو كما حاول أن يفهم البعض ·

ثم لماذا سكت القاضى كل هذه الفترة الطويلة ـ بين دخول العثمانيين وبناء الزاوية ـ عن التفكير فى حماية ما يمتلك ؟ وهذه الفترة تقدر بحوالى ثمانية عشر عاما تقريبا · وتلك المدة كافية فى اثبات ما يراد اثباته ، لو كان القاضى يحاول أن يتستر على نفسه حقا لبادر الى ذلك من أول مجىء العثمانيين وبدءوا يدسون انوفهم فى كل شىء فور وصولهم ·

كما أن ورع « الشعرانى » المشهور عنه والذى بالغ فيه الى درجة أنه حرم على نفسه كثيرا من ألوان الحلال الطيب زهدا وتورعا يحول بينه وبين ذلك ، ولقد رمدت عينه يوما فطلبوا له قطرات من لبن مرضع يقطرها فى عينه ـ على طريقة العلاج السائدة فى ذلك الحين ـ فأبى أن يأخذ هذه القطرات الا بما يقدر لها من قيمة ، لأن ذلك فى نظره ليس ملكا للمرأة ، وانما هو ملك للرضيع الذى لا يعقل كيف تسمح نفسه برزقه · وهذه مبالغة فى الورع ، وهو مقام لأصحاب المقامات يعرفونه ويتخلقون بحقيقته ، بالرغم مما يظهر لعامة الناس أن ذلك ليس فيه شبهة · فلا يمكن أن يكون مثل هذا الورع الشديد يتلاءم معه ما يمكن أن ينسجه الخياليون من أن تلك الزاوية وذلك الجامع قد أسسا على غير تقوى من الله ورضوان ·

وشواهد التاريخ تبين دائما أن ما بني على غير أساس سليم لا يقدر له الدوام والاستمرار استنادا الى قوله تعالى « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا » وحقا ذلك فانه « لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » يقول القرطبى في تفسير ذلك : الخبيث كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة وإن كثر (١) ٠

وزاوية « الشعرانى » بنتاجها الطيب الضخم تشهد بطيب أصولها وزكاء فروعها ٠

والحديث عن ورع « الشعرانى » يطول وله مقام غير هذا ــ ان شاء الله تعالى ــ

مكانة الزاوية :

ولا يمكن المرور على سيرة « الشعرانى » دون أن نتحدث عن زاويته التى كانت لها مكانتها الخطيرة فى مصر فى ذلك الوقت ٠ ويستدعى ذلك حديثا قصيرا عن مكانة الزوايا فى العالمين العربى والاسلامى ٠

الزوايا أماكن تدرس فيها أحكام الشريعة وفروض الدين وطرق العبادات وأنواع العلوم والمعارف ، وتؤدى فيها الشعائر الدينية ، ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب : أنه ألحقت بها مساكن للفقراء المنقطعين ومنها ما خصص للنساء ، وكانت بمثابة دور كفالة للمرأة ، تقيم بها البنات حتى يتزوجن ، والمطلقات حتى يردهن أزواجهن أو يتزوجن (٢) ٠

---

(١) الجامع لأحكام القرآن سورة المائدة ٠

(٢) مساجد ومعاهد جـ ١ ص ٦ ٠

كانت هذه الزوايا بيوتا اجتماعية ـ اذن ـ تربى النفوس وتعالج أمراضها ، وتطب القلوب تحت اشراف الشيوخ والعلماء الأجلاء · وقد انتشرت هذه الزوايا فى مختلف بلاد المسلمين ·

وفى دائرة المعارف الاسلامية تعريف للزاوية بأنها بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع دينى ، وتشمل غرفة للصلاة وضريحا مخصصة لضيوف الزاوية أو للحجاج والمسافرين والطلبة ·

وتضيف : أن الزاوية هى على الجملة مدرسة دينية ودار لأحد الأولياء وتضم مكتبا أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، ثم غرفا مجانية للضيافة ·· ولم تصبح أماكن يفزع اليها الناس هربا من الدنيا فحسب بل أصبحت أيضا مراكز للحياة الدينية والصوفية، حيث عمل العلماء من رجال الدين الذين كان التصوف شغلهم الشاغل على تقريبه الى أذهان الجماهير فأصبحت الزوايا مراكز تستهوى قلوب الناس ومدارس دينية ، كما أصبحت الى حد ما دور ضيافة مجانية يقصدها الرحالة الذين يبحثون عن الكمال الروحى (١) ·

ويظهر أن الزوايا برسالتها الصوفية والعلمية والتربوية والاجتماعية أغرت كثيرا من السلاطين والأثرياء والأمراء على انشائها وتقليدها ومنافستها ، فحاولوا بمنشآتهم التى أقاموها بجانب مراكز التعليم الدينى أن يقلدوا مدارس الزوايا فى المدن وخارجها، وتذكر دائرة المعارف أيضا أن هذه الزوايا كان لها أثر سياسى الى جانب أثرها الدينى والعقلى ·

وقد ذكرت الخطط التوفيقية أسماء كثير من الزوايا التى كانت عامرة فى أنحاء العالم العربى وبخاصة فى الديار المصرية والقاهرة

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة زاوية ·

بالذات ، ومن بينها زاوية الآبار وهي المدرسة البندقدارية التى أنشأها الأمير « علاء الدين البندقدارى » الصالحى النجمى ، وجعلها مسجدا لله وخانقاه للصوفية ، ورتب فيها صوفية وقراء ، وزاوية « جلال الدين الكبرى » بالأزهر ، وزاوية « القرافى » وشعائرها كانت مقامة حتى زمن المؤلف « على مبارك » وغيرها كثيرا جدا .

كما ذكرت خطط « المقريزى » أسماء كثير من الزوايا ، وأشارت الى أن الفضل فى انشاء الخوانق والزوايا بمصر يرجع الى السلطان « صلاح الدين الأيوبى » الذى أنشأ الخانقاه الصلاحية أو دار سعيد السعداء سنة تسع وستين وخمسمائة ، وجعلها مكانا يأوى اليه الفقراء والصوفية ووقف عليهم وجعل لهم شيخا وأكرمهم وتواضع لهم (١) .

وتتابع بعده العاملون على انشاء هذه الدور من الخوانق والزوايا ، وليس هناك من كبير فرق بين الزاوية والخانقاه ، فقد كانت الخانقاه ــ أصلا ــ مسجدا كاملا به المنبر والمنارة والمرافق وألحقت به مساكن للفقراء وتؤدى بها الجمعة والجماعة .

أما الزاوية فكانت ــ أصلا ــ مساكن للفقراء يلحق بها غرفة لأداء الصلاة ولا تؤدى بها الجمعة ولا يقام فوقها منارة .

وبمرور الوقت اختلط الأمر بينهما فأصبحت الزاوية تطلق على الخانقاه ، واتسع مدلول الزاوية فشمل المسجد والمدرسة والخانقاه والرباط .

وفى عصر « الشعرانى » كان يوجد كثير من المدارس التى يتلقى الطلاب فيها العلم ويوجد كذلك كثير من المساجد التى يقيم بها الطلاب عابدين ومتعلمين .

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٠٢ طبعة التحرير .

وقد أقام « الشعرانى » طرفا طويلا من حياته بجامع الغمرى حيث كان مكانا آهلا بالعلماء والمتعبدين ، وأقام طرفا آخر بزاوية أو مدرسة « أم خوند » فقد أطلق عليها « على مبارك » لقب زاوية ، حتى أسس « الشعرانى » زاويته المشهورة •

أقيمت زاوية « الشعرانى » اذن لتكون رباطا للعباد ومدرسة لطلب العلم وزاوية للمجتهدين وتكية للفقراء ومسجدا للصلاة •

وأوقف عليها منشئها كل ما يقيم شئون ذلك من نفقة وادارة وموظفين واصلاح وأثاث وغير ذلك •

ولم يلبث الأغنياء أن سمعوا بأمر هذه الزاوية فتسابقوا فى سبيل الايقاف عليها والاهداء لها ، وازداد تسابقهم لما علموا من مكانة « الشعرانى » ومنزلته وصلاحه وتقواه •

كما تسامع الطلاب بأمرها فأقبلوا على الالتحاق بها من كل صوب ، حتى ضمت بين جدرانها الكثيرين منهم بين مقيم وراحل •

فقد ذكر « الشعرانى » أن الذين استقر بهم المقام فيها من الطلاب مائتان بينهم تسعة وعشرون كفيفا • عدا الراحلين منهم وكانت الزاوية تقوم بأود هؤلاء جميعا من غذاء وكساء ونفقة •

وألحق « الشعرانى » بالزاوية مساكن للمتزوجين يقيمون بها مع زوجاتهم الذين أقعدهم الزمن عن الكسب ، وكان لا يدخر وسعا فى سبيل اسعاد نزلائه ، ويراقب أمورهم بنفسه ، ويعين لهم من المتابعين والمباشرين ما يضبط به نظام حياتهم دون تقصير فى أقل أمر من أمورهم •

ومن أمثلة ذلك :

الخبز الذى كان يعد للطعام يوميا يقدر بأردب وثلث ، ويقوم على تهيئته عشرون فردا •

وكان يختزن للمجاورين كل عام عشرة قناطير من عسل النحل وعشرين قنطارا من عسل القصب ، وثلاثمائة أردب من القمح ، وأربعين أردبا من الفول ، وسبعة أرادب كشك ، وسبعة أرادب أرز ، وخمسة وعشرين اردبا من البقول والحبـــــوب كالباسلاء والعدس وغيرها ٠

وكان يخصص للأعياد خمسة أرادب قمح للكعك وكان يحمل اليه من الهدايا ما يعادل ثلاثة أرادب وكان ينفق على المجاورين من سعة ولا يقتر عليهم ، ويشعرهم بأنهم لا يقلون شأنا عن غيرهم فى مستوى معيشتهم ، فكان يشترى لهم الجوز واللوز والبندق والخروب والتمر والزبيب والتين الجاف ويبلغ قيمة ذلك خمسة قناطير ٠

وكان يزرع لهم البطيخ فى جزيرة قرب « ساقية أبى شعرة وقد مر بنا صورة خطاب بينه وبين أخيـــه « عبد القادر » بهـــذا الخصوص ٠ وكان يدخر فى خزائن الزاوية ما يقدر بألفى بطيخة يظل الفقراء يأكلون منها على مدار العام حتى يوشك ظهور البطيخ الجديد ٠

ومن غريب الأمر أن « الشعرانى » كان يكفل لطلاب زاويته ما لا يكفل لنفسه أو أسرته ، ويقدم لهم من طيبات الطعام مالا يقدمه لنفسه ، ففى الوقت الذى كان يوزع عليهم الحلوى ويكلف ميزانية الزاوية الكثير فى جلب أنواع الفاكهة و « الياميش » كان هو يقنع باليسير الزهيد الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ٠ وتلك من سمات الأريحية الكاملة والورع الحقيقى والزهد الجميل والايثار العظيم ٠

وكان طلاب زاويته ينعمـــون بما لا ينعم به غيرهم من رواد الزوايا الأخرى المنتشرة فى ربوع القاهرة والمدن والقرى ، وقد تكون هذه سياسة « الشعرانى » فى اجتذاب مريديه ، فكثير من الناس تؤلفهم النعمة ، فاذا تمكن من نفوسهم بالاحسان صقلها بالرعاية

واشتد عليها بتكليفها أنواعا شاقة من الرياضات المختلفـــة حتى تتخلص من عاداتها وشوائبها ٠

وكانت له ألوان مختلفة فى سياسة طلابه ، فما يصلحه الزجر يزجره ، وما يصلحه النصح ينصحه ، وما يجدى فيه الود اجتذبه وما ينفع فى اصلاحه الهجر هجره ، وهكذا كان يعطى كل ذى حق حقه ، ويعالج النفوس بالحكمة ، ويخاطب أصحابه على قدر عقولهم وتلك ميزة الكاملين من الحكماء ٠

وكان يقوم بالرعاية الاجتماعية للمجاورين ، فكان يزوج منهم من يريد الزواج ذكورا واناثا ، ويؤدى عنهم المهر ، ويشـــترى لهم الأثاث وكل ما يلزم لهم حـــتى ما خفى ودق ٠ وقد زوج أربعين مجاورا وحرص على تزويد المتزوجات باللبان الشــــامى والحجازى والشمع والخضاب والزينة والخيط وغير ذلك مما تحتاج اليه العروس٠

وقام بنفقة كثير من الراغبين فى الحج من مجاورى الزاوية وكان يزودهم فى ذهابهم وايابهم بكل ما يحتاجون اليه من نفقة وزاد ٠ وكان يحمل معه فى أثنــاء حجه ثلاثين حاجا ، وقد حج هو أربع مرات ، مرة منهن بصحبة أخيه « عبد القادر » وكان فى بدء بلوغه ، ومرة في عام سبعة وأربعين وتسعمائة ، ومرة في سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة ومرة فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة ٠

والى جانب ذلك كان يكرم كل من يفد الى الزاوية من ضيوف يقدر عددهم يوميا بحوالى سبعين ضيفا ، ويمد المعـــوزين من غير المجاورين بكل ما يحتاجون اليه من طعام وكساء ونفقة ٠

هذه رعاية « الشعرانى » الاجتماعية لأهل زاويته ٠ أما رعايته الروحية فهى أجل من أن تحصر ، فقد شملهم عطفه الروحى وكانوا محل نظره دائما ، قام بتهذيبهم وتربيتهم تربية كاملة ، وأشرف على حفظهم من كل ما يكدر صفو نفوسهم ويقف فى طريق وصولهم ٠

حفظ أجسامهم من الحرام والشبهة ، فكان لا يقبـــل هدايا الظلمة ولا الغاشمين من الحكام ويتورع عنها • وكان لا يأكل هو وطلاب الزاوية من « الضحايا التى تأتى الى الزاوية من الكشاف (١) أو العمال أو مشايخ العرب أو المباشرين أو التجار الذين يبيعــون للظلمة ، وان ضحاها جعـــلها عن أصحابهـــا لا عن الفقراء ، لان مشروعيتهـــا لاماطة الأذى عن صاحبهـــا وهو خاص بالحـــلال الطيب (٢) » •

وقد استأذنه الأمير « جانم الحمزاوى » فى أن يقدم اليه كل صباح مبلغا من المال فرفض (٣) •

وكان يعلم تلاميذه فى الزاوية أن يكونوا على مثال كامل فى الزهد والقناعة والورع والتعفف ، وكان هو قدوة لهم فى ذلك والقدوة تؤتى ثمارها كاملة فى النفوس وتعمل عملها فى الأرواح

أرسل مرة « خسرو باشا » مالا عظيما فلم يقم أحد من فقراء الزاوية لقاصده حين طلبهم ليفرق عليهم المال ، فتعجب منهم غاية العجب ، وقال : لقـــد ازدحم على المجاورون فى جميـــع الزوايا ــ وما أكثرها فى ذلك الوقت ــ حتى رمونى على الأرض الا أهل هذه الزاوية فأخذ « الشعرانى » المـــال من يده وبذره فى صحن الزاوية ، فالتقطه أطفال المكتب ، ولم يأخذ المجاورون منه شيئا فتعجب القاصد لذلك ، وحكى للباشا ما رآه فتعجب أيضا ، واعتقد « الشعرانى » وقدمه • وبعد أن أورد صاحب « المناقب الكبرى » هذه القصة وغيرها مما يناسبها قال : وما من أحد من نواب مصر الا وقد

---

(١) الكشاف جمع كاشف • وظيفة كانت فى العهد العثمانى •

(٢) المناقب الكبرى ص ٩٦ •

(٣) الشعرانى لتوفيق الطويل •

أرسل الى « الشعرانى » المال الكثير فتارة يرده الشيخ ويقـــول لمرسله : فرقوه على من هو أحوج اليه ، وتارة يبذره ٠

وجاء مرة « الدفتردار أحمد » بمائة دينار ، فقال للشعرانى خذ هذه الدراهم فتوسع فيها ، فردها عليه ، وقال : عندى بحمد الله صندوق ملآن ، فخرج وأرسلها مع مملوك ، وقال : أعطها له سرا بحيث لا يراك أحد ، لظنه أنه ردها رياء ، فلما دخل عليه المملوك قال له على الفور : ياولدى ، لم آخذها من سيدك ، فهـــل آخذها منك ؟ فرجع وأخبر سيده فقال « الدفتردار أحمد » : هذا رجل غريب فى فقراء مصر وأخذ يمدحه فى كل مجلس ٠

وبهذه القدوة وبتلك السياسة تمكن « الشعرانى » من الهيمنة على نفوس مريديه وتلاميذه والتأثير فيهم وتربيتهم على القناعة والعفة التى ترفع من همتهم وتلبسهم لباس العزة والكرامة بين أقرانهم ٠

وكان يأخذ مريديه بألوان مختلفة من العبادة تناسب أحوالهم ويفرض عليهم القيام بكثير من أنواع المجاهدة من صيام وصـــلاة وأوراد وأحزاب وتلاوة ، وكان مجلس الذكر العام يجمع بينهم جميعا فى الأوقات التى حددها لذلك ، وقد رتب مجلس الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ولم يتعطل ليلة واحدة ، كما رتب مجلسا بعد صلاة الصبح باشارة من الخضر عليه السلام حين قال له : لا بأس من أن تجلس بجماعة بعد صلاة الصبح تصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم تذكرون حتى ترتفع الشمس قدر رمح ، أما مجلس الليل فقد رتبه باشارة من شيخه « على الشونى » ٠

وكانت هذه المجالس لا يتركها مريدوه كلهم ، ويقومون الى جانبها بما يفرض عليهم كل على حدة ٠ وكان هو قدوتهم فى ذلك ، لا ينام من الليل الا أقله . ولا ينام الثلث الأخير من الليل على الاطلاق وكانت تلاوة القرآن فى الزاوية لا تنقطع ليـلا أو نهارا ، لا يفرغ

قارىء حتى يكون قد بدأ آخر ، وكان « الشعرانى » يستمع الى هذه التلاوة وهو جالس في بيته قرير العين بذلك ·

دخل مرة فى الليــل ثلاثة أملاك وهو بين النائم واليقظان فسلموا عليه ، فقال أحدهم لصاحبيه : قد طفتم الليلة مشرق الأرض ومغربها ، فهل رأيتم بقعة أكثر ذكرا وقرآنا من هذه البقعة ؟ فقالا : لا · فقال أحد الأملاك للآخر : فما حد ما تصل اليه بركة هذا المجلس ومدده ؟ فقال : ينتهى الى حد باب الحاكم من جهة باب النصر ، فقال : وما حده من جهة الشرق ؟ فقال : الى حد باب الشعرية على يسار الداخل منه ·

ويعقب « الشعرانى » على هذه الرؤيا قائلا : مازالت هذه البركة تتسع وتتسع حتى شملت الكثير من المدن والقرى بل والأقطار (١) ·

ويحضر المريدون مجالس الذكر والعبادة كما يحضرون مجالس التصوف التى يعقدها لها شيخهم وغيره من الشيوخ الذين كانوا يترددون كثيرا على الزاوية ، ويعمــل حديثهم فى نفوسهم عمـل السحر ، فتصفو وترق وتتهذب · وهكذا يجـد المجاورون زادهم الروحى الكامل فى ظلال هذه الزاوية المباركة ·

وبجوار هذه الرعاية الروحية يحضر المريدون حلقات الدروس العلمية المختلفة من فقه ونحو وشريعة وطب وتوحيد وغير ذلك من فروع العلم ، فقد كانت الزاوية مدرسة حافلة بشتى المعــارف والفنون ·

ويعد « الشعرانى » من نعم الله عليه أن طــلاب زاويته لم يحتاجوا الى غيره فى مختلف علومهم فقد أعطاه الله من علوم الشريعة

---

(١) المناقب الكبرى ص ١١٢ ·

واللغة ما يكفى أصحابه ولا يحوجهم الى الخروج ليقرءوا القرآن على غيره أو ليتفقهوا فى مختلف المذاهب والعلوم من فقه وبيان وبديع ومعان وطب وتفسير وميقات وفرائض وغيرها ، كل علم يطلبونه يجدونه عنده ، وقد وضع كتابا فى الطب لهذه الغاية عنوانه « مختصر تذكرة السويدى فى الطب » .

واذن فقد كانت الزاوية حافلة بكل ما يطلبه المريدون من غايات ، ووجدوا فى ظلها كل عون مادى ورعاية اجتماعية وزاد روحى وعلمى ، وتخرج فيها الكثيرون من التلاميذ الذين ساروا على درب أستاذهم وانتفعوا بعلمه وعمله .

قال له أحد السائحين : لقد طفت بكثير من البلاد فى مصر وخارجها فلم أر مثل هذه الزاوية نفعا وعمرانا .

وقال له الشيخ « أبو الفضل » شيخ بيت بنى الوفا : طفنا مشارق الأرض ومغاربها فلم نجد أكثر خيرا ولا ذكرا ولا علما ولا أدبا من أهل زاويتك والمجاورين بها .

وهذا التقرير نفسه يقرره « الشبلى » (١) .

وقال « المناوى » صاحب طبقات الشاذلية : كان الناس يسمعون لزاوية « الشعرانى » دويا كدوى النحل ليلا ونهارا (١) .

كما يقرر الدكتور توفيق الطويل أن هذه الزاوية حفلت بالقراء والعلماء فى الفقه والحديث والتفسير والنحو وما اليها من العلوم واكتظت بالقراء فى التصوف والمقيمين على ذكر الله وقراءة الأوراد والأحزاب (٢) .

---

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ٥٠ .
(٢) الشعرانى لتوفيق الطويل .

• الشعراني ورجال الأزهر

« الشعراني » ابن الأزهر ، فقد استظل بظله منذ أول يوم وطئت فيه قدماه أرض القاهرة ، وبين جدرانه تلقى ألوانا مختلفة من العلوم والمعارف ، وعلى أيدى علمائه الأجلاء درس أصول المواد العلمية وفروعها ، وتعلم فنون الحكمة ، ولم تنقطع صلته بالأزهر حتى بعد انتقاله منه الى جامع « الغمرى » فقد ظل يتردد عليه ويواظب على حضور كثير من الدروس فيه • يحكى عن شيخه الامام « شمس الدين الديروطى » قائلا : وقد حضرت مجلس وعظه فى الجامع الأزهر مرات (١) • وطالت مدة خدمته لشيخه « نور الدين الشونى » الذى كان ملازما للجامع الأزهر ، والى الأزهر يرجع الفضل فى نبوغه فى كل العلوم الشرعية واللسانية والعقلية التى حصلها وأجادها وبرع وألف فيها •

« والشعرانى » لاينكر ذلك ولكنه يباهى به •

وقد ظل الأزهر منارة العلم والعرفان « والقلعة التى قامت على حراسة علوم للدين واللغة حتى الآن ، وبعد أن عمرت أكثر من ألف عام » (٢) وكان علماؤه الأجلاء محل ثقة الشعب والحكومة يتصدرون الزعامة ويمثلون القيادة الروحية ، وعنهم تصدر الأحكام التى تجد لها الصوت المسموع ، والآراء التى تصادف الآذان

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٦٤ •

(٢) مساجد ومعاهد جـ ١ ص ٢٤ •

الصـــاغية ، ولقد مرت بالأزهر فترات حالكة جمدت فيها العلوم والفنون ، ووقفت العقلية الأزهرية عند حد لاتتخطاه ؛ وكان ذلك فى العهد العثمانى الذى أصـــاب الحياة المصرية ــ بصفة عامة ــ بموجة من الكساد فى شتى مرافقها ، ووصلت عدواها الى الأزهر « فجف ماؤه وذوت نضرته وغشـــيه الظلام » (١) • ولا غرابة فى ذلك ، فقد نقل العثمانيون الى القسطنطينية ذخائر الكتب والآثار ونفائس العلوم والمعارف ونابغى الصناع والفنيين ، وقبضوا على الأعلام من أئمة العلم وقادة الفكر وزعماء البلاد ورحلوهم الى تركيا، وفى تاريخ « ابن اياس » قائمة بأسماء كثير من هؤلاء (٢) •

وسرت عدوى الجمود الذهنى الى النفوس ، فأثارت عند بعض العلماء نار الحقد والموجدة على النابغين والنابهين ، وأكل الحسد قلوب هؤلاء لأنهم رأوا غيرهم قبلة العلماء والرؤســاء ، فأخذوا يضعون فى طريقهم الأشواك ، ويثيرون حولهم الغبار ، ويفترون ضدهم الأقاويل ، وينشرون حولهم الشبهات ، ويدســون عليهــم بالحق وبالباطل •

والحقد ــ فى الحقيقة ــ ليس له زمان ومكان ، ولكنه يظهر حتى فى أزهــر العصــور وأزهى الأمكنــة ، فهو داء فى النفوس الرخيصة التى لم يهذبها الايمــان الكامل ، ولم ينورها الايثار الكريم • الا أنه فى أوقات الجمــود الذهنى والنفسى يصبح نارا تتأجج فتأكل القلوب ، ويسرى شواظها فيلتهم المثل والمبادىء ويقضى على القيم والأخلاق ، ولايبالى الحاقدون حينئذ بما يترتب على ذلك من نتـــائج وآثار ، وغاياتهـــم المريضــة تبرر وســـائلهم الشريرة •

---

(١) مساجد ومعاهد ج ١ ص ٢٤ •
(٢) ص ١١٢٤ •

وهذا ما أصاب « الشعرانى » من هؤلاء .

اعتبره بعض الفقهاء مارقا عن الدين لسبب - فى رأيهم - هو أنه كان يؤثر علم الباطن على علم الظاهر ، وأداه ذلك - فى نظرهم - الى الحط من شأن العلوم الدينية التى تجىء اكتسابا (١)

« والشعرانى » لم يكن يؤثر علم الباطن على الظاهر ، ولم يحط من شأن العلوم الدينية كما زعموا ، ولكنه كان يرى ويعتقد ما يراه ويعتقده شيخه الخواص من أن الحقيقة والشريعة كفتا الميزان والانسان قلبها ، وكان دائما يقول : الشريعة والحقيقة وجهان لشىء واحد وهو الشرع الحنيف .

والسبب الرئيسى ليس هذا ، وانما هو الغيرة والحسد ، فقد علت منزلة « الشعرانى » وأصبح مقصد الناس ومعقد أملهم ، وتواضع له الحكام والزعماء ، وأصبح يمثل القيادة الشعبية الحقيقية التى كانت للأزهريين .

أثار هؤلاء بشأنه فتنة فى الأزهر لم تلبث أن استفحل أمرها وازداد خطرها حتى وصلت الى الحجاز وغيره من الأقطار الاسلامية . وكما فعل الفقهاء فى عصر « ابن عربى » معه فعل معاصرو « الشعرانى » وكما زيف الفقهاء على لسان « ابن عربى » وقلمه كلاما ونسبوه اليه وشنعوا بسببه عليه كذلك فعل الفقهاء مع « الشعرانى » ، فقد زيفوا مقدمة كتابه « كشف الغمة » ودسوا فى ثنايا كتاب « البحر المورود » كلاما يخالف الشرع واستصدروا بذلك حكما جائرا ضد « الشعرانى » .

واستفحلت الفتنة بعد أن أحكم الخصوم الخطة وأتقنوا

---

(١) الشعرانى لتوفيق الطويل .

تزويرهم ، وروجوا هذه المقالات الزائفة فى مختلف الأقطار ، ولبث هذا التزييف قائما فترة طويلة ، وقد تزعم اشعال هذه الفتنة فى الازهر « الشيخ حسين العبادى » (١) الذى وقف كل همه على تبنى قضيتها واثارة الخواطر والأذهان ضد « الشعرانى ويقص « الشعرانى » طرفا من هذه الخصومة بأسلوبه قائلا : ـ

« دسوا على فى كتابى « البحر المورود » جملة من العقائد الزائفة ، وأشاعوا تلك العقائد فى مصر ومكة نحو ثلاث سنين وأنا برىء منها ، وكان العلماء كتبوا عليه وأجازوه ، فما سكنت الفتنة حتى أرسلت اليهم النسخة التى عليها خطوطهم ، وكان ممن انتدب لنصرتى الشيخ الامام « ناصر الدين اللقانى المالكى » رضى الله تعالى عنه ، ثم ان بعض الحسدة أشاع فى مصر ومكة أن علماء مصر رجعوا عن كتابتهم على مؤلفات فلان كلها ، فشك بعض الناس فى ذلك فأرسلت النسخة للعلماء ثالث مرة فكتبوا تحت خطوطهم : كذب والله من ينسب الينا أننا رجعنا عن كتابتنا على هذا الكتاب وغيره من مؤلفات فلان » (٢) .

وظل « الشعرانى » يكافح خصومه الذين تصدوا له فى كل ميدان ، وحاولوا أن يحطوا من شأنه عند مناصريه ، ويحكى صاحب « المناقب الكبرى » عن ذلك قائلا : ان بعض الناس سعوا عند « ناصر اللقانى » بالباطل زاعمين له أن « الشعرانى » يجمع بين النساء والرجال فى مكان واحد ، فتغير خاطر « ناصر الدين اللقانى » لذلك ، ولكن « الشعرانى » تمكن من أن يزيل مافى

---

(١) البحر المورود المقدمة .

(٢) اليواقيت فى الجواهر ص ٧ .

نفس الشيخ حين أطلعه على حقيقة حاله وأنه برىء مما نسب اليه عن طريق كرامة من كراماته وفحولها : أنه أرسل اليه يستعير منه « مدونة الامام مالك » رضى الله عنه ، فأرسلهـــا اليـــه قائـــلا : عســاه يتوب مما هو فيه ، وكانت المدونة متعددة الأجزاء لاتحمل بسهولة ، ولايكفى قراءتها أشهر معدودات ٠

وحين حملها أحد أتباع « اللقانى » المقربين أبقاه « الشعرانى » عنده ، وتمكن هذا التابع أن يطلع على حاله حيث وجده صارفا وقته فى العبادة والتهجد ، ولم ير عنده ما بلغ « اللقانى » عنه من أنه يجمع بين الرجال والنســاء فى مجلس الذكر ولا فى غير مجلس الذكر ٠ بل وجد لكل طائفة حجــرا مستقلة منعزلة ، ولم يغب « الشعرانى » عن نظــر التابع الا فترة يسيرة قبيــل الفجــر ثم صلى معه الصبح وحضر مجلس الذكر حتى طلوع الشمس كالمعتاد ثم ناوله « المدونة » قائلا له : بلغ الشيخ تحياتى وشكرى ٠

وحينما عاد التـــابع الى اللقـــانى « بالمدونة ازداد استهزاء « بالشعرانى » فقد ظنه يعبث به ، فانه لايعقل أن يكون قد وجد ضالته فى « المدونة » فى هذا الوقت القصير ، ولكن « اللقانى » حين تصفحها وجد على كل صفحة منها تعليقا بخط « الشعرانى » وشرحا فى بعض المواضع مما يقطع بأنه قرأ « المدونة » كلها فى ذلك الوقت اليسير الذى غاب فيه عن نظر التابع قبيــل الفجر بقليل ٠ وأدرك « اللقانى » من فوره أن الله قد مد للشعرانى فى وقته وبارك له فيه ، وذلك لايحدث الا لمن كانت العناية تلحظه ٠ وقام من فوره واعتذر اليه عن ذلك التغير الذى حدث فى خاطره نحوه ٠

وظل « اللقانى » يكرم « الشعرانى » جدا ، ويحدث عن ذلك قائلا : ـ « كنت اذا وردت على شيخى الشيخ « ناصر الدين اللقانى» يقوم لى من على مرتبته ويجلسنى عليها بالجامع الأزهر ويجلس بين يدى كجلسة المتعلم ، فأصير فى خجل منه وحياء ولا يمكننى من فعل شيء غير هذا حتى انصرف •

وكان « الشعرانى » يدرك حسد الحساد فيعمد الى استكتاب الأجلاء من العلماء على مؤلفاته كتقرير منهم بأن كتابته خالية من كل أمر خارج عن الشرع الشريف •

ولكن مكر هؤلاء الحساد كان يزين لهم أن يسعوا بالباطل قائلين : ان الشعرانى أضاف الى آرائه فى مؤلفاته آراء أخرى خارجة بعد أن حصل على اجازة للعلماء عليها ، وذلك امعان منهم فى الكيد للرجل ، فيعود بالنسخة اليهم مرة أخرى ليراجعوا ويقرءوا ويقرروا من جديد •

وكان « الشعرانى » يفوض أمره الى الله البصير بالعباد ليرد عنه كيد هؤلاء الكائدين ، وكان يعتقد أن هذه سنة الكون ، فما نبه أحد الا وابتلاه الله بمن ينغص عليه حاله ، وقد أثبت هذا القول فى كثير من مؤلفاته ، وأيده بالشواهد الصادقة من حياة العلماء والأولياء ، وحقا ذلك ، فالله جل وعلا يقول « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون» فما بالنا بغير الأنبياء ؟ •

وليست هذه الفتنة أول عقبة تعرض لها « الشعرانى » فقد عرفنا أنه غادر جامع الغمرى لأن الحسد أكل قلوب قوم هناك فنغصوا عليه وقته فتركهم •

الشعراني والشريعة

« والشعراني » لم يكن مناهضا للشريعة في حياته ، ولكنه ظل طول حياته حفيظا عليها مدافعا عنها حفيا بها مقيما لأركانها ، وكان يدقق في ذلك تدقيقا كبيرا ، وكان لورعه قصص تروى وتتلى وتضعه على رأس قائمة الورعين • ولكنه كان لتنور بصيرته يدرك من أسرار الشريعة مالايدركه غيره ، وقد انكشف له من معنى التعبد ما جعله ينطق ويفعل بمالا ينطق غيره من الفقهاء أو يفعل ، فيدخل في روع هؤلاء أن هذه مخالفة مع أنها لم تخرج عن عين الشرع بل هي سره ومطلوبه •

دعا « الشعراني » في كتبه الى عدم التعبد بالكلمات ، ولكن يجب التخلق بما تدعو اليه هذه الكلمات ، فقد هاله أن يرى بعض العلماء يعكفون على دروس الفقه يفهمونها فهما جيدا ويشرحونها ويعلقون عليها ويكتبون الحواشي والتقريرات دون أن يجد لهذا الفهم أثرا في السلوك والمعاملات • فعلام — اذن — يكون العلم ؟

ان العلم اذا لم يثمر العمل لاقيمة له ، والعلم ان لم يكن وسيلة لتحصيل المكارم فالجهل خير منه • لقد جمدت أذهان العلماء ونفوسهم ووقفت عند حد لاتتجاوزه ، وظن هؤلاء أن غاية العلم فهم الكلمات ، وغفلوا عما يدعو اليه العلم من تخلق واعتبار ، فنعى « الشعراني » على العلماء هذه الحال ، ودعاهم الى أن يفكروا جيدا بعقولهم فيما يجب عليهم وضرب لهم الأمثلة المختلفة التي تنبههم وتحذرهم من عاقبة أمرهم •

قال لهم : ليس الغرض من تعلم القرآن أن يعرف العالم وجوه قراءاته دون الانتفاع بمكنون دعوته والتخلق بآدابه ، ويحكي في ذلك ما سمعه من شيخه الخواص قائلا : — سمعت شيخنا —

رضى الله عنه ـ يقول لقارىء : اقرأ القرآن من حيث ماهو كلام الله لا من حيث ماتدل عليــه الآيـات من الأحكام والقصص فحسب والمراد بالتدبر التدبر الذى أمر الله به وهو الذى يجمع القـارىء على الله (١) ٠

وليس الهدف من علم الكلام أن يعرف الانسان آراء الفرق المختلفة ، دون أن يتمكن من استشعار هيبة الخالق واحاطته وسعة علمه ومبلغ قدرته ٠

وليس المقصــــود من دراســة الفقه معرفة أركان الصــــلاة وشروطها وفرائض الوضوء ونواقضه وطرق المعــاملات من غير أن يظهر أثر ذلك فى اتقان الركوع واتمــــام الخشوع والخضوع وادامة الصــلاة وكثرة التهجد وحســـن السـلوك ، وكان يقول للعلماء : لا يكمل العالم فى مقام العلم حتى يصبح الشارع ـ وهو الله جل وعلا ـ مشهودا له فى كل عمل مشروع ٠

الامعان فى الخصومة للشعرانى :

قام الفقهاء وقعدوا لذلك ، كيف يجعل « الشـعرانى » من نفسه معلما لهم ، وبأى حق ينحى باللائمة عليهم ؟

كيف ينقد زهوهم وغـرورهم ؟ ويفند علمهـم ويحكم عليهم بالجهل ؟ ٠

ثار الحاقدون من الفقهاء ضده ، وزيفوا ـ كما سبق ـ كتبه وأعلنوها عليه حربا شعواء لا هوادة فيها ، ولاكوا سيرته بكـــل

(١) الجواهر والدرر ص ١٨٥ ٠

لسان ، ووضعوا من شأنه فى كل مجلس ، وأثاروا ضده الخواطر والأذهــــان .

ووقف « الشعرانى » شامخ الرأس من هذه الفتنة لم تلن له قناة لأنه موقن أن الله سينصره .

ولما لم يجد هؤلاء نتيجة سلكوا طريقا آخر وهو الايقاع به عند السلطان ، فانتهزوا لذلك الفرصة ، وزينوا عند نائب السلطان أن « الشعرانى » يحوك مؤامرة ضد الحكم القائم ، ولاحت هذه الفرصة حين غضب بعض نواب السلطان على ناظر النظار فى عهده فاختفى فى بيته ، وذهب اليه « الشعرانى » ليلقنه درسا فى كيفية معاملة أولى الامر ووجوب الطاعة لهم ، فنقل هؤلاء الخصـــوم الى النائب ما يفيد أن « الشعرانى » اجتمع مع ناظر النظار ليطيحا به ويستبدلا به غيره ، ويبدو أن النائب قد أعار هذا الكلام آذنا صاغيــة فتغير مزاجه من جهة « الشعرانى » .

وسرعان ما كانت عناية الله أسرع من الأذى الذى أراده خصوم « الشعرانى » له فقد صدرت الأوامر السلطانية من تركيا باقصاء النائب عن منصبه ، فيسرع الى « الشعرانى » فيترضـاه ويستعطفه ويعتذر اليه . والعجيب أن الأوامـــر عادت بعد ذلك الى النائب بالبقاء فى منصبه (١) . ويقف الخصوم مذهولين ، فقـــد باءت مؤمراتهم بالفشل .

ويرقبون فرصة أخرى ، وحانت هـــذه الفرصة التى يقصها « الشعرانى بنفسه قائلا :

ان عليا باشا الوزير نقم على بعض المباشرين وعزم على قتله أونفيه ، فطلع بعض العلماء يشفع فيه فلم يقبل ، فأتوا الى فطلعت

(١) المناقب الكبرى ص ١٩٨ .

للباشا فأكرمني وقبل شفاعتي ، وقال لى : لا تكلف خاطرك قط الى طلوع القلعة وارســـل لنا ورقة فقط ، فبلغ ذلك الحســـدة فاجتمعوا وزيفوا على مسائل فى العلم كاذبة ، وأضافوا الى أمورا منفرة لعلى باشا ، ثم رفعوها اليه ، فلما قرأها قال : أما المسائل المتعلقة بالشريعة فذلك الى العلمـــاء ، وأما غير ذلك فلا أقبله فيه أبدا ، وانما رجعت فى أمره الى قلبى ، فارسلوا اليه قصة ثانية وثالثـــة فمزقها وشاع فى مصر أن الباشـــا يحب فلانا ، فقال الحسدة : قد صار أهل مصر مع « الشـــعرانى » وكذلك الوزير ، فاكتبوا فيه قصة ترسل لباب السلطان ٠

« فكتبوا فى قصـــة خلاصتها أن شخصا فى مصر قد ادعى الاجتهاد المطلق ،وكثرت أتباعه ويخاف على المملكة منه ، والمسئول من صدقات مولانا السلطان نفيه من مصر ٠

« ورشوا بعض الوزراء ليحملها الى باب الســلطان ، فحملها ، وقيض الله لى الشيخ « عبد اللطيف أمين الدين »فنفى عنى كـــل هذا ، وقال : ان القصة كلها زور على الرجل الصالح »(١) ٠

وحين يئس هؤلاء الكائدون من قصدهم انحط مستواهم الى درجة التفكير فى اغتياله ــ وبخاصة بعد أن تزايدت شـــهرته ، وارتفعت مكانته فى نفوس الناس ، والتف حـــوله كثير من طلاب العلم وصالحى العلماء ، وحمل لواء الدفاع عنه كثير من منصفى الفقهاء فى مختلف المذاهب ــ فدسوا له السم فى الطعــام فأنجاه الله منـــه ، وأكل الطعـــام المسموم أولاد داعيه الى هذا الطعـــام فماتوا (٢) ، وكان ذلك درسا قاسيا وعقابا رادعا ٠

---

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ١٤١ ٠

(٢) المناقب الكبرى ٠

ولكن هذا الدرس لم ينبه هؤلاء المعاندين الى الكف عن محاولاتهم ضد هذا الرجل الصالح ، فأغروا به من يترصد له الطريق ليقضى عليه بواسطة خنجر أو سكين ، ولكن ذلك التبييت لم يسفر الا عن فشل تام أضرم نار الحقد والبغض وزاد من حدة الغيرة والحسد ، فلجئوا الى وسيلة أخرى هى وسيلة الارجاف بموته ، علهم يصلون بالخيال الى مالم يمكنهم الوصول اليه عن طريق الحقيقة ، وكتبوا بشائعة موته كتبا وأرسلوها الى بقاع مختلفة كدمياط والمحلة والاسكندرية ٠

ولكن هذه الشائعة لم تلبث أن تبددت أمام الحقيقة الماثلة الحية ، وباءت كل هذه المحاولات ـ كما باء غيرها ـ بالفشل ، وبقى «الشعرانى» قويا خالد الذكر يملأ الأذهان والقلوب والأسماع ٠ وخمدت الفتنة ٠ وصدق الله العظيم الذى يقول ٠٠ « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ » ٠

• أخلاق الشعرانى

وفر « الشعرانى » على قارئيه جهدا كبيرا بما تركه من آثار تدل على أخلاقه وصفاته ، فله فى ذلك ثروة ضخمة خصص لها فى كتبه أماكن متفرقة ، وأفرد لهـا كتابا خاصا أسماه « لطائف المنن والأخلاق » يقع فى مجلدين •

وقارىء الكتاب يخرج منه بصورة دقيقة لأخلاق هذا الصوفى الكبير ، ولسنا مع من يقول : ان « الشعرانى » كان كثير التحدث عن نفسه ، فالحديث عن النفس مقبول ، متى ارتفع الانسان عن نفســه وانتصر على وساوسها ، ولم يصـــبح حديثه مجرد اعـلان شخصى يهدف الى رفع القيمة فى أعين الناس كما يفعل الداعون لأنفسهم فى المحافل وميادين الانتخابات •

وقد قطع هو بنفســه الطريق على من يظن ذلك الظن حين أدلى ببيان عن سبب تأليف الكتاب ، وأوضح ذلك فى عدة أمور :ــ منها ، اقتداء اخوانه به فى هذه الأخــلاق التى كان يتخلق بهـا دون أن يشعروا به ، فلما حثهـم عليهـا أجـابوه بأن ذلك فوق ما يطيقون ولايمكن لأحد أن يتخلق بما يأمرهم به ، فأظهر أخلاقه لهم بعد استخارة الله فى ذلك •

ومنها ، استدامة شكر الله على ما أنعم به عليــه من محاسن الأخلاق والصفات •

ومنها أعلام أهل عصره بدرجته فى العلم والعمل ليقتدوا به فى حفظ كتب الشريعة والتخلق بآدابها •

ومنها : استغناء من يريد من اخوانه أن يذكر شـــيئا من مناقبه عن الفحص عنها وتتبع آثارها ، وربما زاد فيها أو نقص منها · كما يقع في ذلك جامعو مناقب العلماء والصالحين ·

والحديث عن النفس وارد شرعا ـ اذا كان الهدف منـــه الاصلاح لا التباهي ، وقد أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله : وأما بنعمة ربك فحدث · وهو أمر له ولأمتـه ، وتحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه مفتخرا فقال : انما أنا رحمة مهداة ، وانما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، وأنا ســـيد ولد آدم ولافخر ، وأنا ابن عبد المطلب ·· وغير ذلك من آثار كريمة واردة ·

واقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم كثير من العلماء والصالحين ذكر منهم « الشعراني » في كتـابه : الفقيه المحدث « عبد الغافر الفارسي » و « العماد الأصـــفهاني » و « ياقوت الحمـوي » و « لســـان الدين بن الخطيب » و « أبـا عبد الله القـــرشي » و « أبا الربيع المالقي » و « أبا شـــامة » و « أبا حيـــان » و « الحافظ بن حجر » و « جـلال الدين السيوطي » وغيرهم ·

ومن كلام « محيي الدين بن العربي » في الحديث عن النفس: ليس فوق مرتبة من يزكي نفسه ـ اذا كان صادقا ـ الا مرتبة من زكاه الحق تعـالى عموما وخصوصا ، وقد زكى الله العرب عامة بقوله : كنتم خـــير أمة أخـرجت للنـاس ـ وزكى النبي يحيى عليه السلام بقوله : وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ، وقد زكى عيسى عليه الســلام نفســه بقوله : وجعلني مبـــاركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبـارا شــقيا ، والســلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ·· وسلام الله تعالى على يحيى وتزكيتـه له أعلى

مرتبة من سلام عيسى على نفسه ، وسلام عيسى على نفســه أعلى مرتبة من سلام الحواريين عليه ٠

وفى ذلك دليل على اباحة أن يزكى الانسان نفسه صادقا ٠ متى كان يسعى من وراء ذلك الى تحقيق هدف شريف ، والتزكية الممنوعة بنص القرآن هى المبنية على الظن لا على اليقين ٠

و « الشعرانى » فى ذكــر مناقبــه يقتدى بأستاذيه القريبين منه : « جلال الدين السيوطى » الذى يقول : انما ذكرت مناقبى اقتداء بالسلف الصالح وتعريفا بحالى فى العلم ليأخذه الناس عنى وتحدثا بنعمة الله تعالى ، لا افتخارا على الأقران ولا طلبــا للدنيا ومناصــبها وجاههــا ــ معــاذ الله أن أفعل ذلك ٠ و « الخواص » الذى يقول : اذكر كمالاتك ما استطعت فانه بذلك يكثر شكرك لله، واياك والاكثار من ذكر نقائصــك ، فانه بذلك يقل شــكرك ، فما ربحته من جهة نظرك الى عيوبك خسرته من جهة تعاميك عن محاسنك التى جعلها الله فيك ٠

والصالحون ــ بصــفة عامة ــ دأبــوا على العناية بذكــر ما تخلقوا به من آداب عاليــة وصــاغوا ذلك فى كل ما أثر عنهم من شعر ونثر ، وهم واثقون فى ذلك من سلامتهم من داء الغرور والمفاخرة الذى أصيب به كثير من الناس ٠

ونحن لايمكننا سرد كل ما تخلق به « الشعرانى » من أخلاق، ولكن حسبنا الاشارة الى بعض ذلك مما وضعه فى موضع القمة بالنسبة لسالكى الطرق والمريدين والمقتدين ٠

فمن ذلك « زهده » العظيم ، والزهد لايسمى زهدا الا اذا كان عن قدرة أما اذا كان عن حاجة فليس زهدا ٠

و «الشعراني» كان قادرا وزهد ٠

أوتي المال فارتفع عنه وزهد فيه وانصرف عن بريقه وألقاه على قارعة الطريق ، ويبذره في صحن المسجد وفرقه على فقراء المكتب ورده على أصحابه في أكثر الأحيان ٠

ــ عرض عليه أحد الكبراء ثلاثة آلاف دينار ويزوجه ابنته فأبى ٠

ــ أوصى له قاضي الاسكندرية بثلث ماله وكان نحو مائة ألف نصف فرد ذلك عليه ٠

ــ أوصى له الشيخ « خضر » الذى رباه وهو يتيم بخمسمائة دينار ذهبا فردها على ورثته وأوصت له زوجة الشيخ « خضر » بنحو أربعين قطعة ذهبا فأخذها وفرقها ٠ الى غير ما سبق من أمثلة ٠

ولم يكن زهد « الشعراني » منصرفا الى المال فحسب ، ولكنه تعداه الى الزهد فيما لايزهد فيه الصالحون أنفسهم ٠ لقد زهد فى العلم ٠

فبعد أن اغترف منه ما شاء له أن يغترف نودى من أستاذه « الخواص » أن يزهد فى ذلك العلم ، وأن يغسل صدره منه ٠ فباع كتبه وتصدق بثمنها واحتجب عن حضور مجالس العلم حتى شعر أن صدره لم يعد فيه مسألة من العلم ، وحين فتح الله عليه بعلم لدنى ، وأخذ يعب منه ويروى ظمأه ويكتب من فيضه ما شاء أن يكتب طلب اليه شيخه أيضا أن يزيل ما كتب بالماء ، واستجاب « الشعرانى » لذلك مرات ومرات ٠

والزهد فى العلم آخر ما يزهد فيه الزاهدون لاسيما اذا كانوا من العلماء ٠ فالعلم طاعة ، فكيف يزهد الانسان فى الطاعة ؟ ،

ولكنها التربية الخلقية الممتازة التى تريد أن تبنى قمة شماء وطريقها فى ذلك قطع العلائق والركون الى الأسباب · وللشعرانى كتاب أورده « بروكلمان » تحت عنوان : الدر المنظوم فى زهد العلوم ·

وعن طريق هذا الزهد توصل « الشعرانى » الى بناء مجده العلمى الشامخ ، فقد أفاض الله عليه من لدنه رحمة وعلما ، وفتح أمامه مغاليق الحكمـــة فغرف من بحرها وذاق من فيضها ما أشار الى بعض حقائقه فى آثاره النفيسة التى تركها ، وعن طريق الزهد يحقق الانسان كل كمال ، فالزهد هو معراج الواصلين ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قدوة الزاهدين ، وهو أساس الطريق الصوفى ووسيلة المريد الى بلوغ أسمى الغايات الكمالية ، وليس وســيلة فحسب ولكنه غـاية أيضـا ، وهذا سر ما سمعنا شيخنا السيد محمد على منصور الأقدمى رضى الله عنه يردده : —

وتجملوا بالزهـد دوما والأدب فالزهد معـراج لنيل وصـال

ولذا اجتمع مع الزهد الخشية فقد تحققت الثمرة عاجلا وهذا ما نفهمه أيضا من ترديد شيخنا رضى الله عنه : —

وتخلقوا — هيا — بأخلاق العلا وتجمــلوا بالزهد بل والرهبة

واذا كان زهد « الشعرانى » قد وصل الى هذه الدرجة من السمو فمن الأولى أن يزهد فى كل مباح بعد ذلك · فقد زهد فى كل مظهر ، وزهد فى معاشرة الناس فاعتزلهم حينـــا من الدهر ومكث بعيدا عنهم وارتدى الخرق البالية الملقاة على قارعة الطريق وفوق الكيمان وزهـد فى الحلال الطيب ، وروض نفســه على أن يقتـات مما يهمله باعة الفجـل والكرات والخس فى الأماكن التى ينظفون فيها بقولهم ·

وزهد فوق ذلك في الكرامات ، فقد أعطاه الله فيضا من الكشف يشير إليه بقوله : ومما أنعم الله به على كشف حجابي في أوائل دخولي في طريق القوم حتى سمعت تسبيح الجمادات والحيوانات ، وذلك أني كنت أصلي المغرب خلف الشيخ « أمين الدين بن النجار » امام جامع الغمرى بالقاهرة فانكشف الحجاب عن قلبي من صلاة المغرب الى طلوع الشمس ، فصرت أسمع كلام أهل مصر ثم اتسع الأمر الى قرى مصر .

ولكنه زهد في ذلك ورأى من رحمة الله به أن يسدل على قلبه الحجاب ولولا ذلك لذهل عقله كما يقول .

وتناول زهده الرغبة في الظهور ، فقد أخذ العهد على أصحابه أنهم لايثنون عليه في مجلس ولايجيبون عنه عدوا الا أن يرد أحدهم عن عرضه امتثالا لأمر الشارع الحكيم ، ولا يقوى على الزهد في الشهرة الا من كملت حاله وقويت روحه ، لأن حب الشهرة له سلطانه على النفوس والقلوب .

والزهد في الظهور أو الشهرة أمر له معناه عند الصوفية ، وحال ذاقوا من جناها حلاوة عرفوا هم حقيقتها وقيمتها ، وأطلقوا على ذلك « الخمول » وقالوا : من دفن نفسه في أرض الخمول نبت ، وقالوا أيضا : حب الظهور يقصم الظهور . وهنا أسلوب مطرز بجناس بديع . وقال « ابن عطاء الله السكندرى في حكمه : ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه . ويعلق « الشيخ زكريا الأنصارى » شارح الحكم على ذلك بقوله : السالك اذا تعاطى أسباب الشهرة في بدايته قل أن يفلح في نهايته ، وبقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الاخلاص فمبنى أمره في الابتداء على الفرار من الخلق واخمال الذكر وعدم

حب الشهرة ، حتى اذا فنيت أوصافه وبقى بربه كان مع مولاه ان شاء أظهره ان شاء أخفاه (١) · ولايخفى أن الشيخ « زكريا الأنصارى » كان من شيوخ الشعرانى ·

وقد كان « الشعرانى » فى زهده الظهور والشهرة انما يضرب على وتر حساس فى المجتمع ، فما قتل الأخلاق الا الرغبة فى التسلط والشهرة وذيوع الصيت ، لأن الذى يرغب فى ذلك لايفكر فى أى الوسائل يسلك قصدا لغايته وتحقيقا لهدفه ، ولو غش أو خدع ، وكم من أناس شهروا على حساب مبادئهم وظهروا على حساب أخلاقهم ، ومتى ظفروا عموا عن كل ما كانوا يتشدقون به من مثل ، ونسوا كل ما تحدثوا به من فضائل · أليس الصوفية اذن أطباء قلوب ؟

وهكذا يمضى « الشعرانى » فى تحقيق أقصى مقام فى الزهد، فيسلمه ذلك الى مقام آخر يسميه الصوفية « زهد الزهد » وهو أن تصبح الدنيا فى يد الزاهد لا فى قلبه ، ويستطيع أن يتقلب فى النعمة دون أن يستهويه شىء منها أو تتعلق همته بزيف بريقها ، وهذا ما يفسر لنا سلوكه حين كان يرد كل ما يقدم اليه من هدايا فى بادىء أمره ثم يقبل بعض هذه الهدايا بعد ذلك ، فقد ردها حين كان يخشى أن تصرفه عن غايته ، وقبلها حين عرف أنها تعينه على تحقيق غايته ·

كان يجزع من الادخار فى أول أمره وكان لايستقر به مكان حتى ينفق آخر درهم على الفقراء قبل أن يقبل الليل ، ثم لم يلبث أن قوى حاله ، فادخر لمجاورى زاويته ما يكفيهم ويفى بحاجتهم

---

(١) شرح حكم ابن عطاء الله لابن عباد الرندى ص ١٢ ·

على المستوى المتوسط ، وقد كانوا يتعمون بما لا ينعم هو به ، فيطعمون اللحم والفاكهة والحلوى ، وكان يكتفى بكسرة من الخبز ويحمد لله على ذلك • ويذكر صاحب « المناقب الكبرى » ذلك قائلا: كان صدره يضيق اذا بات عنده دينار أو درهم ولا يأوى الى بيته حتى يجد من يأخذه ولم يزل على ذلك الخلق حتى دخلت سنة سبع وخمسين وتسعمائة ، فأطلعه الله على أمر دعاه الى أن يضع عنده بعض المال ، ويعلل ذلك بقوله : ان فى ذلك تسكينا للجزء الذى يضطرب فى الانسان ويهتم بالرزق وينسى ضمان الله لرزقه ويخاف أن يضيعه (١) •

وفى هذا التعليل رجوع الى الطبيعة البشرية التى لايمكن أن ينساها الانسان ، وقديما قال الحكماء : اذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت ، ولكن « الشعرانى » والحق يقال لم يشغله أمر قوت نفسه ، ولكنه كان يشغله أمر قوت مئات أصبح مسئولا عن كسائهم وغذائهم وعلاجهم ونفقتهم ، وفى ذلك يقول الدكتور « توفيق الطويل » : اضطر الى قبول الأوقاف على زاويته حين كثر المجاورون حوله وثقلت التبعات على كاهله ، فمكنه ذلك من أن يتكفل بالانفاق على مريديه ثلاثين عاما دون أن يزاول عملا يدر عليه مالا •

واننا لنلمس فى « الشعرانى » أنه كان يرد احسان المحسنين ولكنه كان يقبل وقف الواقفين ، فهل ثمة تناقض فى موقفه ؟

وللاجابة عن ذلك لابد أن تعرف موقف كثير من الصوفية من قبول الصدقات • انهم ينظرون اليها على أنها تطهير لصاحبها كما يشير الى ذلك القرآن الكريم فى قوله : « خذ من أموالهم صدقة

---

(١) المناقب الكبرى ص ٩٠ •

تطهرهم وتزكيهم بها » فكثير منهم يمتنع عن قبولها لأن فيها تحملا لأوضار المتصدق ، « والشعرانى » كان كل همه أن يربى فى نفوس مريديه العزة والكرامة ويأبى عليهم أن يعيشـوا على فضـلات الاحسان (١) فاليد العليا خير من اليد السفلى ، وفى ذلك ارتفاع بهمتهم وسمو بمكانتهم ، وهذا هدف تربوى وروحى حكيم ٠

ويتصل بالزهد اتصالا وثيقا « الورع » وهو احدى الصفات البارزة فى « الشعرانى » رضى الله عنه ، وقد طبعت فيه هذه الصفة من أسرته التى كانت تبالغ فى الورع مبالغة كبيرة ٠ فهذا جده الشيخ « نور الدين على الأنصارى » يقول : الأصـل فى الطريق الى الله تعالى طيب المطعم ٠ وكان له فى الورع قدم ثابتة : كان اذا أراد أن يطحن قلب الحجر وأخـرج ما تحته وأطعمه كلاب القرية ، واذا فرغ من طحنه ترك للناس بعض دقيق قمحه ٠ وكان لا يأكل فراخ حمام الأبراج ولا يأكل عسل النحل ، لأن النـاس لا تطيب نفوسهم بما تأكله من زروعهم ، بدليل ما يقومون به من وسائل لدفعها عنها ، وناقشه ابنه فى ذلك مرة قائلا له : لقد أباح الله للنحل أن تأكل من ثمار الناس فى قوله تعالى « ثم كلى من كل الثمرات فأسلكى سبل ربك ذللا » ٠٠ فليس فى ذلك ما يضير لأن الآية تفيد العموم ونحن من العموم ، فأجابه والده : الخاص مقدم على العام وقد حرم الله أن يرعى الانسان بقرته فى زرع الناس ثم يشرب لبنها ٠ وقصص هذا الجد فى الورع كثيرة ، وقد ورث « الشعرانى » عنه ذلك الورع ٠

والورع مقام من مقامات الصوفية أو حال لهم ، اذا تحققوا به دققوا فى كل شىء وحاسبوا أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة ٠ وقد

---

(١) الشعرانى لتوفيق الطويل ٠

تحقق « الشعرانى » بذلك • وقد مر بنا أنه رمدت عينه مرة فأتوه بلبن مرضع فلم يقبله الا بثمنه ، وهذا ورع لم يسبق اليه •

ومن تمام ورعه أنه كان يستوى فى نظره الذهب والتراب ولو أن السماء أمطرت ذهبا لما وجد عنده داعية ليلتقط شيئا منه ، وكان لا يأكل من هدايا الظلمة ، وينصف كل من يعامله فى البيع والشراء ، وكان لا يطعم ضيفه ولا أهله ولا أولاده ولا أصحابه شيئا فيه شبهة ، وكان يكره الأكل من طعام النذور والأعراس الواسعة والعزائم ، ومبنى ذلك على العفة التى وهبها الله له وقال فى ذلك فى لطائف المنن : كانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمتى فأغنتنى ـ والحمد لله ـ عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لى أنى باشرت حـرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى من مدة بلغت الحلم ولم يزل الحق سبحانه يرزقنى من حيث لا أحتسب الى وقتى هذا •

ومما أخذ عليه فى العهود ما يشير اليه بقوله : أن يكون سدانا ولحمتنا القناعة والتعفف والأكل من الكسب الحلال بطريقة الشرع الشامل لمد اليدين بالدعاء الى حضرة الله تعالى اذا عجزنا عن عمل الحرفة المعتادة ولا نأكل بديننا • ولكون « الشعرانى » أصبح مقصد الناس فى التوسط لدى المسئولين فى مصالحهم ، فانه رأى أن من شرط الشافع العفة والورع عما بأيدى الولاة فانهم اذا رأوه زاهدا فيما رغب فيه ملوكهم فضـلا عنهم عظموه ضرورة وأحبوه وقبلوا شفاعته وتبركوا به (١) •

كان لا يأخذ أجرة دولاب فى أيام بطالته ، ولا يأخذ خراج أرض أكل زرعها الدود أو شرقت أو لم تأت بمحصول ، وكان لا يتقاضى الخراج معجلا لاحتمال الموت •

---

(١) لواقح الأنوار القدسية ص ٥٢ •

كان لا يقبل هدية قيل له عنها قبل حضورها لاستشراف النفس لها ، كان يلبس الطيلسان حياء ، ومن شروط لبسه أنه يجبر لابسه على أن يكون نظره الى الأرض ·

ومن تمام ورعه أنه كان لا يسيء الظن بأحد من المسلمين اطلاقا ، وكان يحمل كلامهم على أحسن محامله ومن ورعه كان يستحي أن يقول في صلاته : خشع لك سمعي وبصري ، فربما يكون بخلاف ذلك فيعقبه بقوله : خشوعا أستحق به الخسف والمسخ لولا حلمك وكرمك لأن سداى ولحمتي الذنوب والخطايا بالنسبة لجلال وجهك ·

كان لا يعلم أصحابه بولائمه حتى لا يتكلفوا له شيئا أو يساعدوه بغير نية صالحة ·

تلك أمثلة من ورع « الشعرانى » الذى أصبح فيه مضرب المثل ، وهو الذى فتح أمامه الطريق لينطلق سريعا نحو غايته · والطريق الصوفى مشيد على الآداب والأخلاق قبل كل شيء ، والصوفية يقولون : كل من زاد عليك فى خلقه زاد عليك فى تصوفه · سمعت شيخنا « الأقدمى » رضى الله عنه يقول : ان حروف اسم « الفقير » تشير الى قمم خلقية رائعة ، فالفاء فرار الى الله تعالى ، والقاف قناعة بما أعطاه الله ، والياء يأس مما فى أيدى الناس ، والراء رغبة فى الله وزهد فيما عداه ·

وتواضع « الشعرانى » أشهر من أن يذكر ، وللتواضع حقيقة عند الصوفية ، يفسرها « ابن عطاء الله السكندرى » بقوله : ليس المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه دون ما صنع ·

وللمتواضع الحقيقى علامات منها : عدم الغضب اذا عيب أو أنقص قدره ، وعدم كراهية الذم ، وشدة الحرص على ألا يكون له

جاه عند الناس ، والتزام الصدق فى حاله بألا يرى لنفسه موضعا فى قلوبهم ٠

فهل صدقت هذه العلامات فى « الشعرانى » ؟

أجل ، فانه لم يغضب لنفسه قط ، وقد ورد عنه أنه كان يأخذ كل ما سمعه من واعظ أو خطيب فى حق نفسه ، ولا يجعل خطابه لغيره كما يفعل الفقهاء والفقراء فى عصره ٠

كان يزجر كل من رآه يرفـع مقـامه على اشياخة بالقلب واللسان ، لا سـيما اذا قال له أحد : أنت خليفة الشيخ (فلان) لأن من شرط الخليفة الحقيقى فى نظره أن يكون على صورة من استخلفه فى الأخلاق والعلوم والمعارف . وهو لا يرى له مقاما مع أشياخه ٠

ومن علامات تواضعه أنه كان لايستفتح مجلس ذكـر وفيه من هو أكبر منه سنا أو شرفا ٠

وكان لا يحب التميز عن اخوانه فى مجلس ذكر أو عـلم ، ويتأدب مع أصحاب الحضرات الالهية ، وكان ينفر طبعه ممن يقبل يده ، ولا يتكدر ممن ناداه باسـمه المجرد ، ويشعر بالضيق حين يستمع الى من يمدحه فى المجالس بنظم أو نثر من حيث خوفه رؤية نفسه وكان فى موقفه من المدح ينظر الى ثلاثة أمور : خوفه من فتنة المدح واعترافه بنعمة الله عليه بمدح المادحين له ، وتفقده نفسه حين ذلك واخراج ما شابها من كدر بسبب حب المدح ٠

كان يخدم بنفسه الفقراء القاطنين عنـده للعـلم والقرآن والأدب ، ولم يشك اطـلاقا من التعب فى تحصـيل ما يأكلون وما يلبسون ، ولو صاروا عنده ألوفا ، وقد بلغ عدد الذين حفظوا القرآن عنده ألفى قارىء ٠ وقد مر بنا أنه كان يرى فى نفسـه

النقص دائما ، وتلك احدى امارات التواضع ، وبلغ من تواضعه أنه كان يخفض جناحه لفسقة المؤمنين ولا يحقر أحدا منهم الا من حيث فعله فقط ، بدليل قوله تعالى « فان تابوا وأقاموا الصـــلاة وآتوا الزكاة فاخوانــــكم في الدين » ويرى أنهم أولى بالعظـــة . لأنهم من أصحاب الحظوظ السيئة التى تستدعى الاشفاق .

وكان يبالغ فى تحقير نفسه ، وهذه صورة رسالة وردت فى آخر كتاب من كتبه أرسلها الى الشيخ « شمس الدين الذهبى » توضح ذلك : ـــ

من الفقير الحقير الذليل الذى استحق الخسف به حال صلاته فضلا عن غيرها عبد الوهاب بن أحمد الشعرانى الى الأخ العزيز العالم الصالح الورع الزاهد الشيخ شمس الدين الذهبى ـــ نفعنا الله تعالى ببركات سلفه فى الدنيا والآخرة آمين .

« سلام الله تعالى ورحمته وبركاته ، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وبعد .

« فانى عبد مذنب قد صرت أسير الخطأ ، وما بقى يرجى لى صلاح حال ما بقيت فى هذه الدار ، والمسئول من فضل الأخ ألا ينسانى من الدعاء باصلاح الحال والأمان من خسف الأرض بى فى هذا الزمان ، فانى عجزت عن رد نفسى عن المعاصى الظاهرة والباطنة وعن أكل الحرام والشبهات حتى اسود قلبى ووجهى ، وقد صرت محسوبا على الأخ ، فيســـأل الله تعالى أن يحمينى من الأكل من هدايا الظلمة ، وكل من لا يتورع فى كسبه ، فان الأعمال الواقعة على جوارح العبد تكون بحسب اللقمة ، فان أكل حراما تولد منه أفعال كالشبهة ، وان أكل خلاف الأولى تولد من ذلك فعل خلاف الأولى ، وتقول : أستغفر الله العظيم بعد السلام » .

فهذه الرسالة التي يحمل على نفسه فيها حملة شعواء تعكس لنا حقيقة تواضع « الشعراني » الذي يرى نفسه دون ما صنع ، وتبين ان تواضعه ناشيء عن شهود عظمة الحق وتجلي صفاته وذلك الشهود هو الذي يحقق انمحاق النفس وخضوعها ، فانه لا سلطان للنفس امام سلطان الله وقهره ولا شرف لها أمام كبرياء الله وعظمته .

والصوفي الحق هو الذي يذكر سيئاته وينسى حسناته ، فذكر السيئات يضاعف من جهده وعمله فلا يعطي لنفسه فرصة للاغترار أو التمادي في الباطل ، ويقلم أظفار كبرها ، وبذلك تنطفيء شهوتها وتحسس حالتها .

ويأخذ « الشعراني » التواضع مقاما له بعد أن جاهد في سبيل التحقق به ، حتى يصبح فضيلته التي يتحلى بها في كل مكان . ويأخذ بعض المؤرخين عليه أنه كان يتواضع أمام السلاطين والأمراء والرؤساء ، وعدوا ذلك من أسباب الحط عليه والزراية به ، وقالوا : انه يتواضع لهم مداهنة ورياء وخوفا .

هم ذكروا ذلك ولكنهم غفلوا عن دقيقة من دقائق تواضع « الشعراني » لهؤلاء ، قلما ينتبه لها أحد ، ذلك أن الأمير أو القاضي أو المحتسب او الزعيم لم يقصد الفقير بالزيارة الا وقد اعتقد أن هذا الفقير أفضل منه ، وما دخل عنده الا وقد خلع رداء كبريائه وتجرد من عظمته وضخامته تحت عتبة هذا الفقير ، ولولا هذا الفهم ما قصده ولا فكر في الخطو اليه . فاذا ما تواضع «الشعراني» لزائريه من هؤلاء فانه لم يتواضع لهم الا على هذا الأساس من الفهم ، أما كون هؤلاء الزعماء أو الساسة ظالمين خطائين فقد سبق أن عرفنا أن « الشعراني » كان يرى أن المخطيء أحق بالعطف والاشفاق ، وهو يذكر الأثر الذي يقول : كل ابن أدم خطاءون . وعلى هذا الاعتبار يرى أن زائريه هؤلاء لهم الفضل والمزية من حيث

شـــهودهم ارتفاع منزلة الفقراء فوق منزلتهم • فلا غضاضة من التواضع لهم حين يزورونه •

وعلى العكس من ذلك نراه فى منتهى الشدة والغلظة عليهم حين يقصدهم هو ، وقد خاطبه أحدهم مرة قائلا : نحن مقربون الى السلطان أليس لك حاجة عنده ؟ فأجابه الشعرانى فى غلظة : ونحن مقربون الى الله أليس لك حاجة عنده ؟ فسكت « الباشا » ولم يجب •

والحديث عن أخلاق « الشعرانى » يطول •

فقد كان قدوة ، والقدوة مثل أعلى شامخ يمتاز بالعلو والسمو الى درجة الاعجاز فى القدرة على الوصول اليه ، ومن كان كذلك فلا بد أن يكون فى كل أخلاقه مثلا يحتذى •

وليس معنى ذلك أن يكون مجردا تماما من النقص والعيب • فالكمال لله وحده ، والعصـــمة للأنبياء • ولكن هنـــاك نســـبا ومستويات ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين قاعدة صوفية ، وقد تصبح الصغيرة فى حق الكبراء كبيرة ، كما تصبح الكبيرة فى حق الصغار صغيرة • وربما يكون بعض من نقدوا «الشعرانى» نظروا اليه بهذا المقياس •

الا أن المهم أن يكون حكمنا على الأشخاص مجردا من الهوى ، واذا أردنا أن نحكم على شخص كالشعرانى فاننا يجب أن نقيسه على من كان مثله فى الكمال ، أما اذا قسناه على أنفسنا فهو من أكمل الكمل وحسبنا أن نرى أمثلة من صدقه وصراحته وتواضعه وكرمه وغيرته على الحق وجهاده فى سبيله ونفعه للناس واصلاحه للمجتمع ورعايته للفقراء وستره للعورات وغير ذلك ، فنرى فيه نموذجا فريدا قل أن يوجد مثله ، والمنصفون « للشعرانى » ينظرون اليه من هذه الزاوية •

ودراســة الأشــخاص ما الهدف منها ؟ أليس الاقتــداء هو الهدف ؟

والاقتداء يمكن أن يأتي بغير الهدم ، واذا أردنا أن نترسم خطا شخص وجب علينا أن نبحث عن أجمــل شيء فيه ونترسمه ، أما اذا بحثنا عن المســاويء أو اخترعنــاها ، ووضعناها ــ كمــا يقــولون ــ أمام مجاهر العــلم الحديث ، ووزناها بتــلك الموازين المغرضة التي تتلمس النقائص وتسميها ظفرا ، فلا بد وأن تتهاوى هذه المثل الشماء في نفوسنا ، لا سيما في هــذا الزمن الذى صبغت المادية فيــه نفوس الناس وعقولهــم وحببت اليهم الكفر بالمبادىء والتقاليد ٠

لقد أشار الدكتور عبد الحليم محمود الى ذلك المعنى في كتابه عن « السيد البدوى » بقوله : وبعض الناس يحاول دائما أن ينزل بالقمم الشامخة لأن نفسه هو ناقصة ولأنه يشعر بالحقد دائما على كل قمة ولأنه لا يؤمن هو نفسه بالقيم الكبرى والمبادىء السامية تجده يسير في محاولات ملتوية للنزول بأصحاب هذه المستويات التى يعرفهــا الكاتب من نفسه ومن أمثاله : مستويات النقص في بعض صوره ٠٠ والا فبماذا تفسر أكل لحوم الصالحين وهم في عالم الحق » ؟

نعم ، بماذا نفسر ذلك التحامل الشديد والضوضاء المفتعلة ضد كل صالح وعبقرى ؟

اللهم الا بذلك المرض الدفين الذى يأكل قلوب الحاقدين على النابهين والناجحين ، والا بذلك الابتلاء الذى قضى الله به على كل مقرب في حياته وبعد موته ؟

وكما ابتلى « الشــعرانى » بمن سلقوه بألسنتهم الحداد في حياته ابتلاه أيضا بعد مماته بمن نبشوا سيرته ولاكوا أخلاقه ، ورموه بالكذب والاختلاق والنفاق ٠

والرجل برىء كل البراءة من هذه التهم التى بان زيفها وظهر عوارها ·

ودعوى الكذب جاءت بسبب ما يقصه فى كتبه عن كراماته التى أكرمه الله بها ، ودعوى النفاق جاءت بسبب موقفه من الحكام وذوى البطش ·

وموضوع الكرامات موضوع قديم حدث فيه نقاش على مدى الأزمان والأجيال ، وتصارعت فيه الآراء بين مؤيد ومعارض · ولكن الموقف الفصل فى ذلك هو سيرة الرجل نفسه واستقامته فالاستقامة خير من ألف كرامة ·

والكرامة ـ بغض النظر عن امكان حدوثها الذى أيده العقل والنقل ـ تظهر ما طبع عليه صاحبها من خلق فاضل وصفات حميدة · ان هذه السيرة العطرة التى ظلت باقية خالدة طوال هذه القرون الخمس بالنسبة للشعرانى وطوال القرون الماضية بالنسبة لغيره · ألا تصلح أن تكون كرامة حقيقية لصاحبها ؟

وماذا يبغى العقلاء من الحياة ؟ ألا يبغون الأثر الخالد الباقى بما يقدمونه من أعمال جليلة ؟ وقد يظفر بعضهم بذلك وقد لا يظفر أكثرهم ·

والمصلحون عادة يعيشون فى أذهان الناس وخواطرهم · ولكن الذين يعيشون منهم أكثر هم أولئك الذين وقفوا حياتهم على الاصلاح الروحى ، هؤلاء كونوا لأنفسهم شعبية حقيقية تقف على أرض صلبة ـ بأسلوب العصر الحديث ـ

وكم من الناس يمثل فى روحه صورة خالدة لأبى الشهداء « الحسين بن على » ولبطلة كربلاء « السيدة زينب » وللبدوى

« العربى أحمد » ولقطب الأولياء « الدسوقى » ولشيخ الطريقة « الشاذلى » ولسلطان العارفين « ابن عربى » ولغيرهم ممن وقفوا حياتهم على اشعال جذوة الحقيقة فى عالم الأشباح .

نعود فنقول ، أليست هذه هى الكرامة الحقيقية ؟

وماذا يبتغى الانسان من كرامة بعد ذلك ؟ وكم من الناس يحلمون بهذه الحياة ؟؟

أما الكرامات المادية فمصيرها الفناء .

لقد ناقش « المنـاوى » فى كتابه « الكواكب الدرية » و « اليافعى » فى كتـابه : « نشر المحاسـن الغالية » موضوع الكرامة وذكرا من الأدلة النقلية كثيرا من أمثال قصة مريم ورزقها من غير حساب ، وقصة أهل الكهف ، وقصـة البقرة التى كلمت صاحبها ، وقصة الثلاثة نفر الذين انطبق الغار عليهم ثم انفرج بسـبب دعائهم ، وقصـة سارية وعمر ، وغير ذلك ، الى جانب الكثير من الأدلة النقلية والعقلية التى ردا بها على المعتزلة الذين يرون انكار الكرامة . مما هو مفصـل فى مواضعه فى الكتابين المذكورين وغيرهما من الكتب .

واذا كان « الشعرانى » وأمثاله حصـلوا على الكرامات الحقيقية التى خلدتهم فى الحياة فلا نستكثر عليهم تلك الكرامات المادية التى يفيضها الله على من يشاء من عباده تكريما لهم وتعظيما لشأنهم وتأييدا لجهادهم وتثبيتا لهم فى مواقفهم ، واذا أكرم الله عبدا فأحيا روحه وأضاء ظلمات نفسه وقضى على كل غشاوة فى قلبه ، فلا نستكثر عليه أن يخرق له حجاب الحس فيرى مالا يمكن لغيره أن يراه ويطلع على مالا يقدر غيره على الاطلاع عليه ، ويفيض الله عليه من مواهب العلوم مالا يفيضه على غيره .

وإذا كنا نؤمن بالقياس العقلي فما بالنا نحجم عنه في مجال الحديث عن الأولياء والصالحين ؟

أليس العلماء هم ورثة الأنبياء ؟ ومن العلماء ؟ هم العاملون بعلمهم الذين أنار الله بصائرهم وأشار اليهم الأثر الكريم : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . وكرامة الولى من الميراث الذى ورثه من النبى .

فاذا ما حدثنا الشعرانى أنه سمع تسبيح الوحش والطير فلا غضاضة في ذلك ، واذا قال انه كشف له فرأى بلد كذا أو قرية كذا فلا نكذبه في قوله . فشواهد حاله تصدقه في مقاله . وحسن خلقه ينفى عنه سوء الظن به .

أما ما ورد بخصوص تواضعه الذى أوله بعضهم بأنه نفاق وجبن ، فهذا ما يجل عنه قدر « الشعرانى » الذى اتسم بالصدق والصراحة والشجاعة .

ان مواقفه العديدة تنفى عنه كل مظنة فى ذلك الادعاء ، ولقد مر بنا ما يوجب علينا أن نفطن الى دقيقة من دقائق تواضعه أمام قاصديه من الكبراء والعظماء ، وأن هذا التواضع ينقلب الى بأس وقوة وصلابة حين يقصدهم ، بقى شىء آخر يجب أن نفطن اليه هو : علينا أن نفهم أقوال « الشعرانى » فى ضوء مكانته وزعامته فى قلوب الجماهير ، ان كل كلمة يقولها لها فعل السحر فى نفوسهم ، ولذلك كان كلامه يصدر صدور التصريحات السياسية التى من شأنها تطمئن الخواطر وتثبت القلوب ، فماذا يكون الموقف مثلا اذا ما تحامل على نائب أو دعا الى بغض سلطان ؟

ان ذلك بلا شك سيكون له أثره فى اثارة فتنة ليس من الحكمة اشعالها فى الوقت الذى كان يعيش فيه « الشعرانى » والشعب ليس فى حاجة الى تحمل مظالم جديدة وارهاب أكثر . لقد كان الشعب فى أيام « الشعرانى » يعيش فى أعقاب أيام ظلم طال مداه استهلك كل قوته وطاقته فلم يعد يتحمل المزيد من المتاعب . لذلك كانت مهمة « الشعرانى » العمل على تقوية الروح فعن طريقها يأخذ الشعب كل زاد فى طريق اصلاحه ومواصلة مسيرته الى النهوض . وايضاح ذلك يستدعى الحديث عن أثر « الشعرانى » فى المجتمع الذى يعيش فيه .

• الشعرانى المصلح الاجتماعى

لا يستطيع أى مصلح ان يؤدى رسالته الا اذا وجد فى نفسه القدرة على الاضطلاع بمسئوليتها بما فى ذلك الفهم التام لها وللظروف التى يعمل فيها وللطبيعة البشرية التى يتعامل معها، مع ايمانه الكامل بهذه الرسالة ، والدفاع عنها دفاعا مستميتا يصل الى حد الاستبسال والتضحية فى سبيلها . فهل كان « الشعرانى » كذلك ، حتى يكون جديرا بلقب المصلح الاجتماعى ؟ .

أجل ، كان للشعرانى ذلك التفهم الكامل لرسالته وما يحيط بها من أجواء وظروف ، وكانت لديه القدرة الكاملة على استبطان الأمور وادراك ما فى النفوس من خلجات وأسرار ، وكان على علم تام بأدواء المجتمع وقضاياه ، وكانت له ـ بما خطره الله عليه من استعداد خاص ـ مقدرة على تحمل مسئولية رسالته وأدائها على وجهها الأكمل .

ولبيان ذلك لابد من معرفة ملامح ذلك المجتمع الذى كان يعيش « الشعرانى » فى ظله ، وقد سبق الاشارة الى بعض ذلك فى اجمال يحتاج الى شىء من التفصيل .

كان النظام الطبقى يظلل المجتمع بمعنى أنه كانت هناك طائفة غالبة وطوائف مغلوبة ، والطائفة الغالبة هى طائفة المماليك والسلاطين وتوابهم والأمراء وحاشيتهم . وطائفة التجار الذين اجتمعت ثروة البلاد فى أيديهم ، وهؤلاء هم الحاكمون الآمرون الناهون . وسواد الشعب بطوائفه المختلفة من حرفيين ومهنيين وفلاحين وموظفين وفقهاء وفقراء مغلوب على أمره خاضع لغيره .

ولا قوام للنهوض في دولة من الدول واقتصادياتها منهارة ·
وقد عاني الشعب من وراء ذلك الكثير ، وانهارت من آثار هـذه المعاناة المثـل والقيم ، فالفقر عدو الأخلاق الأول ، وقد يدفع الفقر بعض النفوس الى سلوك الطريق المؤدى الى المسجد واللجوء الى الله وفى ذلك خير ، ومن هنا يصبح الفقر فضيلة . والغنى ــ اذا ما أفقد صاحبه التفكير فى الصلاح ــ رذيلة ·

كان هذا ــ كما قدمنا ــ دافعا الى اقبال الناس على التصوف ، ولكن كثيرا منهم تصوفوا وهم مغلوبون على أمرهم ، تصوفوا على جهل بحقيقة التصوف ، فخلطوا الجيد منه بالردىء ، وأدخلوا فيه ما ليس منه وشوهوا معالمه بالخرافات . ولذلك عانى منهم التصوف الشىء الكثير ، وأقل أثر لذلك هو التطاحن الذى حدث بين الطوائف الصوفية المتعددة التى برز الخلاف بينها واضحا ، وتحول التصوف فى ظلها الى مظهر شكلى أكثر منه ممارسة عملية وذوقا وخلقا · وترتب على ذلك الكثير من التنافر والتشاحن الذى هو آكره ما يكون للجو الصوفى الذى قوامه التسامح والتواضع والايثار والفتوة ·

وما أصاب المتصوفة من انقسام أصاب الفقهاء كذلك فقد استفحل الخلاف بين رجال الفقه ومذاهبه وأضحى التعصب واضحا بينهم ، مما حدا بالسلاطين الى تخصيص قاض لكل مذهب يتحاكم اليه الناس وكان هؤلاء القضاة يعينون بمرسوم من السلطان ·

وأدى هذا الانقسام بين رجال التصوف وبين العلماء والفقهاء الى شيوع روح الفرقة فى الأمة كلها ووصلت عدواها الى الأديان فلم يعامل المسيحيون كما كانوا يعاملون فى ظل الخلفاء بالعدل ، بل أصابهم الكثير من الجور وتناسى المسئولون الآثار الواردة فى الاستيصاء بقبط مصر خيرا ، الا أن هذه المعاملة كانت تختلف من وقت الى آخر ، فتشتد أو تقل أو تتلاشى روح الاضطهاد التى كانت تظلل علاقة المسلمين بالذميين ·

ويبدو أن هذا التفرق الذى بدأ بين صفوف الأمه انما هو مظهر للعزلة التى فرضها المماليك والحكام على أنفسهم بعيـــدا عن الشعب « فقد ظلوا بمعزل عنهم بجنسيتهم وعاداتهم ، وهذه العزلة والترفع انفرد بهما المماليك حتى صارا أخص صفاتهم ، ولم يكن زواج بعضهم من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة داعيا الى تغيير عادة العزلة فيهم وحثهم على الاختلاط بغيرهم ، ولعل هذا كان ترفعـــا منهم على أهل البلاد المحـــكومين ومحـــافظة على « الاورستقراطية » التى تؤهل للعرش بدون نظر الى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من رق وعبودية » (١) فلما جاء العثمانيون أمعنوا فى هذا الاستعلاء والترفع على الشعب ٠

وفى ظل هذا المجتمع المتباين الذى يكثر فيه الفساد وتتحكم فيه الطبقية تنشأ عادات وتقاليد مختلفة بعضها فاسد والقليل منها صالح ، والألقاب التى ظل الناس يتوارثونها جيلا بعد جيل حتى أبطلت فى عهدنا الحاضر من بقايا ذلك العصر الذى كان «الشعرانى» يعيش فيه ٠

كانت المجاهرة بالمعاصى والافتخار بالمظالم أمرا شائعا ، وكانت السخرة سائدة ، وأما الرشوة فكان لها مقام عال يتحدث الناس بأمره فى المحافل ٠

ويصحب الفقر ضيق الخلق وسرعة الغضب والتنابز بالألقاب وسوء الظن بالناس ٠

وكان الاسراف فى الولائم والموالد والأعـــراس لدى طبقة الموسرين أمرا محتوما ، كما كانت هناك ولائم تقام على القبور وهى ولائم فيها الكثير من الاسراف والتظاهر ٠

---

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ٥٤١ ٠

وكان للنساء ــ رغم احتجابهن ــ شأن كبير ، وكن يخرجن الى الأسواق والحمامات فرادى وجماعات ٠

وكان الفقر يدفع كثيرا من الناس الى البحث عن الوظائف والتكالب عليها ، وكانت مشيخة الزاوية من الوظائف المرموقة التى يتطلع اليها الكثير ، وهذا الفقر هو الذى دفع الكثيرين الى انشاء التكايا والزوايا ووقف الخيرات عليها ٠

وهناك عادة كانت شائعـة فى ذلك العصر وما زال لها بقايا فى طريقهـــا الى الانقراض هى عادة البحث عن الكنوز الدفينة (المطلب) وتلك عادة رباها الخيال الذى أيقظه الفقر والبؤس ، وأشعلته الرغبة فى تحصيل ما عجز الانسان عن تحصيله بالوسائل المشروعة الطبيعية ٠

وتفشت عادة مذمومة هى عادة الأخـذ بالثـأر التى أشعلت الأحقاد وآكلت الأكباد ٠

وكانت هناك طائفة لهـا مميزاتها هى طبقة الفقراء وسكان الزوايا المنتشرة فى المدن والقرى ولها أوقافها ومباشروها ومجاوروها ومعلموها ، ويبلغ عدد هؤلاء الآلاف الذين كانت لهم نظمهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد أشرنا سابقا الى أن بعض المؤرخين اعتبر هؤلاء طبقة متميزة بسبب كثرتهم الغالبة ٠

تلك هى بعض ملامح المجتمع فى عصر « الشعرانى » فماذا صنع من اصلاح ازاء ذلك ؟

لقد شملت رسالته الاصلاحية المجتمع من نواح متعـــددة ٠ من ناحية الحاكم ، ومن ناحية المحكوم ، ومن ناحية ما يسود المجتمع من عادات وتقاليد وخلافات ٠

الشعرانى والحاكم :

بلغ « الشعرانى » فى نفوس الحكام منزلة رفيعة جدا ، ووصل بمكانته الى حد لم يصل اليه غيره من الفقهاء والعلماء والصوفية المعاصرين له ·

وحسبك أن السلطان « الغورى » كان يحبه محبة شديدة ويعتقد اعتقادا جازما فى صلاحه وولايته · وكذلك كان « طومان باى » من بعده يحبه ويقربه ·

ولما جاء « سليم باشا » الى مصر قصده بالزيارة وتواضع له وأكرمه وقبل شفاعته وأهدى اليه كثيرا · وتولى فى عهده من نواب العثمانيين خمسة عشر نائبا أولهم « خاير بك » وكانوا جميعا يجلونه ويعظمونه ويقربونه ويخشون بأسه ، وكان أكثرهم محبة له « سليمان الخادم » و « خسرو باشا » و « قاسم باشا » و « داوود باشا » · و « على باشا » الذى كان أشهر النواب محبة فيه ، ولقد استأذنه مرارا فى النزول لزيارته فلم يأذن له أدبا منه مع ولاة الأمر ، وقضى على يد الشيخ عدة حوائج للناس ، ولم يقع ذلك لأحد غيره من صوفية عصره ، حتى لقد شاع بين الناس أن الباشا ليس عنده أفضل من « الشعرانى » ·

فاذا ما تركنا الحكام الى غيرهم من الأمراء والوجهاء وجدناهم كذلك بالنسبة له حبا واكراما وتعظيما ، كان الأمير « محيى الدين ابن يوسف » من ملازميه ومعتقديه ، وكان أولاد الأمير « الجمال ابن الأمير شرف الدين » يجتمعون معه ويتلقون العلم على يديه ، وكان القاضى « محيى الدين عبد القادر » الذى أنشأ الزاوية من مريديه ، وكان الأمير « حسن بك الصنجق » من تلاميذه الذين تفانوا فى خدمته · « لقد تردد على أعتابه أمراء الألوية فمن دونهم وخضع لأوامره أكابر الأمراء والباشوات » (١) ·

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ١٠٩ ·

أجل ، لقد بلغ « الشعرانى » هذه المنزلة الرفيعة فى نفوس الحكام ، فماذا فعل بهذه المنزلة التى أكرمه الله بها ؟

لقــد استغلها لوجــه الله والاصلاح استغلالا حسنا ، وعن طريقها تمكن أن يسدى الى الخلق كثيرا من الخدمات ، فقد وقف فى وجه استبداد هؤلاء الحكام الطغاة وأجبرهم على أن يحدوا من ذلك الجبروت الذى أذلوا به الشعب وظلموه · وســلك فى طريق ذلك وسائل مختلفة ·

زهده فيما فى أيديهم كان أولى الوســائل لتحطيم غرورهم وجبروتهم ، فانه لا شىء يطامن من كبرياء المتكبر أكثر من اشعاره بأنه أحقر من أن تنتظر منه شيئا أو تقبل منه عطاء ، وهذا يدل على أن « الشعرانى » كان عالما بخفايا النفوس وأسرارها ، فقد اختبر نقطة الضعف فى هؤلاء المتجبرين وأذلهم بها ، فتعفف عما فى أيديهم وترفع عنهم فعنوا له وخضعوا لهيبته ، وليس معنى ذلك أنه تكلف الورع والزهد ليصــل الى غايته ، ولكنه تحقق بهاتين الصفتين فجنى ثمارهما ، ولو كان متكلفا لذلك لما وصل الى هذه النتيجة القيمة ، وقديما قال الصوفية : لو سقطت قلنسوة من السماء لما جاءت الا على رأس من لايريدها · وهذا أمر مشــاهد فما ينتظره الانسان غالبا لا يأتى وكثيرا ما يبطىء ، واذا نظرنا الى سبب التجافى بين الناس وجدنا مرده فى الغالب الى الطمع الذى يدور فى نفوسهم ، والرغبة فى الاستئثار بما فى أيديهم ·

فعن طريق الزهد ربى « الشعرانى » نفوس الحكام وطوعها له حتى أصبحت فى قبضة يده ·

شفع فى كثير من الظلامات واستجيبت شفاعته . ويحــدث عن ذلك قائلا : تشفعت عند الســلطان « الغورى » والسلطان « طومان باى » و « خايربك » وغيرهم من باشــاوات مصر فقبلوا

شـــفاعتى ، وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لى . كما يقول :
ومما من الله به على كثرة قبول شفاعتى عند الأمراء ولا أعلم الآن أحدا فى مصر آكثر شفاعة عند الولاة منى ، فربما يفنى «الدست» الورق فى مراسلاتهم في حوائج الناس فى أقل من شهر (١) .

ويحدث صـاحب « المنـاقب الكبرى » أنه كان يحبه جميع القضاة وشيوخ الاسلام وأحبهم فيه شيخ الاسلام « صالح » وشيخ الاسلام « حامد » وشيخ الاسلام « محمد بن عبد الكريم » وشيخ الاسلام « محمد شاه » واتفق له معه أنه حبس الشيخ « أبا بكر الغمرى » فاستشفع أقاربه « بالشعرانى » عند « محمد شاه » فكتب له « الشعرانى » هذه الرسالة :

أما بعد : فيعلم مولانا أن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة أولهم بيت السادات « بنى الوفا » ومن كلامهم : أولاد الفقراء كشجر الزيتون كلهـا طيب أصلها وفرعها ولا تخلو من زيت طيب وهم آثار أنوار الرحمن فى الأرض فمن تهاون بهم فكأنمـا تهاون بالرحمن وقد أسرع الله بهـلاكه ، ومن عاونهم هنأه الله تعالى بالجنة ومن سترهم ستره الله وجبر كسره .

ثانيهم بيت سيدى « شمس الدين الحنفى » ومن كلامه : اذا كان بنو الفقراء رمادا فلا تطأ عليهم بقدمك فتحرق وتوشك أن تقع فى سوء الخاتمة .

ثالثهم سيدى « مدين الأشمونى » ومن كلامه : لا تقاطع رحم أولاد الفقراء ينقطع فيهم رحم أستاذيك من أهل الولاية والعرفان .

رابعهم ، بيت سيدى « أبى العباس الغمرى » جد هذا الرجل الذى حبسته ، ومن كلامه : لحوم أولاد الفقراء مسمومة فمن عاداهم فقد عجل بهلاك نفسه بسم ساعة .

---

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ١٦٦ .

ولقد عرضت نفسك لبلاء عظيم وداء لا دواء له ، والرأى عندى التدارك منك بالدواء باطلاقه واستعطافه واغتنام السلامة من العطب ، ونسأل الله الحفظ والأمان .

فعندما قرأ المكتوب استعطف المحبوس وأطلقه واستغفر الله تعالى ورجع عن معارضته (١) .

وهذه الرسالة تعطينا صورة عن أسلوب « الشعرانى » فى شفاعته الذى يدخل به على المتشفع عنده ، ان المتشفع له صاحب حق وعنده قوة يجب أن يعمل حسابها .

وتحقيق هذه الشفاعات لا يأتى الا عن أحد طريقين : الحب أو الخوف ، وقد اجتمع هذان الأمران فى نفوس الحكام والزعماء بالنسبة للشعرانى ، فقد أحبوه وخافوه ، وقد يكون خوفهم مرده الى القوة الروحية والهيبة الالهية التى أودعها الله فيه ، وقد يكون مردها الى تلك الزعامة الشعبية التى تمثلت فيه وظهرت فى التفاف الناس حوله وتقديرهم اياه ، ففى اغضابه اغضاب لهؤلاء واشعال لثورتهم ، فكأنهم اشتروا رضا الناس برضا « الشعرانى » عنهم .

وكانت للشعرانى آراء فى الحكام تتلخص فى النهى عن تملقهم والدعوة الى عدم تمكين الحاكم المخالف للشريعة من الاستمرار فى الظلم والجور ولكنه كان يدعو الى ضرورة طاعة الحكام استجابة لأمر الله تعالى بوجوب طاعة أولى الأمر (٢) .

وقد حدث أنه وقف أمامهم وقفات حاسمة ، كما أنه أشعرهم بأنه فى مقدوره أن يزلزل الأرض تحت أقدامهم ، وقد أغلظ القول

---

(١) المناقب الكبرى .

(٢) الشعرانى لتوفيق الطويل .

لأحدهم حين قال له : اننا مقربون الى السلطان فهل لك حاجة نقضيها لك عنده ؟ فأجابه الشعرانى : اننا مقربون الى الله فهل لك حاجة فنقضيها لك عنده ؟ فأفحم النائب ولم يجد جوابا .

وكان يستخف بهم فى رفضه قبول هداياهم ، ويمضى فى اذلالهم حين يأخذ منهم المال فى بعض الأحيان ويطوحه على مرأى ومشهد منهم ومن الناس . وفى ذلك دليل عملى على نهية عن تملقهم، وعدم رضائه عن ظلمهم للرعية وجورهم عليها .

وفى مقابلاته العديدة للحكام لم يقصد من وراء ذلك الا رفع ظلم وقع على كاهل أحد أفراد الشعب أو وساطة لشخص بتيسير مهم له ، حتى لقد كثر قصده لذلك حتى قال له أحد النواب : انه يعز علينا أن يكثر قصدك لنا بنفسك ، يكفى أن تكتب الينا بما تريد ولا تتعب .

ولكن همة « الشعرانى » لا تقبل أن تقف عند حد الرضا بالكتابة دون أن يشفعها بالمصاحبة رغبة فى قضاء ما يريد من مصالح الناس . وتجاوزت وصاته حدود القطر فتناولت الوصاة بأحد أتباعه فى الخارج ، فكتب يوصى بالأمير « جانم الحمزاوى » الذى كان لوصاته ، أثر كبير فى توفير الرعاية له فى الأماكن التى قصدها فى رحلته .

وذلك مثال يدل على أن منزلة « الشعرانى » وصلت الى البلاط السلطانى فى تركيا فعملوا لها ألف حساب وحساب ، ويقول الدكتور توفيق الطويل : ان ذلك كان له أثره فى استصدار قانون خاص يقضى بأن من تظاهر بصفات الملوك وعارض أركان الدولة فيما يفعلون كان مصيره السجن أو النفى أو الاعدام . ويذكر ان الشعرانى خاف من هذا القانون ، وهو الذى جعله يفرط فى ضرورة الدعوة الى طاعة الحكام .

والحق أن الشعرانى لم يكن خائفا من صولة القانون أو سطوة الحكام ، ولو كان الأمر كذلك لكف عن تعاليه عليهم ، ذلك التعالى الذى كان يرى فيه تعظيما للشريعة وتمكينا لقدر الدين وشرف العلم . وهذا التعالى كان يظهر فى رد هداياهم ، أو التطويح بها فى مواجهتهم أو فى توجيهاته لهم فى كثير من الأحيان أو فى ردوده عليهم بقوة وبأس حين كان يقصدهم أو يجتمع بهم فى مكان بعيد عن بيته . أما فى بيته فكما سبق كان حريصـــا على اكرامهـــم والتواضع لهم لما سبق الاشـــارة اليه ولكرم الضيافة المتأصل فيه .

ولكن « الشعرانى » كان له مبدأ لم يتخل عنه ، هو أن الحاكم له حق الطاعة بمقتضى قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » على أنه كان لا يعفى الرعية من مسئولية الظلم الواقع عليها اســـتنادا الى الأثر الشريف الوارد : الحاكم الجائر عدل الله فى الأرض ينتقم به من خلقه ثم يصـــير الى الله فان شاء عفا عنه وان شاء انتقم منه (١) . وهناك أثر آخر يقول : كما تكونوا يول عليكم . ومن أعمالكم سلط عليكم . والهدف من ذلك أن يصلح الشعب من حاله وأن يوثق علاقته بربه ، حتى اذا ناقض حاكمه الظالم أمده الله بعونه وأيده بنصره حتى لا يتضـاعف عليه الظلم فى حال فشل مناقضته .

وعلى المستنيرين الأئمة واجب ارشـــاد الحكام الظالمين وعدم تمكينهم من الاستمرار فى الظلم والجور ، ولا يترك ذلك الأمر لأفراد الشعب لأنه يســـلم البلاد الى فوضى لا تعلم نتائجها ، ولمعرفة « الشعرانى » بحالة الشعب ومدى ما وصل اليه من انهاك لم يشأ أن يورطه فى ثورة غاشمة ضد حكام مستبدين الريح معهم والمستقبل

---

(١) دور الغواص ص ٢٨ .

أمامهم ، فعلى قدر جهده كان يكفكف من غرب هؤلاء ويمسح بهم ويستخلص منهم ما يقدر عليه لصالح هذا الشعب المسكين .

ولعله لهذا الفهم نفسه بدأ يقبل هدايا الحكام وأوقافهم بعد أن كان ممتنعا عنها ، لأنه رأى في ذلك ردا للمال المسلوب من غير حق ، وطريقا من طرق ارجاع هذا الحق لاصحابه .

وليس لنا أن نحاسب الشعرانى على عدم عصيانه للعثمانيين في الوقت الذى يحدثنا التاريخ فيه عن أن الصوفية هم الذين زلزلوا الأرض تحت أقدام الشراكسة ، وأشعلوا ثورة الغضب الشعبى عليهم ، يقول صاحب « المناقب الكبرى » في ذلك : اجتمع رأى الأولياء بمصر على خلع « قنصوه الغورى » لجور جلبانه وحاشيته .

ولا شك ان « الشعرانى » كان يؤيدهم في ذلك رغم أن « قنصوة » كان يحبه ويقربه ويهديه هدايا كان « الشعرانى » يرفض استعمالها لشبهتها . وربما كان يرى في قبوله اياها تأليفا لقلبه وترصدا لاصلاحه وأدبا مع ولاة الأمر . ومما أهداه له : سجادة وشاشا عرضه سبعة أذرع وطوله ثلاثون ذراعا مما أرسله سلطان الهند لقانصوة ، ولكن « الشعرانى » لم ينتفع بهده الهدية تورعا ، فقد أعطى الشاش لبعض أقاربه في ساقية « أبى شعرة » . وأما السجادة فلم يستعملها مدة حياته ، ولم يرد ذلك أدبا مع ولاة الأمر كما يقول صاحب المناقب .

وقد مر بنا أن الشعب كان ينتظر الكثير على يد العثمانيين . ووعود الفاتحين كثيرة ، وتلك الوعود هى التى استنفدوا بها غضب الشعب . حتى اذا ركن اليهم فتح يده فلم يجد شيئا ولكن مخزونه من الثورة كان قد تبخر ، فهو في حاجة الى اختزان غيره ، وذلك يتطلب الكثير من الوقت والجهد ، في حين أن الفاتح ألقى بثقله كله

ليضرب بيد من حديد لا عواده فيها كل من تسول له نفسه الانتقاض على الحكم الجديد · فهل ينتظر من الشعراني وهو زعيم روحي أبصر بالعواقب أن يقود الشعب الأعزل الى هوة سحيقة لا يعلم قرارها ؟

ولكنه قام بدوره في حدود مجهوده الكبير لاصلاح حال هؤلاء الحكام واستنقاذ ما يمكن استنفاذه منهم للشعب ، ويبدو ذلك في تنفيذ العهود التي أخذت عليه وذكرها في كتابه « لواقح الأنوار القدسية » من أن لا يمكن أحدا ممن صحبه من الولاة والقادة له من أن يشق على رعيته أو يجور عليهم أو يغشهم أو يحتجب عنهم أو يغلق بابه دونهم · في الوقت الذى كان يولى جهوده كثيرا من وجوه الاصلاح الأخرى ، وحرصه على نصح النـاس بأن يهتموا بأعمالهم واصلاح نفوسهم بدلا من أن يضيعوا وقتهم في انتقاد الحاكم وهذا الأدب في رأى الدكتور زكي مبـارك « له غور عميق لأن انتقاص الحكام يزعزع الوحدة القومية ويقسم الأمة الى شطرين : رعية حاقدة وحكام مبغضين . وسلامة الأمة لا تكون الا بالألفة بين الحاكمين والمحكومين » (١) وهذا كل ما كان يشغل بال «الشعراني» طول حياته ·

الشعراني والمحكوم :

عن طريق المدرسة التي أنشأها « الشعراني » قام برسالة اصلاحية أخرى هي اصلاح النفوس · كان مطمح أمله أن يرى فردا قد تهذبت روحه وسمت نفسه وصلح قلبه وتنور عقله . فذلك الفرد هو الذى عن طريقه تنهض الأمة وتتقدم ·

---

(١) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ·

وكانت طريقته في الاصلاح القـــدوة الطيبة ، فالقدوة هى أساس النجاح ، وبدونها لا يقدر الموجه أن يفعل شيئا ٠

وقد وضع لتلاميذه آدابا مختلفة تتناول شتى مرافق الحياة وألزمهم باتباع هذه الآداب ، وقد كفل لهؤلاء التلاميذ الرزق حتى لا تتطلع نفوسهم اليه فيتوزع خاطرهم ولا يتسنى لهم التفرغ لطلب العلم وجهاد النفس ٠ وأدى ذلك الى أن يحرز الكثير من تلاميـذه قصب السبق ٠ فكثير من الطلاب يحول بينهم وبين النجاح فى حياتهم عدم وجود المنبع الذى يعينهم على الاستمرار فى الطلب مع وجود الاستعداد لذلك ٠ وكان من أبرع هؤلاء التلاميذ « المناوى » صاحب المؤلفات النفيسة ٠

ولم يكن « الشعرانى » يألو جهدا فى توفير كافة الامكانيات اللازمة لطلابه ــ كما قدمنا ــ لأنه يرى فى ذلك رعاية اجتماعية لهم تحول بينهم وبين الانحراف ، وقد كانت زاويته عامرة بضروب الخير الذى يفيض عنها فيوزع على الزوايا الأخرى ويرسل منه الى مجاورى البيت الحرام فى مكة ٠

ولم يكن « الشعرانى » فى ذلك يشجع الناس على القعود عن طلب الرزق والالتجاء الى زاويته حيث يطيب لهم المطعم والمشرب ويتوفر لهم المسكن ، ولكنه كان يشجع الطلاب على الاستمرار فى طلب العلم كما يشجع العباد منهم على ممارسة العبادة ٠

وفى الوقت نفسه كان يدعو الى التكسب ويقاوم البطالة ، ومن تصريحاته فى ذلك : « ان ترك التكسب بالعمـــل المشروع والتماس الرزق عند المحسنين جهل بمقام التوكل الصحيح لأن هذا المسلك يعرض الفقير للرياء ويفقده حسنات أعماله » ٠

حتى فى دعوته الى الزهد كان يدعو الى تحرى الدافع النفسى اليه تحذيرا من وساوس النفس الخفية التى تزين للانسان الشر

فى صورة الخير وتلبس له الخير رداء الشر . فيقول لمريديه : « لا ينبغى للفقير أن ينساق الى الزهد بباعث من شعوره باللذة من نعيم الترك وخلو اليد وراحة القلب والا كان هذا انصرافا من لذة الى لذة ، وليس هذا زهد العارفين » والزهد فى نظره لا يكون عن خلو اليد ، وانما يكون بخلو القلب مع امتلاك اليد .

وكان « الشعرانى » فى قوله هذا يرد على المتصوفة المتعطلين الذين حاولوا أن يحملوا التصوف جريرة بطالتهم .

وكان ينصح أتباعه من الصناع بقوله : « الاجتهاد فى العمل واتقانه يقدم على النوافل والتطوع للعبادة » ، وكان يقول للنجار : « لتكن مسبحتك منشارك » . وللزارع : « لتكن خلوتك حقلك » وللتاجر : « لتكن عبادتك أمانتك » .

و « الشعرانى » طريقته شاذلية . وهذه الطريقة تهتم جدا بالعمل وتدعو اليه وتحذر من البطالة ، وكان « الشاذلى » رضى الله عنه يكره أن يرى أحد تلاميذه فارغا من عمله الذى يصل بسببه رزقه اليه ، وكان لا يحب من أحدهم أن يترك حرفته متجردا منقطعا بل كان يوصيهم دائما أن يحافظوا على أعمالهم الدنيوية ، ويقرنوا بينها وبين أورادهم وأذكارهم ذاما التســول والتكفف ، لأنه مناف لاتباع السنة التى تعد أحد أصول هذه الطريقة .

و « الشعرانى » ابن الطريقة الشاذلية البار ، وقد عكف على احياء معالم الشريعة الاسلامية بهذه الطريقة ، وكان يقتدى بالسلف الصالح من الصوفية وغيرهم من الفقهاء — فلا تعارض بينهما عنده — فى أهمية العمل بالنسبة لتحقيق الكرامة الانسانية .

وحقا ذلك فأئمة الصوفية يدعون الى العمل وعلى سبيل المثال

نذكر قول بنان الحمال (١) : الاعراض عن الأسباب جمله يؤدى الى ركوب البواطل . وقول « عبد الله بن المبارك » : (٢) لا خير فيمن لا يذوق لذة المكاسب ، و « الفضيل بن عياض » (٣) ، كان يقول : لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق في طلب الحلال ، وكان « السرى السقطى » (٤) يقول : أعرف طريقا مختصرا قصدا الى الجنة . فقال له « الجنيد » (٥) ما هو ؟ فقال « السقطى » : لا تسأل احدا شيئا ولا تأخذ من أحد شيئا ، ومعنى ذلك أنه لا بد أن يكون له عمل يقتات منه .

والمتتبع لسير الصوفية وأخبارهم وأقوالهم يعثر على كثير من ذلك الذى يؤيد الدعوة الى العمل والزهد فى البطالة .

وقد وضع « الشعرانى » للتوكل آدابا يفهم منها أنه لا ينافى العمل . فقد يكون الانسان متكسبا وهو متوكل ، وليس ذلك غريبا والقرآن الكريم يقول : وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، والمؤمنون هم الذين يأمرهم الله بالعمل فى قوله : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله .

---

(١) بنان الجمال من أجلاء شيوخ الصوفية . ومن رجال الطبقة الثالثة توفى بمصر سنة ٣١٦ هـ .

(٢) ولد سنة ١١٨هـ وكان عالما فقيها عابدا من أئمة المتصوفة ومتقدميهم توفى سنة ١٨١ هـ .

(٣) ولد بسمرقند وتوفى بمكة سنة ١٨٧هـ من رجال الطبقة الأولى فى التصوف .

(٤) هو أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى يقال انه خال الجنيد وأستاذه وهو امام البغداديين وشيخهم فى وقته توفى سنة ٢٥١ هـ .

(٥) هو أبو القاسم الجنيد بن الخراز أصله من نهاوند ومولده ونشأته بالعراق كان من أئمة القوم وساداتهم وهو مقبول على جميع الألسنة توفى سنة سبع وتسعين ومائتين .

ومن هنا كان « الشعرانى » يصحح أوضاعا اجتماعية بين اتباعه ينعكس أثرها على غيرهم عن طريق القدوة الطيبة التى يراها الناس فى هؤلاء ، وعن طريق ترتيب الآثار على المؤثرات ـ وهو بذلك ينفى عن التصوف ما لحقه من تشويه وانحراف نتيجة لسوء فهمه وضيق أفق بعض المنتمين اليه ٠

وفيما أخذ على « الشعرانى » من عهود ترغيب الاخوان الذين لا يكثرون التعبد بعلم ولا غيره فى التكسب بالبيع والشراء والزراعات وكل ما يساعدهم على القوت بطريق شرعى لا على وجه التكاثر والمفاخرة . وحثهم على التبكير فى طلب الرزق مبـادرة لقطع خاطر الاهتمام بالرزق لا حبا للدنيا من حيث هى دنيا . فان فى الانسان جزءا يهتم بأمر المعيشة ويضطرب ولا يسكن حتى يحصل العبد كفايته ، وعليهم ألا يتعاطوا أسباب تعطيل الرزق من معاص وعدم ايثار . ومن آداب الرزق الاجمال فى طلبه وعدم الترصـــد له كل مرصد والاجتهاد فى تحرى الحلال والابتعاد عن الحرام والشبهات٠

ومن الآداب الاجتماعية التى يراها التسامح فى البيع والشراء وعدم المشاحة فى ذلك فقـــد رحم الله امرءا سمحا اذا باع واذا اشترى ٠

كما انه من الآداب التى أراد أن يأخذ بها تلاميذه ايثارهم الزواج على العزوبة ، وعدم ســــلوكهم طريق الترهب الذى كان يسلكه بعض المعاصرين له من الصوفيـــة ، ورأيه أن عبادة العازب ناقصة ، وكما نصحه بالزواج نصحه بايثار ذات الدين على غيرها ان أراد الزواج ولو كانت شــوهاء أو قبيحة ٠ فصحة الدين لا يعـــد لها أى صحة أو جمال بعد ذلك ٠

وصحح « الشعرانى » فى زاويته الآداب الاجتماعية التى يجب أن تحكم العلاقات بين المقيمين فيها وأهم هذه الآداب الايثار الذى

يربى الصوفية أبناءهم عليه ، والذى يفتقده المجتمع فلا يجده الا بين الأخوة الصوفيين الحقيقيين الذى يفنى الفرد منهم فى مصلحة أخيه ويقدمها على مصلحته الخاصه ويتفقد أحواله ويرعى شئونه حاضرا وغائبا • وكان هو قدوة تلاميذه فى ذلك • فكان يتحمل عنهم الأذى ، ولا يسيء الظن بأحد منهم أو من المسلمين ، وكان يتواضع لهم كما يتواضع لغيرهم وكانوا لا يرونه فاترا عن خدمتهم ليلا أو نهارا ، بل ساهرا على مصالحهم ، متفقدا لشئونهم ، بارا بهم، مؤثرا لهم على نفسه فى لين الطعام فيقدم لهم ما لا يقدمه لنفسه أو لأسرته ، وبذلك طبعهم على الحب الخالص الخالى من كل خطرة من خطرات الشك أو النفاق أو الأثرة •

وكان حسن السياسة لمن رآه يبغض أخاه بدون وجه حق بأن يقبل عليه ويقربه حتى اذا مال اليه سارقه بذكر صفات من يبغضه حتى يميل خاطره اليه شيئا فشيئا ، وبذلك تصفو نفسه ويزول ما بها من جفاء ، وتلك عادته التى دأب عليها بين تلاميذه ، فلا يقبل أن يرى بينهم تباغضا أو تضاغنا أو أثرة أو حسدا أو غير ذلك مما يبرز عادة فى المجتمعات الخاصة والعامة ، ولذلك أصبح المقيمون بالزاوية مثالا صادقا لما يجب أن يكون عليه الفرد المثالى فى طباعه وسلوكه • وقد مر بنا كيف أن أحد الكبراء أرسل قاصدا يفرق أموالا بين أفراد الزاوية فلم يتحرك أحد من مكانه واستغرب القاصد ذلك ، وبذر « الشعرانى » المال للصبيان والمساكين •

وقد عود تلاميذه عدم الركون الى الشهرة أو الوقوف عند الرغبة فى المدح والثناء ، كما عودهم كظم الغيظ وعدم الاستجابة للغضب بما أخذ عليهم من عهود فى ذلك بألا يثنوا عليه فى مجلس وألا يجيبوا عنه عدوا الا اذا كان ذلك ردا عن عرضـــه امتثالا للشارع الحكيم •

وتلقن تلاميذه عنه كل صفاته تلقنا عمليـا وانطبعوا بها فى سلوكهم الذى غيروا به كثيرا عن معالم المجتمع الذى يعيشون فيه . فقد أصبحوا قدوة لغيرهم من مجاورى الزوايا الأخرى التى كانت سائدة فى عصره ، من أمثال زاوية « الست خديجة ابنة درهم ونصف » التى أنشأتها بالقرب من جامع التركمانى وجعلتها مدرسة ومسجدا وزاوية ومأوى للصوفية وأمها كثير من الأعيان والقضاة وخطب بها القاضى الشافعى كمال الدين الطويل (١) أحد معاصرى « الشعرانى » ، ومدرسة الدشطوطى التى أنشأها تجاه زاوية الشيخ يحيى البلخى ، وكان يقصدها كثير من الأعيان والفقهاء (٢) . وغيرهما من المدارس والزوايا التى تجدها مذكورة فى مصادرها .

الشعرانى والعادات :

ونجح « الشعرانى » فى حملته التى أعلنهـا على كثير من العادات السيئة كالشعوذة والتضليل الذى احترفه بعض الناس . وفضح بدعوته المتسولين الذين استظلوا بظل الدين والتصـوف واتخذوا التسول حرفة وصناعة .

كما حمل على طائفة من شذاذ المجتمع ، أولئك الذين يتشبهون من الرجال بالنساء ومن النساء بالرجال ، ويبدو أن ذلك الشذوذ ليس قاصرا على زماننا نحن الآن بل كان أيضا فى زمن «الشعرانى» لذلك نراه يذكر فى عهوده التى أخذت عليه وعلينا ألا يتشبه أحد من الرجال بالنساء وبالعكس .

---

(١) تاريخ ابن اياس ص ١١٨٨ .
(٢) تاريخ ابن اياس ص ١١٧٧ .

ودعا الى مراعاة الحشمة والوقار فى زى النساء ، ووضع لهن أمثلة يقتدين بها فيما وصفه لهن من أخلاق زوجاته اللاتى اعتبر من نعمة الله عليه أنه أصلح له شأنهن — وصلاحهن كما يراه كان في استدامة طهارتهن . واكثارهن من العبادة والصلاة ولا يؤخرن الفرائض عن أوقاتها الا لضرورة شرعية واستقامتهن له فى طاعته فلم يكلفنه شراء شىء ما يتعلق بهن من أكل أو ملبس بل كن معه على ما يفتح الله تعالى به عليه .

وكان هو فى معاملته لهن فى منتهى الورع والمبالغة فى العدل الذى شرعه الله ، ويشهد لذلك حديثه عنهن بكل اجلال . ففى هذه الشهادة بيان لما كان يكنه للمرأة من احترام ، ولا غرابة فى ذلك فهى نصف المجتمع ، وفى صلاحها صلاحه وفى فسادها فساده . وقد شهدت له دائرة المعارف الاسلامية فى ذلك حين قالت : « احترامه الكبير للمرأة يكبره فى نفوس الناس اكبارا عظيما » .

وانه ليحدثنا عن احدى زوجاته حديثا يترك القدوة الصالحة تأخذ طريقها بين صفوف النساء بسرعة وبدون تكلف ، فيقول عن « فاطمة أم عبد الرحمن » : انها كانت تحرم خلفه فى الليل فيقرأ بها فى الركعة الواحدة خمسة عشر حزبا فلا تترك وقوفها الا لبكاء طفلها ومرضت عينها فلم تمكن الكحال (طبيب العيون) من رؤية عينها وتحاملت على نفسها حتى ان المرض ترك أثره فى عينها فضاقت عن الأخرى .

و « الشعرانى » حين يتحدث عن ذلك يريد أن يصل بحديثه هذا الى ما يجب أن تكون عليه المرأة من حسن معاشرة وقناعة ورضا وحسن رعاية لأفراد أسرتها ومراعاة تامة لقواعد الحشمة ، والترفع عن كل ما يشين المرأة أو يحط من قدرها فى نظر أقرب المقربين

اليها وهو زوجها ، ولذلك نراه يعد من أفضال زوجته أنه لم يطلع مرة واحدة على دخولها الخلاء في المدة الطويلة التي عاشرها فيها والتي تقدر بحوالى عشرين سنة منذ تزوجها في سنة احدى وأربعين وتسعمائة الى سنة ستين وتسعمائة حين توفيت . وذلك تكلف شديد أصبح طبعا بطول احتماله ومصاحبته .

ومن العهود التى ذكر انها أخذت علينا ووجب الوفاء بها ما يذكره « الشعرانى » في كتبه من أن نأمر النساء بصلاتهن فى بيوتهن ، وترغيبهن في لزوم البيت ، ونبين لهن ما فى ذلك من الفضائل حتى لا يحتجن الى الخروج لسماع واعظ أجنبى ، فاننا مسئولون عن عيالنا . ويعلق « الشعرانى » على ذلك قائلا : ومن تأمل بعين البصيرة ما يقع للنساء من الآفات اذا خرجن للواعظ لم يسمح لامرأته بالخروج الى مثل ذلك ، مع أن نساء هذا الزمان قد عمهن الجهل (١) .

« والشعرانى » ـ رحمه الله ـ كان يقول ذلك فى زمانه ، فماذا ترى كان يقول عن زماننا الذى لم يقتصر فيه خروج النساء الى الواعظ أو دور العلم ؟ فما أبعد الفرق بين زماننا وزمانه !

كان يدعو الى حسن المعاشرة الزوجية ويقول : أخذت علينا العهود بالوفاء بحق الزوجية وحسن العشرة بين الطرفين ، وكان يرى ما يراه شيخه « الخواص » من أن أخلاق الزوجة على صورة أخلاق زوجها فى نفسه ، فاذا استقام استقامت ، ويستشهد فى ذلك بكلام « الفضيل بن عياض » انى لأعصى الله فأجد ذلك فى خلق دابتى وامرأتى وخادمى (٢) .

---

(١) لواقح الأنوار القدسية ص ٢٧ .
(٢) لواقح الأنوار القدسية ص ١٣٦ .

ومن حقوق الزوجية حسن الانفاق على الزوجة والعيال فى حدود التوسط مع الاقتصاد وأدبهم والصبر عليهم وترغيب النساء فى الزهد فى الحرير وما يشف عن جسم المرأة ففى اباحة ذلك دعوة الى الفساد . ورحم الله « الشعرانى » الذى كان ينهى عن ذلك فى داخل المنزل ، فماذا كان يحدث لورآه الآن على اجساد النساء فى الطرقات والشوارع ؟

ولو نظرنا الى أسباب الشقاق فى الأسرة نجدها نعود فى أغلب أحوالها الى عدم رضا الزوجة وقلة قناعتها بالدخل المقسوم لها ، فهى متطلعة دائما الى المستوى الأرفع مما يكلف الزوج كثيرا من العناء والارهاق الذى يسلم الأسرة الى النزاع والشقاق . وحتى عمل الزوجة الآن ـ ان لم يكن لها عاصم من دين أو خلق ـ لا يحل هذا الاشكال ، فالشعرانى قد ضرب على الوتر الحساس فى اصلاح حال الأسرة التى يعتبرها المشرعون الخلية الأولى للمجتمع ، وفى صلاحها صلاحه وفى فسادها فساده .

ويتعمق « الشعرانى » فى داخل الأسرة ويرى استقامتها فى كمال قوامة الرجل عليها ، وبمقتضى هذه القوامة يجب عليه أن يسوس أسرته سياسة معتدلة لا تناقض فيها ، ومن تمام ذلك أن يحفظ حرمته فى بيته وأن يحتفظ بهيبتـه كاملة فى نفـوس زوجته وعياله ، فلا يؤنبهن على شىء ثم يسرع فى ترضيتهن حتى يكن هن البادئات ، فبذلك لا يصغر فى عين امرأته أو أحد أفراد أسرته (١) .

وهو يرى أن قوامة الرجل أساس استقرار الأسرة لذلك نراه يأنف من الاسراف فى ترضية الزوجة اسرافا يمكنهـا من الأخـذ

---

(١) البحر المورود ص ١٧٦ .

بناصيته وقيادته فى سبيل تحقيق مآربها ، فذلك أدعى الى اهدار كرامة الرجولة وتضييع حق الرجل الذى ورد فى حقه الأثر الشريف : لو كنت آمرا أحدا بالسجود لغير الله لأمرت الزوجة بأن تسجد لزوجها ·

ومن تمام اصلاح الأسرة عدل الرجل فى قوامته عليها فلا يؤثر أحد أفرادها على الآخر وبخاصة فى الوصايا التى كان يريد بعض الأفراد أن يمايزوا بها بعض الأولاد أو الزوجات على الآخرين ·

« والشعرانى » حين تتصفح أخلاقه المثالية تجد فيه القدوة الطيبة التى هى وسيلة يتمكن بها المصلح الاجتماعى من أداء رسالته ، فقد كان ـ رضى الله عنه ـ من رجال التصوف الذين تخلقوا تخلقا كاملا بآدابه ومثله ، وطبق معنى الأثر الشريف الذى يقول : « انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » تطبيقا عمليا ، فوسعهم منه رحمة شاملة وكرم وبذل وايثار وأمر بمعروف ونهى عن منكر وغير ذلك مما نجده مفصلا فى موضعه ، وحسبنا أن نذكر منه أمثلة :

فهو يقول : انى لأشعر بشعور المعذبين والمظلومين حتى لكأن كل عذاب أو ظلم واقع بأحد من الناس وقع بى · وتلك أسمى آيات الرحمة والاخوة الصادقة ·

ويحكى فى سياق ما من الله به عليه قائلا : ثم سترى لعورات الناس وعيوبهم ، ورحمتى بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية فانهم أشقى الناس حينئذ ، ثم غيرتى على أذنى أن تسمع زورا وعينى أن تنظر محرما ولسانى أن يتكلم باطلا ، ثم كثرة شفقتى على دابتى وكراهيتى أن أحمل سوطا ، ثم أخذى كل كلام وعظت

به الناس في حق نفسي أولا وفي حق الناس ثانيا واستغفاري من ذلك ثالثا ، ثم عفوي العام عن كل مسيء الي • ويستطرد قائلا : ومما أنعم الله به علي عدم خروجي من بيتي الا اذا علمت من نفسي القدرة باذن الله على هذه الثلاث خصال : تحمل الأذى عن الناس وتحمل الأذى منهم وجلب الراحة لهم •

فأي مثالية وأي ايثار أبعد من هـــذا ؟ وأي أثر للاصـــلاح الاجتماعي تتركه هذه المثالية وذلك الايثار ؟

لقد لفت « الشعراني » بمثالية خلقه التي كان لهـــا أثرها العظيم في الاصلاح الاجتماعي نظر كل من أرخوا عنه وشهدوا له في هذه الناحية الخلقية الاجتماعية شهادة قيمة • ومن ذلك ماكتبه الدكتور زكي مبارك عنـــه « فهذا الرجل الذي نضيفه الى أصحاب المطامع كان من نوادر الأخلاق ، وفي كتبه صـحائف تكتب بماء الذهب ، ولو شئت لقلت بمداد القلوب فقد حدثنـا هذا الرجل ـ وهو صادق ـ أنه كان يزجر من يراه يتجسس على عيوب الناس وهذا أدب نبيل ، وحدثنا ـ وهو صادق ـ أن من منن الله عليه كثرة ستره لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصي ، وأنه يرى ذلك من جملة الواجبات ، وهو الذي يقول : ان من جلة سترنا للمسلم أن نغلق عليه بابه اذا رأيناه خارجا منه وهـــو ســكران ، ونأمر الأجنبية التي معه في الخلوة المحرمة أن تنزل من حائط الجار ان خفنا أن أحدا ينظرها اذا خرجت من المحل الذي هو فيـــه • كل ذلك حتى لا يعلم أحد بعصيان ذلك الرجل ولا سيما اذا كان جارا لنا ، وكم يترتب على كشف السوءات من مفسدة ، فاياك يا أخي أن تفشي سر أخيك المسلم ولو لأعز أصدقائك ، فانه يحكي ذلك لكل الناس ان كان ساذجا ، وان كان حاذقا فيحكي ذلك لبعض الناس ويأمرهم بالكتمان فيصير كل واحد منهم يخبر صاحبه ويأمره

بالكتمان حتى نمتلىء البلد ، وأحدهم يحسب أنه كتم ما رأى والحال أنه هتك أخاه بين الناس ، ولا يكتفى بذكر ذلك بل يذكر ان من نعم الله عليه انشراح صدره ومطاوعة نفسه فى محبته ستر عورة عدوه وكراهته لكشفها مع أن الغالب على الناس اظهار الشماتة بالعدو واظهار عورته .

« وهذا الأدب دعا اليه « الشعرانى » فى جميع مؤلفاته ، وهو يرى أن العصاة من أصحاب الجدود العواثر ، وينظر اليهم بعين الشفقة والعطف ويترفق فى هدايتهم الى الله ، وهذا من أخلاق الأنبياء ، والذى يلفت النظر فى هذا الموطن هو التغاضى عن عيوب الأعداء لأنه يفرض قوة عظيمة فى ضبط النفس ، فهو من أخلاق الأقوياء من الرجال (١) .

وليس لنا من تعليق على هذه الآداب الاجتماعية العاليه التى أراد « الشعرانى » أن يغير بها وجه المجتمع سوى ما نرثى به حالنا فى هذه الأيام وما وصل اليه بعضنا من انحلال يبدو فى المجاهرة بالمباذل والمفاخرة بها ، ويبدو أكثر فى صورة الاعلان عما يرتكبه بعض الناس من فاحشة منتهزين فى ذلك الفرص المختلفة . ومدعين ــ كذبا ــ أن فى الاعلان عنها عبرة وعظة تحذر الناس من التمادى فى الانحراف والشر ، ولعمرى ان الضرر الناجم من وراء التشهير بفضائح الناس أعظم مما يزعمونه من اصلاح .

لقد كان « الشعرانى » ــ رضى الله عنه ــ عالما وأبا وطبيبا روحيا يداوى الناس ويعالج نفوسهم ، اتسع صدره لآلام الناس فوجدوا عنده ما يخفف آلامهم ويمحو مساءاتهم ويذهب أحزانهم .

---

(١) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق جـ ٢ ص ٢٧٧ .

لقد كان من أهداف اصـــلاحه محـاربة الدعة والبطالة فى دواوين الحكومة وبين الموظفين ، ومحاربة الاستكثار من الوظائف حتى يجمع الشخص بين وظيفتين أو أكثر ، لأنه كان يرى فى ذلك ضياعا لوقت الدولة فى مالها وجهـدها ، وتضييعا لمبـدأ تكافؤ الفرص بين الناس ، ولذلك نسمعه يقول « هاكم السادة العلمـاء للواحد منهم عدة وظائف هو واعظ فى المسجد وموظف فى الحكومة وطبيب للعائلة ولا يقوم باحـدى هذه الوظائف على الوجـــه الذى يرضى الله ، بل هى سبيل للمال الحلال أو الحرام ، لقد عزمنـا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لنتفرغ لخدمة الناس كافة (١) .

وكما وجه قلمه للمطالبة باصلاح الأداة الحكومية لفت أنظار المسئولين الى العناية بالفلاح والاهتمام بأمره فهـو رب الثروة ، فلا يجب اثقاله بالضرائب التي تضطره فى كثير من الأحيان الى بيع بقرته أو محراثه وكل حاصـــلاته لتســـديد هذه الضرائب حتى لا يدخل السجن ، وفى الوقت نفسه دعا الفلاحين الى الاجتهاد فى أعمالهـم ورغبهم فى الزرع وغرس الأشجار واستنباط الأثمار لما فى ذلك من حث على الاحياء وسعة الرزق (٢) .

« والشعرانى » يرى أن الانسان مدنى بالطبع فهو لا يعارض علماء الاجتماع فى ذلك . ولهذا كان يأمر بالمخالطة ولا يدعو الى العزلة الا عند الخوف من الاختلاط على أن يكون ذلك لأجل ، فمن العهود التى أخذت عليه ما يشير اليه فى « لواقح الأنوار » بالترغيب فى العزلة عن الناس اذا لم يأمنوا على أنفسهم عند الاختلاط ، فان أمنوا عليها فالمستحب الاختلاط وليس للكل الهروب من الناس.

---

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ١٦٩ .

(٢) لواقح الأنوار القدسية ص ١٨٤ .

وهناك ناحية تنبه لها « الشعرانى » فى الوقت الذى غفل فيه معاصروه من العلماء والصوفية عنها : هى الدعوة الى الجهاد الذى هو أساس صلاح المجتمع وتقدمه ونهوضه ويقول فى ذلك : «أخذ علينا العهد ألا نتهاون بترك تعلم آلات الجهاد كالرمى بالنشاب والمسارعة والمدافعة ونحو ذلك ، ثم لا نتركها بعد التعلم حتى ينفك ادمامنا . وهذا العهد قليل من الناس من يعتنى به اكتفاء بعسكر السلطان ، ولسان حالهم يقول : اذا وقع دخول عدو بلادنا فعسكر السلطان يكفى . فذلك جبن وكسل ويبس طباع » ثم يقول : « لا نفر من جماعة اجتمعنا معهم على أمر فيه اقامة للدين كالجهاد فى سبيل الله أو أمر بمعروف تعين عليه أو ازالة منكر أو مجلس ذكر الا لضرورة شرعية .. وهذا العهد يتأكد العمل به على علماء هذا الزمان وصوفيته لكونهم رءوس الناس فان قاموا فى أمر قامت العامة معهم وان غفلوا غفلت فالله تعالى يحب كل من حفظ شريعته » (١) . وهو يرى فى ذلك وجوب قيام القدوة بواجبهم فى المجتمع .

« والشعرانى » يرى أن الشهادة هى أسمى ما يجب أن يطمح اليه الانسان لذلك يقول فى موضع آخر أخذ علينا العهد اذا لم يقسم لنا الجهاد ألا ننفر من الأمور التى ورد أنها تلحقنا بالشهداء فى ثوابهم بل نتلقاها بالرضا فان لم يتيسر فبالصبر على الأقل .

فليستمع الناس الى هذه الآراء فى هذه الآونة التى حانت فيها فرصة الجهاد واغتنام شرف المشاركة فيه .

وهناك ناحية أخرى تنبه لها أيضا وكان المجتمع المصرى ــ وما زال ــ يعانى منها هى الأخذ بالثار ، وحاول « الشعرانى » بمختلف الطرق أن يقف فى طريق هذه النزعة المخربة ، ولم يأل

---

(١) لواقح الأنوار القدسية ص ٢٩٧ .

جهدا فى النصيحة لمن قتل والده أو أخوه أو ابنه أو أحد من ذوى قرباه بأن يدع هذا الأمر للقضاء يتصرف فيه ولا يكل ذلك الى نفسه لما يترتب على ذلك من الفوضى والاضطراب والفساد ، ويخطو خطوة أكبر فى تحبيب العفو عند هؤلاء عن القاتل استجابة لقوله تعالى « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (١) ٠

وكان يقوم بالاصلاح بين المتخاصمين استجابة للعهد الذى أخذ عليه بالاصلاح بين الناس والنصيحة لهم والتضحية فى سبيل ذلك بالمال والوقت والجهد ٠ ولا يخفى أثر ذلك فى المجتمع (٢) ٠

الشعرانى والمذاهب :

« والشعرانى » فهم أسرار مجتمعه وعرف أن أهم ما ينخر فيه التفرقة بين صفوف الأمة ، فحاول أن ينهى الناس عن أسباب هذه الفرقة ، ويؤلف بين قلوبهم ، ووضع لمريديه سياسة مبصرة فى معاملة أهل الفرق الاسلامية كالجبرية والمعتزلة « وهذه اللفتة تدل على اهتمام « الشعرانى » بتصفية البيئة الاسلامية وحمايتها من الجدل المؤذى الذى يفسد ما بين الناس من صلات الاخاء » (٣) ووضع فى ذلك كتبه الفريدة التى لم يسبق اليها ، والتى تدعو الى التوفيق بين المذاهب المختلفة ٠

فقد عمل على التوفيق بين الآراء المتشعبة فى مذاهب الفقهاء ، وفى كتابه « كشف الغمة عن جميع الأمة » حاول أن يجمع بين المذاهب الأربعة من غير أن يعزو الأحاديث الى مخرجيها من الحفاظ

---

(١) لواقح الأنوار القدسية ص ١٧٦ ٠

(٢) لواقح الأنوار القدسية ص ١٨٩ ٠

(٣) التصوف الاسلامى فى الأدب والاخلاق جـ ٢ ص ٣٠٢ ٠

اكتفاء بعلم آهل كل مذهب بمن خرج دليلهم • ثم صنف بعده كتاب « المنهج المبين فى بيان أدلة المجتهدين » عزا فيه كل حديث الى من رواه ، فكان ذلك تخريجا لأحاديث « كشف الغمة » وقد نقى « الشعرانى » بذلك المذاهب من التطرف وأبعد الدخلاء عن ساحتها•

وألف كذلك كتاب « الميزان الخضرية » الذى استوحاه من الخضر عليه السلام فى ليلة مشرقة على سطح جامع الغمرى وقال فى مقدمته : أخذ الخضر بيدى وأوقفنى على عين الشريعة ورأيتها بعينى ورأيت اتصال جميع أقوال العلماء بها لا يخرج قول من أقوالهم عنها ، ولم يلبث أن شرحه بكتاب آخر اسماه « الميزان الشعرانية (قال فى مقدمته : الشريعة كالشجرة العظيمة المرتفعة وأقوال علمائها كالفروع والأغصان فلا يوجد لنا فرع من غير أصل ولا ثمرة من غير غصن ، كما لا يوجد أبنية من غير جدران ، وقد أجمع أهل الكشف على أن كل من أخرج قولا من أقوال علماء الشريعة عنها فانما ذلك لقصوره عن درجة العرفان ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمن علماء أمته على شريعته بقوله : العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان • كما قال فى موضع آخر : كما لا يجوز لنا الطعن فيما جاء به الأنبياء على اختلاف شرائعهم فكذلك لا يجوز لنا الطعن فيما استنبطه الأئمة المجتهدون بطريق الاجتهاد والاستحسان) •

وسبب الاختلاف فى رأى « الشعرانى » يعود الى أن الشريعة من حيث الأمر والنهى على مرتبتين : تخفيف وتشديد ، والمكلفون لا يخرجون عن قسمين : قوى وضعيف ، فالقوى خوطب بالتشديد والضعيف خوطب بالتخفيف • فلا يؤمر القوى بالنزول الى الرخصة ولا يكلف الضعيف بالصعود للعزيمة وقد رفع الخلاف فى جميع أدلة الشريعة وأقوال علمائها ــ فى رأى الشعرانى ــ عند كل من

عمل بهذا « الميزان » لأنه لا يخـرج قول من أقوال الأئمة جميعهم عن مرتبتى الميزان : التخفيف والتشديد .

وكما عمل على التوفيق بين مذاهب الفقه « عمل على التوفيق بين الفقه والتصوف أو بين الشريعة والحقيقة وخصص لذلك الجانب الأكبر من دراساته وكتبه ، كما جاهد للتوفيق بين التصوف ورجال الكلام والتوحيد وأصحاب النظر العقلى من الفلاسـفة والمتكلمين » وألف كتاب « اليواقيت والجواهـر » لذلك السبب ، ويقول فى مقدمته : ـ وحاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتى ولم يسبقنى الى ذلك أحد ـ وسنعرض بتوفيق الله تعالى لهذا الكتاب فيما بعد .

ويعد الاستاذ المرحوم « طه عبد الباقى سرور » الشعرانى شبيها بالغزالى فى ناحية وهى محاولة التوفيق بين الفقه والتصوف ، ولكنه يخالفه فى ناحية أخرى : هى أن الغزالى حارب الفلسفة ولم يهادنها ، والشعرانى لم ينكر الفلسفة على طول الخط .

وهكذا يمضى « الشعرانى » فى طريقه محـاولا جمع شتات الأمة على كلمة واحدة حتى يجتمع شملها ويعظم أمرها .

ولا يكتفى بذلك التقريب بين آراء العلماء والصوفية ، ولكنه يولى بقوته الروحية الى محراب التصوف محاولا ازالة ما فى صفوفه من خلافات عن طريق تطهيرها من أدعياء التصوف ، فقد هاله ما وصل اليه التصوف من حال يعبر عنها بأسلوبه : « كان التصوف حالا فصار كارا ، وكان احتسابا فصارا اكتسابا ، وكان استتارا فصار اشتهارا ، وكان اتباعا للسلف فصار اتباعا للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تعففا فصار تملقا ، وكان تجريدا فصار ثريدا » وهى عبـــارة تجمع الى جمال المعنى جمـــال الأسلوب .

وهو يحدثنا عن اقبال شيوخ التصوف ـ فى مختلف كتبه ـ على جمع الدنيا والاغترار بها ـ فهذا شيخ يدعى الزهد والفناء ويكثر المال ويحرم أولاده منه فيصرخون للشعرانى أن ينجيهم من شر أبيهم • وهذا شيخ يأنف أن يركب الحمار ويقول : أنا استحى أن أمر بالحمار فى طرقات مصر • مع أنه يتعمم بالصوف وله عذبه وشعر ـ على حد تعبير « الشعرانى » ـ وهو يحدثنا فى طبقاته عن طوائف المجاذيب الذين يحرفون القرآن ويكشفون عن سوءاتهم ، ومع ذلك يعتقدهم الناس وييسرون لمرآهم ويتبركون بهم ، فان كان المجذوب مغلوبا على حاله ، فكيف يسلب عقل غيرهم من الذين يهللون لمرآهم ؟

ويأســف « الشعرانى » لكثرة الخلافات التى نشبت بين الصوفية بسبب عدم التفهم الكامل لرسالة التصوف التى تدعو الى الاخلاص والايثار والمحبة وتحذر من الخصام والفرقة والأثرة • وليس يرجع ذلك الا الى انصراف هؤلاء عن الجوهر الى العرض والى اتخاذ الدين حرفة يأكلون باسمه • فدعا الى العلم وللمجاهدة وتزيين القــلوب بدلا من تزيين الوجـوه يقـول فى كتـابه « لواقح الأنوار » : مر رجل يبدو النور على وجهه ويتعجب الناس منه ، فقال « الخواص » : أعوذ بالله ، فسأله « الشعرانى » عن سبب استعاذته ، فقال : اذا أحب الله عبدا نور قلبه حتى يعرف دقائق نفسه وخفايا شهواتها ، واذا كرهه جعل نوره فى وجهـه وأظلم قلبه فيخفى عليه حاله فيقع فى المحظورات دون أن يدرى

ودعا الصوفيـة جميعا الى الاكتساب حتى لايصبحوا عالة على المجتمع ويأكلوا باسم الدين ، ويقول فى ذلك : المروءة من الايمان ولا مروءة لمن يسأل الناس وهو قادر على الكسب ، وله قصـــة طريفة يرويها عن « المتبولى » شيخ شيخه « الخواص » : رأى فقيرا دخل زاويته ومكث فيها وترك الكسب فقال له « المتبــولى » :

لم لاتحترف وتقوم بنفسك وتستغنى عن حمل الناس لك الطعام ؟ فقال له : لما دخلت الزاوية رأيت بومة عمياء فى هذه الطاقة يقدم لها صقر ما تحتاج اليه فقلت فى نفسى : أنا بالتوكل أولى من هذه البومة • فقال له « المتبولى » : يا ولدى ، ولم ترضى لنفسك أن تكون بومة ولا تكون صـــقرا ؟ فخجل الفقير وتاب وخرج يبحث عن عمله •

وربما كان مثل هذا النوع رائجا فى حياة « الشعرانى » فقد ألح عليه كثيرا ، لذلك نراه يخاطب الصوفيــة : اياكم والتوكل كتوكل العوام بترك التكسب بالتجارة والزراعة والصناعة ونحو ذلك واللجوء الى سؤال الولاة والأغنياء فذلك جهل بمقام التوكل •

ورأى الغرور سائدا بين صفوف الصـــــوفية فحارب هـــذا الغرور والتعالى ، ونادى بأن التواضع حلية العلماء وهو أســاس التصوف ، كما رأى أن المباهاة بالباطل تذهب زينة الورع وتقضى على هيبة المتصوف ، ولا داعى لما كان يحدث بين أرباب التصوف من مظاهر تنم على شقاق فى النفوس وخلاف فى البواطن ، ولذلك كان يرى أنه من الواجب أن يؤلف بين هذه الطوائف المختلفـة ويقول لهم : زى الفقير فى روحه وباطنه لا فى مظهره واشارته ، وكان يرشدهم جميعا الى ما يجب عليهم نحو العهود والمواثيق التى أخذت عليهم •

وكتب الشعرانى كلهــا لم يكتبها الا ليبين للصوفية حقائق طريقهم وكيف يسيرون فى حياتهم على هدى وبصيرة ، والمطلع على هذه الكتب يدرك منها سر تاليفها أولا ، ومدى ما وصـــل اليـه « الشعرانى » من معرفة تامة فى كشف ما وصـــل اليه أدعيـاء التصوف من جهل تام بالطريق الصوفى وآدابه • وكتبه التى تدور حول هذه المعانى كثيرة منها : لطائف المنن والأخـلاق ، وآداب

العبودية ولواقح الأنوار القدسية ؛ والبحر المورود ، ودرر الغواص؛ والجواهر والدرر ، وتنبيه المغترين ، وقواعد الصوفية وغيرها ٠

ويخطو « الشعرانى » خطوة أخرى نحو تحقيق رسالة الاسلام السمحة فى وجوب معاملة الذميين معاملة حسنة تتفق مع ما تدعو اليه هذه الرسالة من مراعاة خاصة لشعور هؤلاء وتطبيق مبادىء العدالة الاجتماعية معهم ، وقد فطن المستشرقون لهذه الناحيـــة الانسانية فى أخـلاق « الشعرانى » وما تنطوى عليـــه دعوته من مبادىء اجتماعية سامية فأثنوا عليه فى مؤلفاتهم ثناء نبهت عليه دائرة المعارف الاسـلامية بقولهـا « ما جبل عليه من أمانة وغيرة واستقامة وانتصـــار للعدل وانسانيتـه وتسامحه وما تميز به من صدق وصراحة فى نظرته لتواضع النصـــارى واليهود تواضـعا جعلهم مثـالا للعلماء فيـه ٠٠ كل أولئك يكبره فى نفوس الناس اكبارا عظيما » ٠

ويقول الدكتور توفيق الطويل فى ذلك : كان « الشـعرانى » يتحامل على مدعى الطريق ويحاربهم بغير هوادة ولكنـه كان غير متعصب ، كان واسع الصدر متسامحا حتى مع المسيحيين واليهود فى عصر ساده التعصب الدينى ، بل كان يثنى على تواضع هؤلاء الذميين ، ويضعهم مثـلا أعلى للمسلمين ، ويحـذر من التورط فى التكفير مخافة الله (١) ٠

ومن نافلة القول التصريح بأن « الشعرانى » رضى الله عنه كان له فى كل زاوية من زوايا الحياة المصرية فى عصره منفذ من القول أو الفعل يدعو الى الاصلاح ٠ وفاء لرسالته التى نذر نفسه لها واضطلاعا بمسئوليـــة المصلح الاجتماعى على الوجـه الأكمل مستعذبا فى سبيلها كل مالاقاه من عناء ٠

---

(١) الشعرانى لتوفيق الطويل ٠

• في محراب التصوف

الشعراني بين يدى شيوخه :

لقى « الشعراني » كثيرا من الشيوخ منهم من ترجم له ومنهم من لم يترجم له ، وكلهم كان لهم تأثير على نحو معين في حياته الصوفية ، وعرف عن طريق قراءاته المتعددة ومعارفه الصوفية كثيرا من شيوخ التصـــوف الراحلين ، وكان لهم كذلك في حياته صـــدى قريب أو بعيد .

الا أنه كان يضمر لبعض هؤلاء من الراحلين والمعاصرين اجلالا خاصا ، ومن هؤلاء شيخه « على الشونى » الذى دله على مدى ما تورثه الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من فيوضات روحية والهامات نورانية ، وهو الذى أشار عليه ـ كما قدمنا ـ بالانتقال الى جامع الغمرى حيث خصص مجلس الصلاة على النبى .

وللصلاة على النبى ميزة معينة لا تتوفر في غيرها من الأذكار . هى أنها تقوم مقام الشيخ في الارشاد والتوجيه ، ولعله لذلك السبب لم يتخذ « الشعرانى » شـــيخا خاصا لفترة طويلة من الزمن ولم يعترف بشيخ خاص الا لثـــلاثة نفر هم « المرصفى والشـــناوى والخواص » .

وليس غريبا أن تكون للصلاة على النبى هـــذه التمرة وتلك الميزة ، لأن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مفتاح كل فلاح . فالنبى هو الرحمة المهداة ، وبواسطته أنعم الله علينا بنعمة الاسلام والايمان ، وعن طريقه عرف الناس أسس الهداية والنور . وعن

طريق الصلاة عليه يتعرف الانسان عليه . وعن طريقهـــا يعرف الانسان ضابط الشكر على نعمة الله الكبرى المهداة لنـــا برسالته المثلى . وقد أفاضت الكتب الصوفية في فضائل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . وسردت في ذلك كل ما نزل من وحى ، وروى من أحاديث ، وجاء من آثار ، وأوضحت مدى تأثيرها الروحى الذى يظهر في تهذيب الروح والوجدان .

ولا غرابة فى ذلك فنحن مأمورون من قبـــل الحق جل وعلا بالصلاة على النبى صلى الله عليه وســـلم فى قوله تعـالى « ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا علبه وســـلموا تسليما » ومن الأحاديث الواردة فى فضلها قوله عليـــه الصـلاة والسلام ، أكثروا من الصلاة على فان صلاتكم على مغفرة لذنوبكم واطلبوا لى الدرجة والوسيلة ، فان وسيلتى عند ربى شـــفاعتى لكم » وورد فى الأثر : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب النفس يرى فى وجهه البشر ، فقالوا : يارسول الله ، أصبحت طيب النفس يرى فى وجهك البشر ، قال : أجل أتانى آت من ربى . فقال : من صلى عليك من أمتك مخلصا من قلبه صلاة صلى الله بها عشر صلوات ، وكتب له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ورفعه بها عشر درجات » .

ويذكر الصوفية فى كتبهم أن المصـــلى على النبى يشعر بلذة روحية كلما تردد اســم النبى بالتكريم والتعظيم كما يشعر محب النبى بهذه اللذة كلما شنفت مسامع قلبه صلوات المصلين وخامرت فؤاده أشواق العاشقين وعلى قدر ما يخالج القلوب من الأنس والبهجة فى هذا المقام تكون معايير الحب والتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أجل هذا داوم « الشعرانى » على مجلس الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم الذى ظل يقيمه كل ليـــلة منذ افتتحه فى عام

ثمانيه عشر وتسعمائة حتى فارق الحياة سنة ثلاث وسبعين وسعمائة أى مايزيد على نصف قرن من الزمان ٠

وأثمرت الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثمارها فى قلبه وروحه فاستنارت بصيرته وتهذب وجدانه وصفت نفسه ، وكان حزبه الذى يتلوه فى غير أوقات المجلس ويديم تلاوته يحتوى على تكرار صيغة الصلاة على النبى ألف مرة بهذه الصيغة « جزى الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عنا خيرا بما هو أهله » ٠

وهناك صيغ أخرى كان يصلى بها على النبى حفلت بها أحزابه وأوراده ودعواته ٠

وطالت صحبة « الشعرانى » لشيخه « الشونى » الذى ظل حفيا به حتى حانت وفاته فدفن فى الضريح المقام بزاويتـــه فى مواجهة الداخل ٠ وذكر « الشعرانى » عن هذا الشيخ كثيرا من المآثر التى أثمرتها فضيلة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، كما ذكر طرفا من مناقبه وسيرته التى كان يعتز بها والتى شاهدها منه فى طوال صحبته له والتى قدرها على وجه التقريب بخمسة وثلاثين عاما ٠

وتأثر « الشعرانى » بشيخه الصالح « محمد بن عنان » رضى الله عنه فى الاجتهاد فى العبادة فقد كان كما حكى عنه يتهيأ اتوجه الليل من العصر لا يستطيع أحد أن يخاطبه الى أن يصلى الوتر ، فاذا صلى قام للتهجد لا يستطيع أحد أن يكلمه حتى يضحى النهار . وكان هذا دأبه ليلا ونهارا شتاء وصيفا ٠ كان « ابن عنان » قواما مجتهدا يقول عنه « الشعرانى » : كنا ونحن شباب فى ليالى الشتاء نراه وهو واقف يصلى على سطح جامع الغمرى ثم ننام ونقوم فنجده قائما يصلى وهو متلفح بحرامه ، فنقول : هذا الشيخ لا يكل ولا يتعب والناس

من شـــدة البرد تحت اللحف لا يســـتطيعون اخراج شيء من أعضائهم ٠

ومن هدى هذا الشيخ تمرس « الشعرانى » بكثرة العبادة وأدام السهر ولازم التهجد وواظب على قيام الليل وظل ذلك دأبه طول حياته ٠

ولم تحجب صحبة « الشونى وابن عنان » الشعرانى عن أن يلتقي بشيوخه الآخرين ، وهو يعترف بلقائه للكثيرين منهم فى عبارته التى سبق ايرادها « ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطريق ألتمس لديهم المفاتيح والأبواب فلم يكن لى وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة : على المرصفى ومحمد الشناوى وعلى الخواص رضى الله عنهم ، فسلكت على يد الأولين شيئا يسيرا وكان فطامى على يد الخواص » ٠

ولا يقدح ذلك فى تأثير « الشونى » أو « ابن عنان » أو غيرهما ممن لاقاه «الشعرانى» فان التأثير الروحى له درجات متعددة ومنازل مختلفة . ومن أجل ذلك اعتنى الصوفية بالشيخ وعقدوا أهمية كبرى عليه ، وحرصوا على أن يكون لكل مريد شيخ يسلك على يديه فهو خبير بمفاوز الطريق وعقباتها ولكل شيخ ذوق خاص قد يتناسب مع مريد ولا يتناسب مع غيره ، ولذلك قد يصاحب المريد شيخا ويخلص فى مصاحبته ولا ينتفع منه الانتفاع المرجو حتى يصاحب غيره فيكون الفتوح ويتحقق الأمل ٠

ولا يتعارض هذا مع خاصية « الصلاة على النبى » التى سبق أن قلنا انها تمتاز بأنها تسلك من غير شيخ ، فالمقصود بذلك أنها تمد المريد ولكن اكتمال حاله لا يكون الا بواسطة الارشاد الصحيح على يد الكمل من الشيوخ ٠

ولكل من « المرصفي والشناوي والخواص » حاله الذي أثر على نحو ما في « الشعراني » .

التقى بالشيخ « نور الدين المرصفي » وكان من الأئمة الراسخين في العلم ، وله مؤلفات نافعة في الطريق من بينها ، مختصر لرسالة القشيري » التي تعد أحد أعمدة الطريق الصوفي . وطلب منه « الشعراني » أن يلقنه الذكر بحال قوية ، وكان ذلك في بدء شباب « الشعراني » فهو لم يزل أمرد وما أن بدأ تلقينه الذكر بهذه الصورة التي طلبها قائلا : قل : لا اله الا الله حتى غاب عن الحس ولم يفق الا بعد المغرب من غشيته في حين أن التلقين كان بعد العصر .

يقول « الشعراني » ومكثت خمسة عشر يوما مطرودا لا أستطيع الاجتماع به لسوء أدبي معه في قولي : لقني بحال قوية .

ثم طلب منه « الشعراني » بعد ذلك أن يلقنه الذكر مرة أخرى فسمع منه لا اله الا الله ثلاث مرات فما استتمها حتى غاب عن وعيه ، ورأى في نومه الليلة رؤيا فهم منها أن تلقين الذكر كان له أثره في روحه ، فقد رأى : كأن الشيخ قد غرس ثلاثة « ميابر ـ ابر غليظة ـ » كانت معه في جسمه . وحين قص الرؤيا على شيخه سربها وقال له : الحمد لله الذي أظهر أثرها فيك .

ثم طلب منه أن يلقنه الذكر مرة ثالثة ، فتلقنه بصحبة الشيخ « أبي العباس الحريثي » الذي كان بشهادة « الشعراني أصفى قلبا وأكبر سنا وأعرف بمقامات الرجال .

ومازال « الشعراني » يتردد بصحبة « الحريثي » على الشيخ

« المرصفى » مدة حياته حتى توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة وتقدر صحبة « الشعرانى » له بحوالى عشرين عاما .

وقد تأثر « الشعرانى » به فى الورع والزهد ، فقــد كان يلقب بجنيد عصره ، وقد أوصاه بقوله : اياك أن تسكن فى جامع أو زاوية لها وقف ومستحقون ولا تسكن الا فى المواضع المهجورة التى لا وقف لها ، لأن الفقراء لا ينبغى لهم أن يعاشروا الا من كان من حرفتهــم وعشرة الضــد تكدر نفوســهم . وقد انتفع « الشعرانى » بهذه للوصاة وحافظ عليها فترة طويلة حتى تمكن من حــاله وقهر دواعى نفســه تماما ولم تعد الدنيا تملكه فانتقل الى الأماكن التى لم تستشرف نفسه اطلاقا الى خيراتها وحين بنى زاويته كان صالحا لأن يتصرف فى شئون أوقافها لصالح المجاورين والفقراء وأهل العلم دون أن يستمرىء نعمة ذلك أو يستكين اليــه بل ظل على حاله الكامل من الزهد والورع .

وتعلم كذلك من « المرصفى » كيف يسوس المريدين ويربيهم، فللمرصفى ذوق عال فى التربية وكلام يدل على بعد فى الهمة ودقة فى الفهم ، ومن ذلك قوله : المريد أحــوج الى الشيخ حال اعوجاجه فينبغى له التلطف به وعدم الغلظة عليه أو الهجر له ، الا أن يكون قد وثق به لقوة العهد الذى بينه وبينه .

وللشعرانى كتاب اسمه « رسالة الأنوار القدسية » تحدث فيه عن كلام شيخه « المرصفى » (١) كما طرز بهذا الكلام حواشى كثير من مؤلفاته .

وكما تأثر « الشعرانى » بشيخه « المرصفى » تأثر كذلك بشيخه « الشناوى » .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١١٦ .

وكان الشيخ « محمد الشناوى » يمتاز بالتواضع والأدب مع الفقراء ، وكان يقول : ما دخلت على فقير الا وأنظر نفسي دونه ، وما امتحنت قط فقيرا . قال عنه « أبو العباس الغمرى » : يموت الأدب فى الفقراء بعد محمد الشناوى ، وكان أوسع أشياخ عصره خلقا وأكرمهم نفسا ومن أقواله : الطريق كله أخلاق لا أقوال ودعاو (١) .

وورث « الشعرانى » عن شيخه سوى هذه الصفات صفة الفتوة الصوفية ، التى يفنى الفقير نفسه بمقتضاها فى سبيل قضاء حاجات الناس وتيسير مصالحهم . يقول « الشعرانى » عنه : كان رضى الله عنه قد أقامه الله فى قضاء حوائج الناس ليلا ونهارا ، وربما يمكث نحو الشهر بعيدا عن بلده لا يتمكن من الذهاب اليها بسبب اشتغاله فى أمور الناس ، وكان كريما مضيافا لا يرى لنفسه ملكا مع الله ، فقد كانت له أموال وبهائم وحبوب وغيرها كلها على اسم المحتاجين لا يتخصص منها بشىء ، وكان لا يقبل شيئا من هدايا العمال والمباشرين وأرباب الدولة ، ويقول : من شرط الداعى أن يطعم الناس ولا يطعموه (٢) .

وكان أهل « الغربية » وغيرها لا يزوج أحدهم ولده ولا يختنه الا بحضوره ، وكان نشيطا فى الحث على اقامة الأذكار فى كل مكان ومن كلامه فى ذلك : أشعلنا نار التوحيد فى هذه الأقطار فلا تنطفىء الى يوم القيامة .

وكان له تأثير آخر فى « الشعرانى » من حيث محاربة البدع التى ظهرت بين الطوائف الصوفية . يحدث « الشعرانى » فى

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الكواكب السائرة ص ٩٧ .

طبقاته قائلا : وهو الذى أبطل البدع التى كانت تطلع بها الناس فى مولد سيدى « أحمد البدوى » رضى الله عنه من نهب أمتعة الناس وأكل أموالهم بغير طيبة نفس ، وتعلموا أنه حرام وكانوا قبله يرون أن جميع ما يأخذونه من بلاد الغربية حلال ويقولون : هذه بلاد سيدى أحمد ونحن من فقرائه ، وكانوا يطلعون بالدف والمزمار فأبطل ذلك وجعل عوضه مجلس الذكر (١) ، وكان جادا كذلك فى ابطال السخرة ، فقد كان الشعب يلاقى الأمرين من عنف الحكام فى تسخيرهم ونجح فى ذلك (٢) وقد أذن « الشناوى للشعرانى » فى تلقين الناس العهد مع جماعة من مريديه وأنشد فى ذلك متمثلا ٠

أهيم بليلى ما حييت وان أمت أوكل بليلى من يهيم بها بعدى

وتوفى فى هذه الليلة من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، وقد دعا للشعرانى بأن يظل محل نظر الله ورعايته وألا يحرم ذلك طرفة عين (٣) ٠

ويقول « الشعرانى » أنه استشار فيما بعد شيخه « الخواص » فى تنفيذ اذن « الشناوى » له بتلقين الناس العهد « فأشار عليه بترك ذلك لأن هذا الزمان للذى هم فيه قد قل فيه الصدق فى طلب الطريق ٠

وقد ظهر صدق نظرية « الخواص » فان قوما غلبوا على « الشعرانى » وألحوا عليه فى تلقينهم الذكر فلقنهم فلم يفلح منهم غير واحد ، ويقص فى ذلك هذه القصة : طلب جماعة شيخنا « محمد الشناوى » رضى الله عنه من الفقير التلقين لهم بعد موت

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١١٦ ٠

(٢) الكواكب السائرة ص ٩٥ ٠

(٣) الطبقات الكبرى ص ٢ ص ١٢١ ٠

الشيخ ، فأبيت ، فألحوا على بقول الشيخ رحمه الله أنى خليفته من بعده ، فشق ذلك على لما أعلم من نفسى . فلقنت منهم جماعة فرأيت كأنى أخيط النعال خياطة محكمة ، فلما أنهى النعل يتفسخ بنفسه كما كان أولا ، فعلمت الوجه من ذلك (١) .

والوجه الذى يقصده هو عدم اذن شيخه « الخواص » .

ويعلق « الشعرانى » قائلا : الجالس للطريق بغير اذن لا يصلح للطريق ولا للأدب ، وربما يقصد من ذلك أنه لم يستمع لنصح « الخواص » فلم يفلح أكثر من لقنهم ، ولكن « الشعرانى » كان قبل أن يستمع الى نهى « الخواص » قد لقن كثيرين وأفلحوا جميعهم .

و « الشعرانى » يشير بذلك الى ضرورة الاذن ، والاذن من شروط الدعوة ، وقد ورد ذلك بالنسبة للأنبياء عليهم السلام فالقرآن الكريم يقول : « يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » . ولا يكتفى « الشعرانى » باذن الشيخ فقط ، ولكنه ينتظر من وراء اذنه اذنا آخر من الله ويعتبر من شروط الشيخ ألا يركن الى الاذن له بالسلوك والارشاد من شيخه أو غيره ، لأن الاذن لم يضمن له من الله تعالى حال اذنه له عدم المقت أو السبب حتى يطمئن الى الاذن ويركن اليه بأنه خال من ذلك (٢) .

وفى صدق نظرية وصول المريد على يد شيخ آخر غير الذى سلك عليه أولا يقول « الشناوى » قد يرضع الشيخ مريدا ويكون فطامه على يد غيره .

---

(١) اداب العبودية جـ ٢ ص ٥٦ .

(٢) اداب العبودية ص ٥٢ .

وقد تحقق ذلك في « الشعراني » الذي يقول : كان فطامي على يد « الخواص » .

وحقا ذلك فقد كان « للخواص مع الشعراني » شأن وأي شأن . ؟؟؟

الشعراني والخواص :

كان « الخواص » أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان « الشعراني » حجة في مختلف العلوم والفنون ، فكان في اجتماعهما آية على أن العلم الحقيقي ليس وقفا على الكتب ، وليس شرطا في تلقيه أن يكون بين يدي عالم أو فقيه . لقد تلقن « الشعراني » العالم على يدي « الخواص » الأمي فنون الحكمة العالية التي لم يكن علمه سبق الى قطرة من قطراتها .

لقد كان في ذلك درس يعلم الناس جميعا كيف يكون التواضع العظيم ، وكيف يجب على العالم ألا يغتر بعلمه ، أو يعتقد في نفسه مهما أوتي من شهادات أو حصل على اجازات أنه وصل الى نهـــاية المطاف .

والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ، لا يأنف من اليد التي تقدمها ، ولا يتعالى على اللسان الذي يلقنه ، ولا يتسامى على الانسان الذي يجلسه بين يديه .

لقد كان في اجتماع « الشعراني بالخواص » اشارة كريمة الى المعنى الكريم الذي يفهم من قصة « موسى والخضر » عليهما السلام ، وقد تعلم « موسى » النبي على يدي الخضر علما لم يدركه وحكمة لم يكن يعرفها .

وليس لقاء « الشعراني والخواص » بدعا في موضعه . فكم أمي بز عالما بفضله وذوقه ، ولقد تلقى « أحمد بن المبارك » وهو العالم البارع أصول العلم الحقيقي على يدي شـــيخه « عبد العزيز الدباغ » الأمي ، وقال عنه « ابن المبارك » في كتابه « الابريز » الذي ترجم فيه عن بعض الحقائق التي تعلمها منه : شاهدت من علومه ومعارفه ما غمرني وبهرني وسمعت منـــه مالم يطرق سمعي من قبل (١) .

وتلقى « الغزالي » على يدي شيوخه الصوفيين علما لم يقرأه في كتاب ولم يطلع عليه في صحيفة .

واستفاد « عز الدين بن عبد السلام » قاضي قضاة مصر وشيخ علمائها من « الشاذلي » رضي الله عنه علما قرظه بقوله : هذا عـلم قريب العهد من الله .

اجتمع « الشعراني بالخواص » وحدثت بينهما محاورة قصيرة قرر « الشعراني » على أثرها أن قوة روح هذا الشـــيخ الأمي قد استولت عليه استيلاء تاما ، واستحوذت على قلبه وروحه واعتقد اعتقادا جازما أن الخير كل الخير في الاستجابة التامة لما يأمره به ، وأن كلمات صفيه « البهلول » التي طال ترددها في حناياه لن تؤتي أكلها الا على يد هذا الشيخ .

قال له الخواص : الى من تنتسب ؟

قال الشعراني : الى السلطان أحمد سلطان المغرب نسبا ، والى محمد بن الحنفية شرفا .

قال الخواص : وما عملك ؟

---

(١) الابريز المقدمة .

قال الشعرانى : العلم ، أقرؤه وأطلبه وأعلمه ·

قال الخواص : سلطنة وشرف وعلم مع فقر لا يجتمعن ، فان أردت مصاحبتى فاختر الفقر على ما عداه · وتنازل « الشعرانى » طائعا عن نسبه وشرفه وعلمه · واختار صحبة « الخواص » على هذا الشرط ، ويحدثنا « الشعرانى » عن طرف من مجاهداته التى قام بها تحت اشراف شيخه فيقول : « كانت مجاهداتى على يدى سيدى « على الخواص » كثيرة متنوعة منها أنه أمرنى أول اجتماعى عليه ببيع كتبى والتصدق بثمنها على الفقراء ، ففعلت ، وكانت كتبا نفيسة مما يساوى عادة ثمنا كثيرا ، فبعتها وتصدقت بثمنها ، فصار عندى التفات اليها لكثرة تعبى فيها وكتابة الحواشى والتعليقات عليها ، حتى صرت كأننى سلبت العلم ، فقال لى : اعمل على قطع التفاتك اليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فانهم قالوا : ملتفت لا يصل فعملت على قطع الالتفات اليها ، بعد مدة خلصت بحمد الله من ذلك · ثم أمرنى بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتى ، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسى خيرا منهم فقال لى : اعمل على قطع انك خير منهم ، فجاهدت نفسى حتى صرت أرى أرذلهم خيرا منى ·

ثم أمرنى بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فعملت على ذلك حتى قطعته فرأيت نفسى حينئذ أننى صرت أفضل مقاما منهم ، فقال لى : اعمل على قطع ذلك أيضا ، فعملت حتى قطعته ·

ثم أمرنى بالاشتغال بذكر الله سرا وعلانية والانقطاع بالكلية اليه ، وكل خاطر خطر لى مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطرى فمكثت على ذلك شهرا ·

ثم أمرنى بترك الشهوات مطلقا فتركتها واكتفيت بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى صرت أكاد أصعد بالهمة فى الهـــواء ،

وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية فى صدرى ، ثم أمرنى بالتوجه الى الله تبارك وتعالى فى أن يطلعنى على أدلتها الشرعية ، فلما اطلعت عليها وصار لوح قلبى ممسوحا من العلوم النقلية لاندراجها تحت الأدلة ترادفت على حينئذ العلوم الوهبية (١) » ·

وفى أحد الأيام كان يقف بالفسطاط تجاه الروضة بناء على أمر من شيخه فرأى العلوم تتزاحم على قلبه من كل فن فسطر من ذلك صحائف كثيرة وعرضها على شيخه ، فأدرك أنها علم مخلوط بفكر وكسب ، فأمره بمحوها ، لأنه مازال بينه وبين العلم اللدنى الخالص ألف مقام (٢) ·

ومازال « الشعرانى » و « الخواص » يأمره بازالة ما يكتب حتى فتح الله عليه بعلوم سطرها فى كتابه « الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية » فأمره « الخواص » بابقاء ذلك وقال له : الآن ثم أمرك وعلا نجمك (٣) ·

ويحتوى هذا الكتاب على الآداب التى يجب أن يتحلى بها العبد فى حياته مطلقا وفى طلب العلم النافع ، وعلى الآداب التى يجب أن يتحلى بها الفقراء وشيوخهم وعلى خاتمة توضح المقامات الساقطة التى ينبغى للمريد الصادق تحاشيها ·

وبعد ذلك لقنه « الخواص » العهد والذكر ، ولازم «الشعرانى» شيخه وجعل يغترف من بحر علومه حتى حصل من المعارف الصوفية والأسرار الروحية مالا يحيط به حصر ولا يدركه عقل ·

---

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ٣٩ ·
(٢) الشعرانى لتوفيق الطويل ·
(٣) المناقب الكبرى ص ٥٧ ·

يقول « الشعرانى » : غطست فى بحر علوم شيخى خمس مرات . فلما أردت أن أغطس السادسة استحال البحر حجرا ، وفى كل مرة كنت أغطس فيهـــا كنت أجد صــــيدا من خزائن علومه رضى الله عنه .

وجد فى المرة الأولى خزانة على بابها قفل ، ففتحها بقول : لا اله الا الله . ورأى فيها علوما برزت من اللوح المحفوظ الى هذا العالم على اختلاف طبقاته .

وفى المرة الثانية وجد على باب الخزانة قفلين ففتحهما باسم : الله . ووجد هناك آيات من القرآن الكريم من أول « سورة الحاقة » حتى نهاية القرآن الكريم ، ورأى تفسير ذلك مكتوبا بمعان وعبارات لا تدركها العقول .

وفى المرة الثالثة وجد على الخزانة ثلاثة أقفال ففتحها : بالرحمن الرحيم .

وفى الرابعة كانت الأقفال أربعة ففتحها : بحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفتح الأقفال الخمسة فى المرة الخامسة : بسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم .

كان فى الخزانة الثالثة علوم الحديث الشريف والتفسير ، وكان فى الخزانة الرابعة علم التأويل ، وفى الخامسة وجد جملة صالحة من حقائق متفرقة تقبلها العقول ولا تنكر منها شيئا .

وحــاول « الشعرانى » أن يضن بمـــا أدركه من خزائن هذه العلوم فلا يبوح بأسرارها ، ولكنه رأى رؤيا فهم من تأويلها حرمان البخيل من الرحمة ، فأذاع ما رأى لينتفع به أهله .

وربما كان المقصود بالاقفال ومفاتيحها هو ما نضمنه الذكر من أسرار ، وما تحتويه أسماء الله الحسنى من معان وما تفيض به من فيوضات على نحو ما أشار اليه الاستاذ طه عبد الباقي سرور فى كتابه « التصوف الاسلامى والامام الشعرانى » ٠

ولا ينكر أحد أهمية الذكر بالنسبة للطرق الصوفية فهو أحد أعمدة الطريق بل هو روحها وبدونه لا يتمكن المريد من أن ينال شيئا من الطريق ٠

وعاش « الشعرانى » ابنا بارا بشيخه « الخواص » فقد أدرك فضله وعرف منزلته ، وفهم أن مبنى علومه على الكشف الصحيح والتعريف الالهى لا مدخل للفكر والنظر فيها بوجه من الوجوه (١) ٠

وقد وصف « الشعرانى » شيخه بقوله : رجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم الا العلماء العاملون لأنه رجل كامل عندنا بلا شك ، والكامل اذا بلغ مقام الكمال فى العرفان صار غريبا فى الأكوان (٢) ٠

ويعتبر الدكتور زكى مبارك منزلة « الشعرانى » من «الخواص» بمنزلة « أفلاطون » من أستاذه سقراط ، لأن مجهود « الشعرانى » فى بث علوم أستاذه لا يقل أهمية عن مجهود « أفلاطون » فى نشر ثقافة اليونان ، وليس ذلك بغريب بالنسبة لما أثر عن « الخواص » من علم ومعرفة ، وحسبك من ذلك قوله : من أراد أن يعرف مرتبته فى العلم الذى يزعم أنه من أهله فليرد كل قول الى قائله ، وكل شىء استفاده من أمر دنياه وآخرته الى من استفاده منه وينظر نفسه بعد ذلك » (٣) ٠

---

(١) المناقب الكبرى ص ٥٨ ٠

(٢) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ٣٨ ٠

(٣) التصوف الاسلامى فى الأدب والاخلاق جـ ٢ ص ٣٠٨ ٠

ويروى « الشعرانى » عن « الخواص » أنه على الرغم من أميته فانه كان يتكلم على معانى القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاما نفيسا يتحير العلماء فيه ·

وقد تأثر « الشعرانى » بشيخه فى كثير من اتجاهات سلوكه ·

كان « الخواص » متواضعا ويدعو الى الزهد مع التمسك بأسباب الرزق ، فقد كان يعظم أرباب الحرف النافعة فى الدنيا وان صغرت هذه الحرف كالزبال والسقاء والطباخ وغيرهم ويكرمهم ويدعو لهم · كما كان يعظم العلماء وأركان الدولة ويقوم لهم ويقبل أيديهم ويقول : هذا أدبنا معهم فى هذه الدار · وكان يستقبل زائره بالذهاب اليه ويقول فى ذلك : كل خطوة يمشيها الناس الى الفقير تنقصه من مقامه درجة ، فقيل له : فكيف تذهب أنت اليهم ؟ فقال : أنا أذهب وأدعو الله ألا ينقص درجتهم ·

وكان كسب « الخواص » من عمل يده ، كان فى أول أمره طوافا يبيع الصابون والجميز والعجوة وكل ما وجد ، ثم تاجر فى الزيت سنين عديدة ، ثم صار يشتغل بجدل الخوص الى أن مات ، وكان يقول فى ذلك : أنا لا تطيب نفسى بكسب نفسى ، فكيف تطيب بكسب غيرى ؟ ·

ويقدر « الشعرانى » صحبته للخواص بحوالى عشر سنين ، ولكن ذلك تقدير تقريبى ، فالواقع أن الصحبة طالت الى ما يقرب من أربعة عشر عاما ابتداء من حوالى سنة احدى وثلاثين وتسعمائة الى وفاة الخواص سنة خمس وأربعين وتسعمائة ·

وقد أثمرت هذه الصحبة ثمارها اليانعة فى قلب « الشعرانى » وروحه وسلوكه ، ولم يضيع هذه السنين هباء ، ولكنه كان ينتهز

كل فرصة ممكنة ليسأله عما غمض عليه علمه أو استغلق عليه فهمه ، وكان ثمرة ذلك كتابين جليلين ٠ أما أحدهما فهو كتاب « درر الغواص فى فتاوى سيدى على الخواص » ويتضمن هذا الكتاب أسئلة كان يوجهها « الشعرانى » للخواص فيجيب عليها بأسلوبه ويصورها الشعراني بعبارته وفي ذلك يقول : فهذه نبذة صالحة من فتاوى شيخنا ٠٠ التى سألته عنها مدة صحبنى له مترجما عن معنى بعضها لكونه رضى الله عنه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فلسانه يشبه لسان السريانى تارة والعبرى تارة فاذا علمت أن الجواب لا يدرك الا بحروفه ذكرت جوابه بلفظه من غير شرح لمعناه ٠

ومن اجابات « الخواص » على أسئلة « الشعرانى » ندرك مدى ما كان عليه من تحقيق وتمكن ، مع ملاحظة أن « الشعرانى » كان عالما فهو لا يسأل الا عما استغلق عليه فهم العالم البارع ٠ واليك نموذجا من هذه الأسئلة :

يقول الشعرانى : سألته عن قول أحمد بن حنبل حين طلب من الله تعالى أن يدله على ما يقرب العبد فأجابه الحق تعالى : بتلاوة كلامى بفهم وبغير فهم ٠

وكانت اجابة الخواص عن الفهم وغير الفهم أن الفهم خاص بعلماء الشريعة المطهرة ، وغير الفهم خاص بعلماء الحقيقة وهم كمل العارفين ، اذ العارفون ليس لهم أدلة الى فهم كلام ربهم أو غيره الا بالكشف والذوق لا الفهم والفكر ، ومرادنا بهذا الكشف هو كشف العلوم والمعارف الحاصل بالنفث والروع لا الكشف المعهود فى الحس بين أرباب الأحوال ، فان العلوم ليست محسوسة حتى يكشف عنها كما يكشف عن الأماكن البعيدة فى الكشف الصورى ، وقد جعل الله تعالى لعلماء الشريعة نظير هذا الكشف الفهم بواسطة الاجتهاد والأدلة المعلومة بينهم — وأطال فى ذلك ثم قال : واعلم أن الله

تعالى قد أخبر فى كتابه عن أقوام: ان هم كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن أقوام من أمته يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم . فكيف يكون هؤلاء الأقوام متقربين اليه بعدم العلم الذى هو الجهل (١) ؟

وسأله عن أسرار العبادات وما تهدف اليه من معان تدق على العقول والأفهام ، ومن ذلك سؤاله عن الحكمة فى وجوب استقبال القبلة قائلا له : ألحق تعالى فى جهة الكعبة دون غيرها مع أن الجهات كلها فى حق الحق تعالى واحدة ؟

فأجاب الخواص : انه لا يستقبل الحق تعالى من العبد الا روحه لا جسده . فالعبد اذن مستقبل للحق فى غير جهة بباطنه . وليحذر العبد أن يتوهم أن نفسه قد أحاطت بها الجهات كصورته الظاهرة خوفا أن يبقى الحق فى وهمه كالدائرة المحبطة فان ذلك جهل بالله تعالى ، بل كما يرى نفسه التى هى ليست من عالم الحس فى غير جهة كذلك يكون الحق . وأما ظاهر العبد فانما هو متوجه الى جهة القبلة المخصوصة وذلك ليجمع همه على الأمر الذى هو فيه . فانه لو لم يؤمر باستقبال جهة معينة وكان على حسب اختياره تبدد حاله وكان يترجح عنده فى كل وقت جهة ما وربما تكافأت فى حقه الجهات فاحتاج الى فكر واجتهاد فى الترجيح فيتبدد بالكلية ، فلذلك اختار الحق تعالى له ما يجمع همه ويريح قلبه (٢) .

وأما الكتاب الثانى فهو « الجواهر والدرر » أوضح « الشعرانى » أنه ألفه بعد أن التمس منه بعض الاخوان الأثيرين عنده ذكر ما تلقاه من شيخه « الخواص » وما فاوضه فيـــه من الجواهر والدرر حال

---

(١) درر الغواص ص ٨ .
(٢) درر الغواص ص ٨٣ .

مجالسته مدة عشر سنين ، وقد وسم كل قولة منه باسم شيء من الجواهر النفيسة اشارة لعزة الجواب عنها بين أظهر العلماء على حسب درجات ذلك الكلام في النفاسة ، ما بين ماس وكافور وياقوت وجوهر وبلخش (١) وزبرجد ولؤلؤ ومرجان وزمرد وغير ذلك ٠

ويحتوى هذا الكتاب على أجوبة أيضا عن أسئلة سألها « الشعرانى » لشيخه وعلى أقوال سمعها منه ٠

ومما ورد في هذا الكتاب تحت عنوان « ياقوت » : سألت شيخنا عن قوله تعالى « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » هل هذا النصر لهم دائما فى كل وقت أم هو خاص بعواقب الأمور فتكون الدولة للمؤمنين ؟ فقال رضى الله عنه : النصر دائما مع الايمان لما فيه من شدة الاستناد الى الله تعالى فقلت له : فمن أين وقع للصحابة رضى الله عنهم الانهزام فى بعض المواطن وهم المؤمنون بيقين ؟ فقال : جاءهم الانهزام من ضعف توجههم الى الله تعالى حين أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا (٢) ٠

ومما ورد تحت عنوان « كبريت أحمر » أوصانى شيخى رضى الله عنه وقال : لا تقم لأحد من الاخوان وغيرهم الا أن لا تعلم من نفسه الميل الى ذلك ، فانك اذا قمت له حينئذ كبرت نفسه بغير حق وأسأت فى حقه هو حيث لا يشعر ــ فقلت له : ومن أين لى العلم بذلك وحسن الظن بالمسلمين واجب ؟ فقال رضى الله عنه : حسن الظن لا علم (٣) فقم له اكراما ، ولو كان فى الباطن بخلاف ما ظننت وأمرك محول عنك ٠ فقلت له : فان كان مشهدى أنى دون كل الخلق

---

(١) البلخش نوع من الأحجار الكريمة ٠

(٢) الجواهر والدرر ص ١٠٩ ٠

(٣) لا علم : بمعنى ليس علما ، واللفظ الوارد نص عبارة الشعرانى ٠

في الرتبة ؟ فقال رضي الله عنه : صاحب هذا المشهد يقوم لكل وارد عليه من عصاة هذه الأمة لأن الناس كلهم عنده أهل فضل عليـــه والقيام لأهل الفضل مطلوب ، لا سيما ان حصل بذلك جبر خاطر لأخيك المحجوب (١) ٠

ولحرص « الشعرانى » وتورعـه حـــاول أن يستطلع رأى « الخواص » فى اتخاذ شيخ آخر بعده اذا ما قدر للخواص أن يسبق للعالم الآخر ، فأشار عليه بعدم ذلك ، لأنه أنس في تلميذه النجابة فلم يعـد فى حاجة الى أن يتتلمذ على أحد فقد صار أستاذا ، ولأنه رأى أنه لا يوجد بعده من الشيوخ من يستحق الصدارة ـ ومصداق ذلك نجده تحت عنوان « فيروزج » : قلت لشيخنا : هل آخذ العهد بعدكم ان سبقتم العهد بالوفاة ؟ فقال رضى الله عنه : لا تتقيد بعدى على صحبة أحد من هؤلاء المشايخ الظاهرين فى النصف الثانى من القرن العاشر لتعذر الوفاء بحق كل منكما على صاحبه ، لكن لا بأس بزيارتهم كل قليل ، فقلت له : فهل آمر بذلك جميع أصحابكم من بعدكم فقال : لا تقيده على أحد منهم فان الله تعالى له خواص فى كل عصر يقبلون الترقى على يد من شاء الله تعالى ، على أن الطريق الآن قد صارت اسما لا رسما ، وتزيى المريدون بزى الأشياخ ، وتلبس على أكثر الناس أمر الشيخ وتمييزه عن المريد ، بل ربما ادعى المريد أنه أعرف من شيخه بالطريق وتبعه أكثر الناس على دعواه » (٢) ٠

وتوفى « الخواص » سنة خمس وأربعين وتسعمائة ، وظـــل « الشعرانى » من بعده حاملا لواء دعوته وشعلة هدايته ما يقرب من ثلاثين عاما ٠

---

(١) الجواهر والدرر ص ١٤٣ ٠

(٢) الجواهر والدرر ص ٣٢٨ ٠

وكان يلازم « الشعرانى » فى أثناء صحبته للخواص الشيخ « أبو الفضل الأحمدى » الذى كان يلقبه بأخيه ويحدث أنه حدث بينهما اتحاد لم يقع له مع غيره ، ودليل ذلك أنه كان يرد على قلبه من الكلام ما يدونه فاذا ما أصـــبح وجد نظيره عنـــد الشيخ « أبى الفضل » ودامت صحبتهما خمس عشرة سنة ، وتوفى ودفن « ببدر » فى أثناء حجه ســنة اثنتين وأربعين وتسعمائة ، ويحكى « الشعرانى » أنه فى أثناء حجة سنة سبع وأربعين زار قبر أخيه فى الله فرد عليه السلام · ومن تواضع الشعرانى أنه كان يلقبه بشيخه وترجم له فى طبقاته على أنه أحد شيوخه ، وذكره فى كتاب الجواهر والدرر وأورد له طائفة جيدة من أقواله التى تدل على صفاء روح وقوة ادراك ·

مع الشيوخ الراحلين :

فى صحبة ابن عربى :

أخلص « الشعرانى » الود لكل من سبقه من الصوفية الأجلاء ، وأفرد لهم فى قلبه صفحات نقية بيضاء وكان آلذ وقت يقضيه فى مصاحبتهم عن طريق متابعة ســـيرتهم وقراءة آثارهم واســتطلاع أخبارهم ، وله فى ذلك مؤلفات نافعة ، منها : لواقح الأنوار القدسية فى مناقب العلماء والصوفية ، ولواقح الأنوار فى طبقات الأخيار ، والطبقات الكبرى ، وارشاد الطالبين الى التخلق بأخلاق العاملين ، ووصايا العارفين وغير ذلك مما ألفه فى مناقبهم وآثارهم ، ما بين مخطوط ومتداول ·

و « الشعرانى » فى اعجابه بشيوخ التصوف انما يرضى بذلك نزعته الصوفية ويحاول أن يترسم خطاهم ليصل الى الكمال الروحى الذى حققوه · ويمكن أن يقاس « الشعرانى » بالغزالى وابن عربى

من بين الصوفية الماضين فى وضوح المنهج وغزارة النتاج ، فقد كان كل منهم على علم تام بالمعارف الشرعية والعقلية واللغوية قبل نبحره فى علوم التصوف ، ولكل منهم آثار جمة تشهد له بالسبق والتقدم .

وهو الى جانب اعجابه « بالغزالى » يختلف معه فى ناحية ويتفق معه فى ناحية . يختلف عنه فى الموقف من الفلسفة ، فقد نفر « الغزالى » بعد تصوفه من الفلسفة نفورا شديدا ، وهاجمها وكتب فى ذلك عدة مؤلفات يدعو فيها الى الكف عن مطالعة كتب الفلسفة وعلم الكلام . ومن ذلك كتاب : « الجام العوام عن علم الكلام » الذى ألزم الانسان فيه بوظائف متعددة تسلمه من الجهل والتخبط والضلال ، ومنها كتاب : « المنقذ من الضلال » الذى يوضح فيه سبب جفائه الفلسفة واقباله على التصوف . ومنها كتاب « تهافت الفلاسفة » الذى يناقش فيه آراءهم ويفندها ، وغيرها .

ولكن « الشعرانى » كان ينهى عن الحط على الفلاسفة وتنقيصهم وينفر ممن يذمهم ويقول عنهم : هؤلاء عقلاء (١) .

واتفق « الشعرانى » مع « الغزالى » فى الرأى بأن الايمان لا التفلسف هو الطريق الى الله (٢) . وحمل من أجل ذلك على العلماء الذين لا يعملون بعلمهم ، ودعا الى أن العلم الذى لا يهدى الى الله ويوصل اليه الجهل خير منه ولا غرابة فى ذلك فكلاهما — برغم علمهما الواسع — لم يجدا شفاء نفسهما الا على يد شيخ أمى .

ولعل «الشعرانى» فى عدم مهاجمته الفلسفة يساير طبيعته التى تدعو الى التأليف بين طوائف الأمة المختلفة وجمع شتاتها ، وكان

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٨ ص ٣٦٢ .

(٢) الشعرانى للتوفيق الطويل .

دأبه توجيه القلوب وجهة واحدة بدلا من ذلك التنافر الذى شتت الجهود وأضعف العزائم وله فى ذلك مؤلفات مختلفة سبق الاشارة اليها ٠

ولعل « الشعرانى » فى هذا الاتجاه أيضا يقتفى خطوات « محيى الدين بن العربى » الذى كان يكن له اجلالا خاصا ، وأخلص له اخلاصا يفوق كل حد يفرد له من بين مؤلفاته كتبا خاصة تشرح آراءه وتقرب وجهة نظره وتدافع عنه ٠

و « ابن عربى » كان لا يهاجم الفلاسفة ـ وان كان لا يدعو الى علومهم ـ « ولذلك نسمعه ينصح فى مقدمة الفتوحات بعدم المبادرة الى انكار أقوال الفلاسفة والمتكلمين ، اذ ربما يكون فى كلامهم ما يوافق الشرع والعلم الصحيح ، ويقول فى ذلك : اياك أن تبادر الى انكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلى مثلا ، وتقول : هذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة ، فان هذا قول من لا تحصيل له ، اذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلا يكون باطلا ، فعسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق ، ولا سيما ان كان الشارع صلى الله عليه وسلم صرح بها أو أحد من علماء أمته من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتبا كثيرة مشحونة بالحكم والتبرى من الشهوات ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خفايا الضمائر ، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرع ، فلا تبادر يا أخى الى الرد فى مثل ذلك وتمهل وأثبت قول ذلك الفيلسوف حتى تحد النظر فيه ، فقد يكون ذلك حقا موافقا للشريعة لكون الشارع قال تلك المسألة أو أحد من علماء شريعته (١) » ٠

كان « الشعرانى » معجبا بابن عربى ، ولذلك اقتفى خطواته ، وتأثر به تأثرا كبيرا ، وليس غريبا أن نعتبره من تلامذته المخلصين،

---

(١) محيى الدين بن العربى سلطان العارفين ص ١٠٥ ، من سلسلة اعلام العرب للمؤلف ٠

فالتلمذة ليست وقفا على المعاصرة ، وبمقتضى حق هذه الأستاذيه حمل التلميذ لأستاذه كل اجلال واكبار وأخـذ على عاتقه اذاعه معـارفه وأذواقه وتقريبها الى الأذهان ، وصوغها في عبارة تنفى عنها كل شك وتظهرها فى صورة لا تتنافى مع الشرع ، ولاقتنـاعه بآراء « ابن عربى » وصفته دائرة المعارف الاسلامية بأنه يردد هذه الآراء وأنه ليست له آراء مبتكرة ، وآية ذلك فى رأيهـا أنه استخدم المصطلحات التى اسـتخدمها « ابن عربى » لا المصـطلحات التى استخدمها غيره من الصوفية ، وقد ساير الدكتور زكى مبارك آراء المستشرقين التى استندت اليها دائرة المعارف فى ذلك الفهم فقال : ان « الشعرانى » فتن فتنة عظيمة بأدب « محيى الدين بن العربى » وألف فى شرح آرائه كتابا طريفا سماه « اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر » واختصر كتاب « الفتوحات » وهو يحرص كل الحرص على تبرئة « ابن عربى » من فتنة القول بوحدة الوجود أو الحلول ، وهو يصر اصرارا جازما على أن مؤلفات « ابن عربى » أضيفت اليها زيادات أراد بها الدساسون تشويه سمعته فى العالم الاسلامى . ويضيف : والذى نراه أن « الشعرانى » أسرف بعض الاسراف حين جعل « ابن عربى » من أهل السنة والجماعة وحين نفى عنه ما يصدر عن مثله من الشطحات الصوفية ، ولكن اسراف « الشعرانى » مقبول لأنه صدر عن اخلاص » (١) .

والذى يهمنا هنا أن نبعد عن « الشعرانى » تهمة الجمود التى رمته بها دائرة المعارف ، وتهمة التعصب التى رماه بهـا الدكتور زكى مبارك .

فلم يكن « الشعرانى » جامد العقلية بدليل أن كثيرا من مؤلفاته كانت ابتكارا صرفا لم يسبق اليه ـ بشهادة المستشرقين

---

(١) التصوف الاسلامى جـ ١ ص ٢٠٤ .

أنفسهم الذين حررت دائرة المعارف بأقلامهم ـ وبدليل تمكنه من فهم كثير من الآراء التى حارت العقول فى فهمها ووقفت أمامها حائرة لا تستطيع أن تدرى عنها القليل أو الكثير • ووحدة الوجود التى أقامت الدنيا وأقعدتها ليست تدور مع الفهم الخاطىء الذى حاول الكثيرون أن يلبسوها ثوبه ، وفهم « الشعرانى » لها انما هو دليل على تحرر عقليته وانطلاقها الى آفاق أوسع وأرحب ، ثم تمكنه من صياغة الآراء المستعصية فى أسلوب يتناسب مع عقلية زمانه دليل آخر على تمكنه من مخاطبة الناس على قدر عقـــــولهم • تقول عنه شذرات الذهب : ومع ذلك لم يكن عنده جمود المحدثين ولا لدونة النقلة بل هو فقيه النظر صـوفى الخبر له دراية بأقوال السلف ومذاهب الخلف (١) •

ويقول عنه « جورجى زيدان » انه كان له شأن عظيم ويثبت أنه كان سباقا ومبتكرا بدليل أن كتابه « الميزان الكبرى الشعرانية » ـ رغم بعد الصور الدينية عن أذهان المسلمين ـ يوجد به ثمانى صور خيالية مثل فيها « الشعرانى » صورا فى ذهنه لعين الشريعة وفروعها والصراط لمن استقام فى دار الدنيا ومن اعوج وقياس الأئمة مما لا يوجد مثله فى غير هذا الكتاب (٢) • ومعنى ذلك أنه كان أحد السباقين الى استعمال وسائل الايضاح التى تعـين على الفهم ولا يصدر ذلك الاستعمال عن جامد غير مبتكر •

و « الشعرانى » ليس متعصبا فانه برغم اعجابه بابن عربى الا أنه كانت له شخصيته المستقلة التى تقبل وتعرض ، وقد رأينا له وقفات مع عبارات نسبت الى ابن عربى لم يقبلها وهاجمهـا • يثبت ذلك الاستاذ طه عبد الباقى سرور قائلا : حتى اننا لنراه أحيانا

---

(١) الشذرات جـ ٨ ص ٣٧٢ •

(٢) تاريخ أدب اللغة لجورجى زيدان جـ ٣ ص ٣٣٥ •

يهاجم محيي الدين وهو المحب الأكبر والتلميذ الأمين لمحيي الدين ، ويقول الشعراني في ذلك مخاطبا المريد : وليحذر أيضا من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه لعلو مراتبها ، ولما فيها من الكلام المدسوس عليه لا سيما الفصوص والفتوحات المكية (١) ٠

فالشعراني اذن لم يكن يقف أمام كلام ابن عربي موقفا سلبيا ، ولكنه كان يناقشه ، فما يجده مسايرا للسنة يقبله وما يجد فيه مخالفة يحاول البحث عن حقيقته وأصله فربما كان مدسوسا على الشيخ وكثيرا ما يكون كذلك ٠ وقد ذكر « الشعراني » في مقدمة « اليواقيت والجواهر » ما يدل على تدقيقه وتوقفه قائلا : لكنى رأيت في الفتوحات مواضع لم أفهمها ، فذكرتها لينظر فيها علماء الاسلام ويحققوا الحق ويبطلوا الباطل ان وجدوه ، فلا تظن يا أخي أني ذكرتها لكوني أعتقد صحتها فأرضاها في عقيدتي كما يقع فيه المتهورون في أعراض الناس ، فيقولون : لولا أنه ارتضى ذلك الكلام واعتقد صحته ما ذكره في مؤلفه ، معاذ الله أن أخالف جمهور المتكلمين وأعتقد صحة كلام من خالفهم » (٢) ٠

و « ابن عربي » يستحق الحب والاعجاب وهو جدير بذلك الايثار الذي آثره به « الشعراني » وكتب في شأنه رسائل وكتبا ، وكان قد لخص كتابه « الفتوحات » المكية » الذي يعد كنزا دفينا وتحدث عنه الصوفية بأنه أجمع كتاب للتصوف لما احتوى عليه من دقائق التصوف واشاراته في كتاب سماه : «لواقح الأنوار القدسية» ثم عاد فاختصر هذا الكتاب في كتاب آخر سماه « الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر » وقال في مقدمته : طالعت من كتب

---

(١) التصوف الاسلامي والامام الشعراني ص ١٠٨ ٠
(٢) اليواقيت والجواهر جـ ٣ ٠

القوم ما لا أحصيه وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب « الفتوحات » لا سيما ما تكلم فيه من أسرار الشريعة وبيان منازع المجتهدين التى استنبطوا منها أقوالهم ٠

ولاعجاب « الشعرانى » بابن عربى كتب كتاب « اليواقيت والجواهر » الذى حاول أن يوفق فيه بين أقوال أهل الشريعة وأهل الحقيقة أو أقوال أهل الفكر وأقوال أهل الكشف مشيدا على كلام « ابن عربى » ، لأنه فى رأيه أوسع الصوفية كلاما وأدقهم فهما وأكثرهم عبارة ٠

وقد دافع « الشعرانى » عن « ابن عربى » فى جميع مؤلفاته دفاعا مجيدا ، وأفرد للدفاع عنه كتابا خاصا عنوانه « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » وكتابا آخر ورد اسمه فى قائمة تاليفه اسمه : القول المبين فى الرد عن الشيخ محيى الدين (١) ٠

ولم يقف اعجاب « الشعرانى » عند « ابن عربى » ولكنه يعجب بكل الشيوخ السابقين كما سبق الاشارة الى ذلك ، وقد ورد فى « المناقب الكبرى » أن الأولياء كانوا يستزيرونه فى رؤاه ويطلبون منه التوجه اليهم . وكان يلبى ذلك ويقوم بزيارات متعددة لهم ، ومن هؤلاء الذين طالبوه بزيارتهم « الامام الشافعى والدسوقى والبدوى وعمر بن الفارض » وغيرهم رضوان الله عليهم ، ولاعجابه ـ بصفة خاصة ـ بالبدوى لقب نفسه « بالأحمدى » و « زار قبره أكثر من مرة وأدخله فى عداد كبار الصوفية ، واتصل به في رؤاه ، وفي احدى هذه الرؤى وصف « أحمد البدوى » « الشعرانى » بأنه من كبار المريدين للبدوى (٢) ٠

---

(١) هدية العارفين ، والمناقب الكبرى ٠

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة أحمد البدوى وكتاب السيد أحمد البدوى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٧٧ ٠

ثمار العلم والمعرفة :

كان لابد أن تؤتي هذه المجاهدات العلميـــة والروحية أكلها وتخرج شطأها ، وقد ظهر ذلك في تلك الالهامات الغزيرة والنتاج العلمي الوافر الذى تزخر به المكتبات العربية والأجنبيـــة ما بين مطبوع ومخطوط يشهد له بعلو الباع وحدة النظر وغزارة العـــلم وصفاء الروح ، فلقد أربت مؤلفاته على ثلاثمائة مؤلف وذكر كتاب « المناقب الكبرى » ما يزيد على مائة منها ، وأورد معجم المطبوعات العربية بعض هذه المؤلفات وأشار الى مضمونها ، وكذلك أشـــارت كتب « الأعلام » و « هــــدية العارفين » و « كشـــف الظنون » و « الخطط التوفيقية » و « معجم المؤلفين » و « شذرات الذهب » و « بروكلمان » وغيرها من المراجع الى بعض مؤلفاته ، ولا يوجد مرجع منها الا وهو يثنى عليه ثناء مستطابا ويذكر براعته الفائقة ويعرض بعض نتاجه كنموذج صادق لما تحلت به عقليته من حركة صاخبة لا تفتر ولما امتازت به هذه العقلية من تحرر لا يعرف الجمود.

تصوف الشعراني :

وتصوف الشعرانى تصوف حقيقي مبني على هدى وبصيرة ، ومشيد على أسس متينة من الكتاب والسنة ، فهما العماد الذى يبنى عليه كافة مجاهداته وأذواقه ، والمتتبع لحياته والمطلع على كتبـــه وتآليفه يدرك هذه الحقيقة الواضحة .

لقد برز « الشعرانى » فى عصر غلب عليه أدعياء التصوف ، ووصموا دعوته بوصمة عار شـــوهت معالمه ورســـمت صورة غير صادقة لهذا المنزع الروحى المشرق .

يبدو ذلك واضحا فى نعيه على ما وصل اليه شيوخ التصوف فى النصف الثانى من القرن العاشر ، والذى نرى صورة منهم فى كتابه « تنبيه المغترين » حيث أوضـــح لنا فيه أن أخلاق الصوفية

الحقيقيين متلازمة مع ما يدعو اليه الشرع الشريف ، وليس لهم خروج عنه ، وأن حقيقة الصوفى : عالم عمل بعلمه على وجه الاخلاص ، وأنه قد أدرك كثيرا من الشيوخ فى النصف الأول من هذا القرن الذين خلا تصوفهم من أى مظهر من مظاهر الابتداع أو الادعاء وقد قدرهم بنحو مائة شيخ ، كانوا جميعهم على قدم عظيمة فى الزهد والورع وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن استعمالها فى شىء مما نهاهم الله عنه ، وكان مريدوهم على قدمهم لم تسمح نفس واحد منهم بالسفر من أجل الدنيا ، كانوا جميعهم ـ شيوخا ومريدين على حد تعبيره ـ يستسقى بهم الغيث ، بعكس من جاء بعدهم فى النصف الثانى من القرن العاشر الذين غلبت عليهم الدعوى ، قصارى جهد الواحد منهم تلقف بعض كلمات عن الفنـاء والبقـاء أو غيرها من كلام الصوفية دون تحقق وذوق ومشاهدة ولا استشهاد عليها من كتاب أو سنة ، ثم « يلبس جبته ويرخى عذبة ويطلق لحية » ويسيح فى الأرض وربما تكلف السـفر الى بلاد الروم وأظهر الصـمت والجوع ، فيطلب مرتبا أو مسموحا ويتوسـل فى ذلك بالوزراء والأمراء ، ونتيجة ذلك كله سقوطـذلك الشخص وغيره ومن انتمى الى التصوف عامة من أعين المقصودين ، بعد أن كان الصوفية ملء العيون والأسماع ينظر اليهم الحكام بعين الاكبار والاعجاب .

مبنى التصوف فى رأى « الشعرانى » ـ اذن ـ على العـلم والعمل ، وتصوف بلا علم مبنى على غير أساس ، وقد قصده مرة شيخ له أتباع كثيرون ، وجعل يتحدث أمامه فى كلام القوم ـ فسأله « الشعرانى » عن شروط الوضوء فلم يحر جوابا ، فوبخه على جهله ، وأظهر له أنه مسئول عن كل هؤلاء الذين يسيرون وراءه ، فهـو راع وكل راع مسئول عن رعيتـه ، ومقتضى للرعـاية أن يبين لهم أمور دينهم وحدود شرعهم ، فذلك هو الأساس الذى تدور عليه العبادة والمعرفة ، ولا معرفة بدون أساس .

تصوف « الشعراني » تصوف بصير بأصول وقواعد لا يخرج عنها ، هذه الأصول والقواعد هي الكتاب والسنة ، وهما منار الشرع الحنيف ، ويظهر ذلك في كل ما كتبه من وصايا وعهود ، وما ذكره في مختلف كتبه التي يوضح فيها آراءه في التصوف ، وما يجب أن يتحلى به المتصوف من آداب وأخلاق يرى أن الخروج عنها خروج عن آداب التصوف . ولذلك نراه يلتزم في تعبيراته بما يطابق الكتاب والسنة والاجماع . وينبه في جميع مؤلفاته الى الخطأ الذي يدسه عليه خصومه والمفترون عليه ، ويتوسل الى القراء أن يصلحوا كل خطأ يجدونه من ذلك ، ونراه يلتمس التأويلات المختلفة المطابقة للكتاب والسنة لجميع أقوال الصوفية السابقين المشهود لهم بالدراية والمعرفة من أمثال « البسطامي وابن عربي وابن الفارض » وغيرهم، فهو يوجه مثلا قول « أبي يزيد البسطامي » : ملكي أعظم من ملكك، الى معنى : طاعتك لي يارب باستجابة دعائي أعظم من طاعتي لك في امتثال أمرك ، لأنك عظيم وأنا حقير وأنت سيد وأنا عبد .

ويوجه قول « الجنيد » : العارفون لا يموتون وانما ينقلون من دار الى دار - الى معنى : أنهم لما جاهدوا أنفسهم حتى ماتت شهواتهم حييت قلوبهم ، فلما جاءهم الموت المعروف فكأنهم لم يموتوا لسهولة طلوع روحهم ، اذ ليس لها علاقة بالدنيا يلتفتون اليها .. وهكذا ..

فهؤلاء الصوفية صادقون وعباراتهم التي قالوها انما تمت بناء على ذوق عال أو شهود كلي لا تتعارض مع مفهوم الكتاب والسنة لأن التصوف في حقيقته كذلك .

و « الشعراني » كغيره من الصوفية يرى أن هناك شريعة وحقيقة أو ظاهرا وباطنا ، ولكن لا تناقض بينهما فالشريعة أصل الحقيقة ، أو الحقيقة لب الشريعة وجوهرها ، وفي ذلك يقول

« الشعرانى » معرفا التصوف فى مقدمة « الطبقات الكبرى » : علم التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسـنة ، فكل من عمل انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها ٠٠ لكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفـرع من عين الشريعة الا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ الغاية ٠

ويقصد « الشعرانى » من علم التصوف الحقيقة التى يدركها المتصوف كثمرة من ثمار جهاده على ضوء الكتاب والسنة ، ومن خلال ما مر وما يمر من آثار « الشعرانى » يمكن أن ندرك مدار التصوف فى رأيه الذى لا يخرج اطلاقا عن التحلى بالأخلاق الفاضلة والتخلى عن الصفات المذمومة فى ضوء تعاليم الشرع الحنيف ٠

مآخذ والرد عليها :

ولكن هناك بعض انطباعات تبدو فى كتب « الشعرانى » اذا نظرنا اليها نحن بمنظار العصر الذى نعيش فيه نجدها مجافية له ، ومن ثم فان بعض المؤرخين يقولون عنه : انه كان يؤمن بالخرافات والأساطير ، ومن ذلك ايمانه الذى لا حد له بالكرامات ، وحديثه عن الجان حديثا يبدو معه تشخصهم له وتحدثهم اليه واختلاطهم به ، وقد اتخذوا من ذلك وسيلة للغض من منزلته والحط من قدره ٠

والكرامة ليس لنا أن ننقضها فقد سبق الاشارة الى ذلك ، وهى موضوع طال الجدل حوله وكثر الكلام فيه ، وليس هناك من قول زائد عليه الا أنه أمر لا يصدقه المعاند الا بالمشاهدة ، فلينتظر حتى يمن الله عليه بمن يريه عيانا ما يذهب عن قلبـه داء المكابرة والعناد ٠

أما الجان فالايمان بوجودهم جزء من العقيدة الاسلامية ، وحديث « الشعراني » عن محادثتهم له لا يدخـل في باب الاستغراب ، اذا أدركنا أن كثيرا من علماء الأرواح في العصر الحديث ذكر امكانيـة الاتصال بالجان وتسخيرهم ، كما تحدث عن كثير من ألوان أذاهم الذي يلحقون به البشر ، وهناك ألوان من الأمراض الخبيثـــة التي استعصى علاجها على أشهر الأطباء يرجع سببها الى عوارض خفية ينصح كثير منهم بالالتجاء الى وسائل أخرى أهمها البحث عن أحد الصادقين الذين أعطاهم الله قوة روحية خاصة في القضاء على مثل هذه الأعراض (١) ٠

ولقد أثار هذه الثائرة ضد « الشعراني » ما كان يتحدث به من أن الجن كانوا يحضرون حلقات دروسه وأنهم في بعض الأحيان يعابثونه ويزعجون أولاده ، وقد دخل مرة في حمام فنزل معه جان تمكن « الشعراني » من الركوب فوقه حتى أزهق روحه ونجا الحمام ومن كان يدخله بعد ذلك من أذى هذا الجان المشاكس ، ومن أن الجن أرسلوا مع زعيم لهم جاءه على صورة كلب أصفر وقفز من نافذة غرفته أسئلة يجيب عنها ، فأجاب عنها في كتاب عنوانه : كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان (٢) ٠

ولكن هل كان « الشعراني » بدعا في ذلك ؟

ان محادثة الجن ومخاطبته أمر ثابت بالأدلة النقلية الصحيحة ، وقد ثبت أن كثيرا من الصحابة رأوا الجن وحادثوهم كما حادثهم النبي صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) راجع كتاب عالم الجن والملائكة للأستاذ عبد الرازق نوفل وكتاب معجزات العلاج الروحي تاليف جودري وين ٠

(٢) الكتاب مطبوع في مصر سنة ١٣٤٧هـ بمطبعة حجازي نشر وتصحيح وتحقيق محمد عبد الله عبد الرازق في ١٦٨ صفحة ٠

ألم يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خاطب الجن وكلمهم وأرسل اليهم ومنهم من آمن به ومنهم من كفر ؟

ألم يكونوا يستمعون القرآن وينصتون اليه ويقولون : انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ؟

ألم يقل القرآن بعد ذلك : وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ؟

ألم يرد فى الأحاديث الصحيحة أن النبى وصحابته ورد عنهم أنهم خاطبوا الجن وشاهدوهم ، ومن بعد ذلك جاء كثير من التابعين وتابعى التابعين والفقهاء الذين لم ينكروا امكان اتصال الناس بالجن والتحادث معهم ؟ وقد تناول ذلك الموضوع المرحوم طه عبد الباقى سرور فى كتابه عن الشعرانى وكان من رده على المعارضين قوله :

« بل ان الفقهاء قد وضعوا لصلات الجن بالانسان قواعد فقهية ، وصلت الى حد أن تناول الفقهاء أحكام الزواج المختلط بين الانسان والجان ، جاء فى حاشية « ابن عابدين » كتاب النكاح : أن الحسن البصرى أجاز التزوج بجنية دون العكس ، وجاء فى كتاب « أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب » أن الدجال أحد أبويه جنى » (١) .

ورؤية الانسان للجن ليست أمرا خارقا لأنها قد تحدث للانسان العادى ، وبعض الناس شاهدوا ذلك ، والقصص فى ذلك متواترة ، وما زالت الحوادث الغريبة التى نقرؤها ونسمعها ويشاهدها الكثير منا تصدق ما كان يحكيه « الشعرانى » من أحاديث حول الجان ، وهو فى حديثه فوق مستوى الشبهات ، وقد وصل

---

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ١٥٧ . وراجع دائرة المعارف الاسلامية مادة (جن) .

بصفاء روحه الى ما يمكنه من اختراق الحجب ورؤية ما وراء الحس، فان لم يمكنه رؤية الجان من باب الأمور العامة التى تحدث لبعض الناس أمكنه رؤيتهم من باب خرق العادة والكرامة التى يكرم الله بها كثيرا من عباده الصالحين ·

وهناك بعض قضايا أثيرت حول بعض آرائه · من ذلك مثلا ما يقال من أن « الشعرانى » كان له أثر فى اطفاء وقدة الحماسة فى طلب العلم بتقييده الاطـلاع والاختلاط ووقوفه فى وجه طلاقة العقل فى تأويل النصوص المقدسة ·

هذا ما يثار · وعلينا أولا أن نتبين روح العصر الذى كان يعيش فيه « الشعرانى » ثم نحكم عليه من خلال ذلك ، وقد سبق الاشارة الى أن الحكم على الأشـــخاص يجب أن يكون من خلال الظروف والأحوال والعصور التى يعيشون فيها ، وقد أثار المرحوم « العقاد » فى كتابه عبقرية عمر هذه القضية حين أوضح أنه يجب أن نحكم على أبناء العصـــور الغابرة بمقاييس زمانهم ، فليسوا مطالبين بأن يشبهونا ولا أن يعملوا ما يوافقنا ويرضينا ، فاذا كانوا قدوة فى عصورهم فهم قدوة لكل جيل بعدهم ، ولا حاجة بهم الى أن يشقوا حجاب الغيب ليقتدوا بنا ·

هـذه الملحوظة خفيت على كثير من النقـــاد فعـابوا على « الشعرانى » ـ كما عابوا على غيره من أئمة العصور الماضية ـ ما عابوه ، وأثاروا ذلك التساؤل الذى أشرنا اليه · وعلينا بعد ذلك مناقشته :

هل أطفأ « الشعرانى » وقدة الحماســـة فى طلب العلم حقا ؟

و « الشعرانى » فى الحقيقة لم يفعل ذلك ، ولكنه كان معلما وأستاذا ، وهو صاحب مدرسة ظلت تؤدى رسالتها حتى آخر نفس فى حياته ، واستمرت بعد موته تقوم بهذه الرسالة

فترة طويلة من الزمن ٠ انه يـذكر فى كتـاب « لواقح الأنوار القدسية » أن من العهود المحمدية التي أخذت عليه مطالعة كتب العلم وتعليمة للناس ، وأن يكون طلب العلم على وجه الاخلاص ، فان ذلك أفضل من صلاة النافلة ، ويتصل بذلك كتابة الأحاديث الشريفة وابلاغها الى الأماكن التى لا تبلغها ، وفى هذا اذاعة للعلم ونشره ، كمـا يرى أن من العهود عليه اكرام العلماء وتقديرهم ومكافآتهم ٠

الا أنه كان يدعو الى العمـل بالعلم ـ وهذا أمر ضرورى فى نظره ـ واذا لم يتمكن العالم من العمل بعلمه فلا أقل من أن يدل عليه من يعمل به وهذا من أضعف الايمـان ، وكان لا يفتأ يكرر هذه الدعوة فى مختلف مؤلفاته ٠

كان يحرص على أن يهذب الجوانب الروحية فى تلاميذه لأن ذلك طريق الى تحقيق الكمال فى الدنيا والآخرة ، وكان يوفر لهم فى ذلك الزاد الذى يصـعد بهممهم ويقضى على فتورهم ، ولم يكن يحجر عليهم أن يسلكوا كل طريق موصل الى هذه الغاية بما فى ذلك الاطلاع على كافة العلوم ، الا أنه كان يخشى على الكثير منهـم الانحراف فى المزالق التى توجد فى بعض الكتب من أمثال كتب « محيى الدين وعبد الحق بن سبعين » فحجر على هؤلاء أن يطلعوا عليها لبعد مراميها ولأنها لا تتناسب مع أفهامهم وعقولهم ٠ وتلك سياسة تربوية حكيمة فليس من المعقول أن يسمح للمريد فى بدء سلوكه أن يقرأ ثمرة المعارف قبل أن يقرأ واجبات المريد وآداب الطريق وأمثال ذلك مما يتناسب مع أحوالهم فى أول مدارجهم ٠

وللغاية نفسها منعهم من الاختلاط بغيرهم حتى لا يفسد ذلك الجو الذى هيأه لهم فى طلب الكمال ، لقد كانت الحياة من حول الزاوية تموج بمختلف الفتن والمفاسـد ، ومجـاورو الزوايـا الأخرى لم يكونوا يسلمون مما حشى به التصـوف من خـرافات

وأوهام • وهو له ذوق خاص فى تربيته ، فكيف يسمح لهم بهدم ما يبنيه لهم من أمجاد ؟

أما وقوفه في وجه اطلاق عقولهم لتأويل النصوص المقدسة فقد أراد أن يغلق بذلك باب الفتنة التي توشك أن تطل برأسها من وراء هذا التأويل ، لقد كان « الشعرانى » يحترم احتراما كليا السلف الصالح ، ويرى السلامة كل السلامة فى اتباعهم ، والشر كل الشر فى الابتداع ، ولقد حاول فى حيـــاته أن يؤلف بين أشتات الآراء المتضاربة فكيف يسمح بالجديد الذى لا يسلم من الخطأ والانحراف ؟

ان التأويل والاجتهـــاد لا يتم الا لمن كملت روحه وصفت نفسه وأطلعه الله على مكنون علمه فهذا هو الذى يتحمل مسئولية النظر فى النصوص المقدسة ولا أعتقد أن « الشعرانى » وقف فى طريق من اجتمعت فيه هذه الشروط •

يكفى « الشـــعرانى » فخرا أنه لم يقف فى وجه الفلسفة ـ بمعنى أنه لم يتنكر لها ولم يهاجمها ـ ولكنه كان يناقش آراء الفلاسفة ـ وان كان لا يدعو الى تعلم علومهم ـ محتذيا فى ذلك حذو أستاذه « محيى الدين بن عربى » والفلسفة وان كانت قد ضعفت فى العصـــور الأخيرة وأصابهـــا ما يشبه الشلل فى القرن العاشر الذى أظل « الشعرانى » الا أن ذلك لم يمنعه من أن تكون له العقلية المنطلقة التى تتمتع بالحيوية والنشاط ، ولا تقف عند حدود القديم ، ولعل ذلك سر خصـــومة كثير من الفقهاء ومن المتصوفة أنفسهم له •

ويزداد فخره حين ندرك أنه قام بمجهود ضخم فى تنقية الجو الصوفى والعقلية الصوفية مما لصق بها من كثير من الخرافات والأوهام ، ومما طبع فيها من كثير من أنماط السلوك التى شابت

التصوف وشوهت معالمه ، والذى يفعل ذلك لا يقولون عنه : انه ساهم فى الشلل الذى قيد الحياة العقلية بعد انتصار أهل السنة على المشتغلين بالفلسفة والنظر العقلى ٠

ان « الشعرانى » يعده بعض المفكرين من أئمة الاجتهاد ٠ بل أطلقوا عليه مجدد القرن العاشر ، ومن كان كذلك لا يكون مساهما فى اطفاء وقدة الحماسة فى طلب العلم ، وما فعله فى التوفيق بين المذاهب والكتب التى ألفها فى ذلك تكفل له ـ عن جدارة ـ التمتع بهذا اللقب، ومن الظلم البين أن نحمل «الشعرانى» جريرة فتور الهمة العلمية فى قرن سرى فيه الجمود والتخلف الى جميع المرافق الفنية والعلمية وقضى الاستعمار التركى على كثير من وجوه النشاط المختلفة فى البلاد ٠

وقضية أخرى تثار ، تقول : ان « الشعرانى » كان متناقضا فى آرائه ، فهو يدعو الى علم الظاهر ، ثم ينفر عنه ٠ يدعو الى الزهد ثم يحث على العمل ٠ يدعو الى مجاهدة الأعداء ولكنه يدعو الى محبة الأعداء ٠

والحقيقة أنه لا تناقض فى هذه الآراء ٠

ليس هناك تناقض بين علم الظاهر وعلم الباطن ٠ هما وجهان لحقيقة واحدة ٠

ولقد كان « الشعرانى » ينكر التصوف مع الجهل ، دعا الى طلب العلم والفناء فيه ، ولكنه الى جانب ذلك دعا الى عدم الوقوف عندما يحصله العالم من علمه ، ان زينة العلم العمل ، والعمل هو الثمرة المطلوبة للعلم والا كان العلم وبالا على صاحبه :

فعـــالم بعلمـــه لم يعملن
معـذب قبـــل عبـاد الوثن

فهو لا ينفر من العلم الظاهر ولكنه يدعو الى أن يكون هذا العلم وسيلة الى ما يجب أن يستنبطه الانسان من وراء هذا العلم من أسرار لا تحصل الا عن طريق الوهب والالهام بعد أن يعمل بعلمه فيورثه الله علم مالم يعلم ، والعلم فى نظر « الشعرانى » ثلاثة أنواع :

علم العقل وطريقه التأمل والنظر والاطلاع ، وعلم الأحوال وطريقه الذوق ، وعلم الأسرار وطريقه الالهام · وكل علم من هذه العلوم له علامة ·

وعلامة علم العقل كلما بسطت عبارته حسن وفهم معناه وعذب عند السامع الفهيم ·

وعلامة علم الأحوال ان كان مكتسبا أن يدخل فى ميزان العقول ، وان كان موهوبا لا تقبله العقول غالبا ·

وعلم الأسرر علامته أنه ان أخذته العبارة يسمج ويبعد دركه عن الأفهام ، وربما رمى صاحبه بالكفر والمروق من الدين كما ورد عن على بن الحسين رضى الله عنهما :

يارب جوهر علم لو أبوح به
لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال المسلمين دمى
يرون أقبح ما يأتونه حسنا (١)

ولا يشترط فى علم الأسرار التعلم ولكنه يشترط فيه مجاهدة النفس ووساوس الشيطان تحت اشراف شيخ بصير عالم خبير بمفاوز الطريق وعقباتها وكيفية التغلب عليها ، وقد يكون

---

(١) اليواقيت والجواهر ص ٢١ ·

هذا الشيخ دون المريد فى العلوم الظاهرة ، ولكنه لا بد أن يفوقه فى العلم بالله والعلم بمواطن الآخرة ·

فهو ــ اذن ــ لا ينفر من العلم الظاهر ولكنه يدعو الى تحقيق الغاية المثلى منه ، والغاية المثلى هى احيـــاء الروح الحياة التى لا موت للقلب بعدها على نحو ما كان يشير به دائما صفيه وخليله « البهلول » فى لقاءاته المتعددة ·

الا أن هناك ملاحظة تبدو للعيـــان هى أن العلم فى بعض الأحيـان يقف فى طريق العالم عن الوصـول الى الغاية الروحية المطلوبة متى اغتر العالم بعلمه ووقف عنده ، وتصور أنه وصل الى نهاية الكمال · فاغتراره حين ذلك هو الذى يضع حجابا كثيفا يحول بينه وبين الرؤية الحقيقية المبصرة ، فالعلم بحر لا ساحل له ، وحقائق المعرفة لا يمكن لكائن أن يحيط بها مهما أوفى على الغاية فى فنه ووصل الى النهاية فى علمه ، والرجل عالم مازال يطلب العلم فمتى اعتقد أنه علم فقد جهل ، ومن أجل ذلك كان التواضـــع ميزة فى العالم أكمل منهـا فى غيره ، لأن تواضعه عن معرفة كاملة وتحقق تام بالعجز الذى يرفع من شأنه ويعلى من قدره · وعصر « الشعرانى » كان غاصا بعلماء تصوروا أنهم أربوا على الغاية وجاوزوا قدر التعلم واعتقدوا أنهم أدركوا كل حقائقه، وهؤلاء هم الذين وجه خطابه اليهم محذرا لهم من عاقبة هذا الغرور وموجها اياهم الى أمثل الطرق للاســـتفادة من العلم والانتفاع بثمـاره ، ومبينا لهم أن ما خفى عليهم من العـلوم أجل وأروع مما عرفوه ·

وفى دعوته الى الزهد حث على العمل ·

فليس من لوازم الزهد القعود عن العمـل ، فالزهد متى كان عن قدرة كان أدعى الى الكمال ، وزهد الضعفاء زهد قاصر لا يسمى

زهدا ، ولكن حقيقة الزهد أن يكون الانسان مالكا لما يزهد فيه ، ولا معنى لأن يزهد فيما لا يملك ٠

ومدعى الزهد ـ قبل أن يصبح الشىء فى يده ـ هل اختبر نفسه بعد أن امتلكه ؟ هل استطاع أن يعف عنه ؟

ان الزهد قبـل القدرة والامتلاك زهد مزعوم كثيرا ما تكذب صاحبه شواهد الامتحان ٠

أما الأعداء الذين يدعو الشعرانى الى محاربتهم فهم أعداء الدين الذين تجب محاربتهم بنص الشريعة ومقتضى أوامر الاسلام، والأعداء الذين يدعو الى محبتهم فأولئك الذين يدخلون فى نطاق قوله تعـالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » ٠ أولئك الذين تجمعنا بهم أواصر دين أو قرابة أو جـوار أو مواطنة ٠ ويحدث بينهم تضاغن وتظالم يدعو الى الانتصار « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » هؤلاء هم الذين يدعو « الشعرانى » الى محبتهم استجابة لدعوة الأنبياء والقرآن الى ذلك « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » واذن فلا تنـاقض بين دعـوتى المحاربة والمحبة عند « الشعرانى » ، كما أنه لا يوجد تناقض فى أى جانب قد يفهم منه ذلك ، اذا ما أمكننا أن نتفهم الظروف التى أحاطت بالرأيين أو الدعوتين أو القولين ٠

فاذا ما عرفنا ذلك وجب علينـــا أن نقـدم بعض أذواق « الشـــعرانى » وآرائه التى اســتفاد منها المريدون وتعلم منها العالمون :

أذواق وآراء :

الشيخ فى نظر الشعرانى : ورد فى كتاب «آداب العبودية» لا بد للمريد من اتخاذ شيخ يكون له قدوة ، ويسترشد به فى

طريقه ويتلقن عنه الذكر ، ولكثرة المدعين فى هذا الباب فى زمانه وضع لهذا الشيخ شروطا صاغها فى أسلوب نير ، وأيدها بما يتلاءم معها من قصص وآثار • ومن هذه الشروط •

ـ ألا يدخل فى طريق القوم الا بعد تضلعه فى علوم الشريعة والحديث ، والا فيخاف عليه الزندقة والابتداع وتعليل ذلك أنه كثيرا ما ينفتح أمام السالك أمور منها : لا فاعل الا الله، ولا ملك الا لله ، ولا موجود الا الله ، وهذا وان كان حقا الا ان الميزان الشرعى يزن الأمور ويوجه الأحكام ويقر النظم فلا يخرج السالك عن حدود الشرع رغم شهوده ذلك (١) •

ـ وعليه أيضا أن يقرأ شيئا من عقائد أهل السنة قبل دخوله الطريق ليصح اعتقاده مما يتوهمه البعض من التشبيه والجسمية (٢) ، ولا يطلع الا على كلام الكمل من الأولياء الذين لاينقض ظاهرهم باطنهم (٣) •

وعليه أن يطالب نفسه بحقوق الخلق ولا يطالب الخلق بحقوق نفسه (٤) •

ـ ومن شأن الشيخ التواضع وعدم التميز عن غيره من الخلق بخلق غريب يعرف به الا أن يكون مغلوبا (٥) •

ـ ولا بد للشيخ من أن ينزل الناس منازلهم ولا يتبع التقليد فى ذلك ، بل يكون يقظا ، فأعظم الناس حرمة وأحقهم بالتعظيم أكثرهم اتباعا للنبى صلى الله عليه وسلم (٦) •

---

(١) البحر المورد ص ١٢٣ •

(٢) البحر المورود ج ١ ص ١٢٣ •

(٣) ص ١٢٤ • (٤) ١٢٥ • (٥) ١٢٧ • (٦) ص ١٢٩ •

ـ وعليه أن يتحمل الأذى عنهم ومن جميع الخلق ويشهد ذلك من رحمة الله به ونعمته عليه حتى لا يركن الى سواه لا سيما فى ابتداء أمر الفقير ، ويستشهد « الشـــعرانى » فى ذلك بقول « الشاذلى » رضى الله عنه : جرت عادة الحق سبحانه وتعالى مع أنبيائه وأصفيائه أن يسلط عليهم الأذى فى مبتدأ أمرهم ثم تكون الدولة لهم آخرا (١) .

ـ ومن شأنه أنه اذا أمر بشىء من الأدب أو نهى عنه ولم يتمثل المأمور أو المنهى ذلك لا يتكدر عليه اقتداء بالانبياء الذين ورد فى حقهم « وما على الرسول الا البلاغ » . وشهود الشعرانى فى ذلك : قال تعالى « ثم تاب عليهم ليتوبوا » فما دام الحق تعالى يخلق المعصية للعبد لا يمكنه أن يتوب ، فاذا ترك الحق تعالى خلق المعصية للعبد تاب العبد ضرورة ، ولذلك كانت رحمة الله تعالى يوم القيامة اذا استوفى أهل الحق حقوقهم لعلمه تعالى بأنه هو الذى أنطق ألسنتهم بما قالوه ، وخلق فى نفوسهم ما تخيلوه ، فسبحانه من حكم عدل لطيف خبير يفعل ما يشـــاء ولا يسأل عما يفعل (٢) .

ـ ومن شروطه لا يرى لنفسه ضرا ولا نفعا لأحد دون الله تعالى ، ولا يشهد لنفسه فضلا فى هدايتهم وألا يغتر بالشهرة وبعد الصيت فيترك العمل اتكالا على ذلك كما يحدث من بعض المغترين من الشيوخ (٣) .

ـ وعليه أن يعتمد فى ارشاده على ما يلقيه الحق فى قلبه فيعطى كل شخص من مريديه ما يقبله استعداده (٤) .

---

(١) ص ١٣٠ .

(٢) ص ١٣٧ . (٣) ص ١٤١ . (٤) ص ١٥٠ .

– وعليه أن يحذر من الألفـاظ التي يفيد ظاهرها الدعوى وتزكية النفس مثـل : نحن ما بقينا ناسـا الا من حين اجتمعنا بالشيخ الفلاني ، أو مثل : الكشف انما يقع للناقصين ، والكاملون لا كشف لهم (١) .

– ومن آداب الشيخ ألا يظهر تكلفا زائدا على حالته التي يكون عليهـا منفـردا اذا طرقه زائر ، ويستشهد على ذلك بقول « الفضيل بن عياض » : لو دخل على شخص وسويت لحيتي بيدي لدخوله لخفت أن أكتب عند الله من المنافقين (٢) .

– ومن شروطه أن ينظـر في مصـالح اخوانه ويأمرهم بالحرفة وعمل اليد ولا يعطلهم بأخذهم معه في الولائم ولو طلبوا منه ذلك لأنهم قاصرون ، وكل ساعة تمر على العبد وهو في حرفته التي يعود منها نفع عليه وعلى عياله أفضل من حضور ألف وليمة معه لا يتعين عليه حضورها ، فالعارف من يسلك الناس وهم في حرفهم ، ولا يزال يحث على ذلك وعلى الورع عن الأكل من مال الغير ما أمكن (٣) .

– ومن شروطه أن يرفع همته عما بأيدي أصحابه من الدنيا ويخفي حاجته عنهم ما أمكن ايثارا لتجمل المشقة عنهم ، واقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، وليحذر التعريض بحاجته الى بعض الأمور ، وخاصة بحضرة الأغنياء . أما اذا كانت الحاجة للاخوان فلا بأس بذلك . و « الشعراني » يمتاز بالطرافة في أسلوبه حين يتحدث عن ذلك، ويستدل بما يجعل التأثير يأخذ طريقه الى القلوب بواسطة الأمثلة، فهو يقول : تناظر كلب السوق وكلب الصيد ، فقال كلب السوق

---

(١) ص ١٥٤ . (٢) ص ١٥٦ .
(٣) ص ١٦٠ .

لكلب الصيد : مالك لا تقنع مثلى بكسر المزابل وتستريح من مخالطة الملوك والأمراء ، وانى أراهم يعزونك ويكرمونك ، ويهينوننى ويطردوننى ؟

فقال كلب الصيد : أنا وان خالطتهم فانى معزوز مكروم لأنى انما اصطاد لغيرى وأنت لما كنت تصطاد لنفسك أهنت وطردت وحقرت (١) .

و « الشعرانى » بارع في ضرب الأمثال التى تعينه على نفاذ مرامى كلامه الى العقول والقلوب ، ومن نماذج ذلك غير ما تقدم قوله عن شيوخ زمانه :

وأعلم أن مثال من يفتح باب المشيخة الآن كالفقيه الذى فتح الكتاب قبيل الغروب وقعد ينتظر الأطفال ليجيئوه فيعلمهم ، لأننا الآن فى دهليز القيامة ، وقد خرج كل شيء عن موضوعه ، ووسد كل شيء الى غير أهله لقرب الساعة ، كما يشاهد ذلك من كشف الله تعالى عن بصيرته ، وانظر الى المركب اذا قربت البر بعد السفر كيف تطلق حبالها ورواجعها ويطوى قلعها ، وكذلك الحجاج اذا رجعوا من سفرهم وأشرفوا على أوطانهم ومتحط رحالهم كيف تشتت جمع قطورهم وينحل جميع نظامهم ، فطالب المشيخة الآن كمن يريد أن يجمع شمل الحجاج ويقطر قطرهم كما كانوا فى ابتداء سفرهم ، فيستخف الناس عقله ولا يساعده على ذلك أحد ولا يجيبه .. » (٢) .

و « الشعرانى » عقد لآداب الشيخ فصولا طوالا فى مختلف كتبه ، لأنه رأى ما يترتب عليهم من آثار ، فهم القدوة ، يصلح

---

(١) آداب العبودية جـ ٢ ص ١٢ .

(٢) ص ٦٢ .

بصلاحهم المريدون ويفسدون بفسادهم ، ولأنه رأى فى عصره من الشيوخ من لا ينهضون بواجبهم ولم يؤدوا رسالتهم وكان وجودهم مدعاة للافســاد لا للاصلاح ، فوجد أن من واجبه أن ينصح هؤلاء حتى ينجو التصوف مما لحق به على أيديهم ، وحتى يعود له شبابه ونضرته ، وحتى يسلم الدين من عواديهم ·

ولئن كان قد اعتنى بالشيخ فقد اعتنى أيضا بالمريد ورسم له طريقه الواضــحة التى اذا سار عليها صلح أمره وتم رشده ، ووضـــع له آدابا معينة عليه أن يتبعها ويتحلى بها من زهد وورع وخشية وملازمة للطاعة ومحافظة على الورد وخلوة وصمت وسهر وسياحة وعزلة وغير ذلك مما نجده مفصلا فى مواضعه المتعددة من كتبه الكثيرة ·

وهذه بعض آراء « للشعرانى » ·

يرى « الشعرانى » ضرورة العمل ، ويقول فى ذلك : ليس فى هذا الذى قررناه ترك للأمر بالعمل لأن ذلك لا يصح ، لأن قولنا للعبد : لا تصل ـ مثلا ـ لا يصح امتثاله الا ان سبق فى علم الله تعــالى أنه لا يصــلى ، ونؤاخذ بأمرنا بالمنــكر ، والأمر بالعمل باق على وجوبه فى كل وقت ، وكل شىء برز بعد الأمر أو النهى من الموافقة أو المخالفة وهو السابق فى علم الله تعالى فان العبد لا يعرف ما ســـبق له فى علم الله تعـــالى الا بعد وقوعه (١) ·

يرى أن الزهد لا ينافى مقامه التجارة والبيع والسفر فى أمور الدنيا الظاهرة ، لأن دنيا الزاهدين لآخرتهم وآخرتهم لربهم، وعلى ذلك يحمل أصحاب التجارات والأموال من الصحابة والسلف

---

(١) ص ١٠٦ · من المرجع السابق ·

الصالح ، واليه الاشارة بقوله تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » ولا ينافي هذا قوله تعالى في حقهم في آية أخرى « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » لأن المراد منكم من يريد الدنيا أي للآخرة بذلا وايثارا ، ومعكم من يريد الآخرة أي لفضل الجهاد لا غيره ولم يطلب غنيمة ولم يلتفت اليها ، فمن الصحابة الفاضل والأفضل ، والكامل والاكمل ، فاحذر أن تظن غير ذلك (١) • وقد أورد عن شيخه « الخواص » حين سأله عن الاحتراف قوله : من لا عمل له لا أجر له ، وأوضح ذلك القول بأن الأعمال والاكتساب مديرة للفلك وموجبة للأثر بحسب نيات من ظهر عنهم ، وكل من كان فعله أتقن وأكمل كان فعله أسرع دورانا للفلك وكان تضاعف الحسنات أكثر ، ومن كان تاركا للأسباب أصلا دار الفلك بنصيب غيره ولم يحصل له شيء من الأمداد لكونه لم يعمل شيئا (٢) • وهذا فهم دقيق •

يرى أن « العلم » الظاهرى ضرورة لتعمير الحياة - بل يرى أنه وسيلة للتقرب الى الله عند أهل الحق ، ويقول في ذلك : ان أهل الحق يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة وعلوم الرياضيات والمنطق والعلم الطبيعي لها دلالة وطريق الى العلم بالله تعالى •

ويرد على من يرى في دراسة هذه العلوم حجبا عن الله فان الذى يشهد ذلك انما هو محجوب عن موضع الدلالة فيها عن الحق. فعلم أن جميع العلوم التى تحجب أكثر الناس هى عند أهل الله لا حجاب فيها (٣) • وهذا ذوق عال في الفهم وادراك لم يسبق اليه •

---

(١) آداب العبودية جـ ٢ ص ١١٣ •
(٢) درر الغواص ص ٣١ •
(٣) آداب العبودية جـ ١ ص ٩٦ •

الا أنه يرى الى جانب ذلك البدء فى تلقى العلوم بالأهم فالمهم، والأهم هو الذى يسأل عن تضييعه يوم القيامة ، وليس للعلم نهاية فى رأيه ، ولم يبلغ غايته بزحف الترك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة . كما فهم البعض ـ ولكنه رأى أن العلم ابتداء من ذلك العام قل مكثه فى القلوب فصارت تمجه ولا يجد له محلا فيها لانشغالها بالبلاء النازل عليها . وحقا ذلك فالعلم محتاج الى قلب فارغ وجنان ثابت واستقرار فى الحياة ، وقد بدأ فعلا نور العلم يخبو بدخول العثمانيين ، وشأنه يضمحل شيئا فشيئا حتى أذن الله بفجر النهضة الحديثة التي أنقذت البلاد من هاوية الجهل والفساد .

وللشعرانى رأى فى « الادخار » استفتى فيه شيخه الخواص الذى كان يحرص على استفتائه دائما ، وقد أجابه بأن المدخر ان كان على بصيرة بأن ما يدخره قوت له وحده أو قوت له ولعياله الذين تحت رعايته فالادخار لا بأس به ، أو اذا كان يوقن بأن ما يدخره ليس له أو كان على غير يقين بذلك فادخاره حينئذ راجع الى طبيعة الشح والامساك المركبة فى بعض النفوس . الا أن « الشعرانى » فى سلوكه كان يحقق الغاية المثلى من الادخار .

فالادخار يهدف الى أن يجد الانسان فى وقت الشدة ما يعينه على مواجهة الحياة ، فكان يدعو الى التصدق ويتصدق بما فاض عن حاجته ، ولا يدخر من ذلك شيئا الا لضرورة شرعية ، كان يطعم الطعام لكل وارد ولا يبخل به ، كان يمد يده بالمساعدة لكل محتاج ، وقضاء حوائج المسلمين وادخال السرور عليهم هو أقصى ما يهدف اليه الادخار .

والادخار موضوع اعتنى الصوفية بدراسته لاتصاله بالنفس البشرية التى عنوا باصلاحها ولدخوله ضمن رسالتهم التى وقفوا

جهدهم على أدائها ، وهم يرون دائما وجوب مخالفة النفس متى كانت تستكين الى الادخار عوقبت بتركه والا فلا غضاضة منه ، وهذا رأى الامام الغزالى الذى يقول : عمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخـار ، أما المعيل فلا يخرجه عن التوكل ادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم ، والادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، والتوكل اذا صح لا يضر معه الادخار (١) ٠

وكان « الشعرانى » فى أول أمره لا يستريح له بال حتى ينفق آخر درهم معه قبل أن يأوى الى بيته ، ولكنه عاد بعد ذلك ورأى ما يوجب أن يسـتبقى معه بعض المال ويدخر للمجاورين الذين يعيشـون تحت ظل زاويته ، ولم يكن ادخاره هذا ينافى توكله على الله وزهده فيما فى أيدى النـاس وايمانه الكامل بالقضاء والقدر ووثوقه فى كلأ الله ورعايته فى الضيق والشدة ٠

ويدخل فى باب الادخار دعوته الى الاقتصاد فى النفقة وعدم الاسراف فيهـا ، ويبدو ذلك فى العهد الذى أخذ عليه ويشير اليه بقوله : لا نوسع على أنفسنا وعيالنا وخدمنا كل الوسع بل نقتصد فى ذلك عملا بقوله تعالى « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ـ ويعلق على ذلك بقوله : فمن داوم التوسعة على نفسـه وعيـاله فقد فتح بذلك باب ازدراء النعم والجهل بمقدارها ، فان النعمة اذا كثر تداولهـا على أهل بيت ازدروها وتهاونوا بها ، وهنا فهم جليل لعدم الاسراف قل من يتنبه له ، فان عامة الداعين الى الادخار يفهمون منه المعنى الشائع الذى يدور حول مواجهة الحياة وأعبائها ، ولا يخفى تعارض ذلك مع قوة ثقة الصوفية بالله وتوكلهم عليه ٠

(١) راجع احياء علوم الدين للغزالى ص ٢٥٤٢ طبعة الشعب كتاب ١٤

ويرى « الشعرانى » أن « خـرقة التصوف » ليست مظهـرا بقدر ما هى اشارة الى التخلق بالخلق الكامل الموروث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا الفهم لبس « الخواص » الخرقة من شيخه « ابراهيم المتبولى » ولبسها « محيى الدين بن العربى » من الخضر عليه السـلام ، ولبسـها « الشعرانى » من شيخيه « جلال الدين السيوطى » ـ ويبدو أن ذلك كان رؤيا منامية ـ و « زكريا الأنصارى » رضى الله عنهما ٠

والخرقة هى وسام الصوفيـة التى يختلف مظهرها من شيخ الى شيخ ومن طريقة الى أخرى ، ولكنها تهدف جميعها الى معنى واحد هو التحلى بالأخلاق الكريمة والتخلى عن الأخلاق الذميمة ، والصوفية يرجعون نسبها الى النبى صلى الله عليه وسلم ويتبركون بذلك ٠

وما أشـبه الصـوفية فى تقليد مريديهم النابهين وسام التصوف الذى يظهر فى الخرقة بتقليد رؤساء الدول والزعماء النابهين من علماء الدولة وطلابها النياشين والأوسمة اعترافا لهم بالتفوق والنجـاح ٠ ويقول « الشعرانى » فى ذلك : لا تختص الخرقة بالطاقية وانما المراد بها الأثر ولو قميصا أو رداء أو جبة أو عمامة ، وفى الباسها للمريد أو خلعها عليه اشارة الى خلع العلوم والمعارف مع الأثر على المريد وامداده بهما ظاهرا وباطنا ٠

ولقد ظل « الشعرانى » محافظا على تقاليد الخرقة التى ورثها عن شيوخه من أهل الطريق وكان يمتاز بشمول نظرته التى وسعت طرقا متعددة اعترافا منه باتحاد الهدف من هذه الطرق واتحاد المنبع لها ، ولذلك فقد كان يجمع فى ذكره بين أذكار طرق مختلفة كالرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهامية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والمدينية والفردوسية ، ويرجع

ذلك الى مصاحبته شيوخا متعددين ينتسبون الى هده الطرق ، وكل منهم أباح له أن يهدى المريدين على طريقته ويلقنهم العهد عليهـا ولما ركب في طبعه من حب العمل على توحيد الصفوف وجد من نفسه الرغبة في التأليف بين هذه الطرق مادام المنبع واحدا والهدف واحدا • فما من طريقة من هذه الطرق الا ولها سـند متصـل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يرى من نفسه القدرة والأهلية لان يرشد أى فقير وينصحه كائنا من كان هذا الفقير ، بغض النظر عن انتسابه لأى طريقة من الطرق لأن الاذن بالارشاد مهيأ له من كافة الطرق المتعارفة في عهده •

ولداعية التأليف بين هذه الطرق أسس الطريقة «الشعراوية» التى نسبت اليه •

• أضواء على بعض مؤلفاته

اليواقيت والجواهر

كان هم « الشعراني » أن يوفق بين الآراء المتشعبة والأفكار المختلفة والمذاهب المتباينة وحاول بكل جهده أن يسد هذه الفرجة الواسعة التي رأبت صدع المسلمين وفتتت وحدتهم ، وأوجدت بينهم روح التضاغن والتطاحن ، ولذلك عكف على تأليف الكتب التي توحد بين آراء الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة والصوفيين ، ووضع في ذلك مؤلفات مختلفة من بينها كتاب « اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر » .

وبين في مقدمة الكتاب سبب تأليفه قائلا : هذا كتاب ألفته في العقائد حاولت فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتي . وذلك لأن المدار في العقائد على هاتين الطائفتين ، اذ الخلق كلهم قسمان : اما أهل نظر واستدلال ، واما أهل كشف وعيان ، وقد ألف كل من الطائفتين كتبا لأهل دائرته فربما ظن من لا غوص له في الشريعة أن كلام احدى الدائرتين مخالف للأخرى فقصدت في هذا الكتاب بيان وجه الجمع بينهما، ليتأيد كلام أهل كل دائرة بالأخرى ، وهذا أمر لم أر أحدا سبقني اليه فرحم الله تعالى من عذرني في العجز عن الوفاء بما حاولته والتزمته فان منازع الكلام دقيقة جدا » .

ويحتوى الكتاب على واحد وسبعين مبحثا تدور حول العقائد التي شغلت بال المتكلمين والصوفية ، وقد اختار « الشعراني »

الشيخ الأكبر « محيى الدين بن العربى » ممثلا للصوفية فى بيان عقائدهم فى هذه المباحث، وأوضح سبب اختياره له فى مقدمة الكتاب بأنه أوسع الصوفية عبارة ، ولا غرابة فى ذلك فقد أربت مؤلفاته على أربعمائة وخمسين مؤلفا ، واعتنى « الشعرانى » من بين هـــذه المؤلفات بكتاب « الفتوحات المكية » خاصة لأنه أجمع كتاب فى مؤلفاته يصور عقيدته •

وقد قدم لكتابه بتوضيح لعقيدته وبدفاع عن « محيى الدين بن العربى » موضحا فيه نبذة عن أحواله ، ومفسرا لبعض كلمات موهمة نسبت اليه • من ذلك مثلا : —

ينكرون على الشيخ قوله : « فيحمدنى وأحمده ، ويعبدنى وأعبده » ويجيب « الشعرانى » على فرض صحة ورود ذلك عنه : أن معنى يحمدنى : يشكرنى اذا أطعته كما فى قوله تعالى : اذكرونى أذكركم ، وأما قوله : فيعبدنى وأعبده أى يطيعنى باجابة دعائى كما فى قوله تعالى : لا تعبدوا الشيطان أى لا تطيعوه ، والا فليس أحد يعبد الشيطان كما يعبد الله •

ثم يعتذر « الشعرانى » فى كتابه عن الصوفية فى تكلمهم بالعبارات المغلقة على غيرهم قائلا : ان أصل دليل القوم فى رمزهم الأمور ما روى فى بعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأبى بكر : أتدرى يوم يوم ؟ فقال أبو بكر : نعم يا رسول الله ، لقد سألتنى عن يوم المقادير ، وقال له يوما : يا أبا بكر ، أتدرى ما أريد أن أقول : فقال : نعم ، هو ذاك • وهذا دليل نقلى على استحباب استعمال الرمز فى العبارة ، وهناك سبب آخر ذكره « ابن عربى » فى « الفتوحات » هو أن الصوفية لم يضعوا الاشارات التى اصطلحوا عليهــا فيما بينهم لأنفسهم ، فانهم يعلمون الحق الصريح لذلك ، وانمــا وضعوها منعا للدخيل بينهم حتى لا يعرف

ما هم فيه شفقة عليه أن يسمع شيئا لم يصل اليه فكره فينكره على أهل الله ، فيعاقب على حرمانه فلا يناله بعد ذلك أبدا • ويعقب « الشعراني » بأن كل طائفة لها اصطلاح فيما بينها لا يعرف الا بالتعلم والتلقين ، فيما عدا طائفة الصوفية فان اصطلاحاتهم التى وضعوها يكن أن يدركها المريد الصادق من غير تعلم ، أما المريد الكاذب فلا يمكن له معرفتها • هذا وما زال علماء الظاهر يتوقفون فى معرفة كلام الصوفية بدليل أن الامام « أحمد بن سريج » حضر يوما مجلس « الجنيد » فقيل له : ما فهمته من كلامه ؟ فقال : لا أدرى ، ولكنى أجد لكلامه صولة فى القلب ظاهرة تدل على عمل فى الباطن ، واخلاص فى الضمير ، وليس كلامه كلام مبطل •

ثم عقد فصلا أوضح فيه القواعد والضوابط التى يحتاج اليها من يريد التبحر فى علم الكلام ، وشيد هذه القواعد بما استفاده من كلام « ابن عربى » ـ مثل : كلام الله تعالى هو المصدر الأساسى لاستمداد العقيدة من غير تأويل ولا عدول الى أدلة أخرى من العقل مجردة عن الشرع ، فان القرآن دليل قطعى سمعى عقلى على معرفة الله سبحانه وتعالى ، ودعا العقلاء الى الاشتغال بالعلوم الشرعية فان فيها غنية عن علم الكلام لقيام الدين بها ، ولو أن الانسان مات وهو لم يعرف الكلام على الجوهر والعرض لم يسأله الله تعالى يوم القيامة عن ذلك •

وعلى الانسان عند الضرورة وجوب تجديد النظر فى الرد على منكرى الشرع ، ولا يلجأ الى الاستدلال بالأدلة الشرعية لأن هؤلاء ينكرونها ، ويوضح فى هذا الباب أن عين الشريعة هى عين الحقيقة ولا تعارض بينهما ، وموازين الأولياء المكملين لا تخطىء الشريعة أبدا فهم محفوظون من مخالفة الشريعة •

ثم بدأ بعد ذلك فى توضيح مباحثه فى الكتاب ، فيذكر رأى المتكلمين ، ويعقبه برأى الصوفية موضحا العلاقة بين الرأيين

ويبدو ذلك مثلا في المبحث الأول وعنوانه : بيان أن الله تعالى واحد أحد منفرد : ــ

« وجمهور المتكلمين يقولون : والواحد هو الذى لا ينقسم ولا يشبه ولا يكون لوجوده ابتداء ولا انتهاء ، اذ لو كان له ابتداء وانتهاء لكان حادثا والحادث يحتاج الى محدث ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ٠

كما يقولون : الآحاد أربعة ، الأول أحد لا يتحيز ولا ينقسم ولا يفتقر الى محل وهو البارى عز وجل ، والثانى أحد يتحيز وينقسم ويفتقر الى محل وهو الجسم ، والثالث أحد يتحيز ولا ينقسم ويفتقر الى محل وهو الجوهر ، والرابع أحد لا يتحيز ولا ينقسم ويفتقر الى محل وهو العرض ٠٠٠

وهذا لا يتنافى مع رأى الصوفية الذى يشير اليه بقول «محيى الدين بن عربى » : أعلم أن الله تعالى واحد باجماع ، ومقام الواحد تعالى أن يحل فيه شىء أو يحل هو فى شىء ، اذ الحقائق لا تتغير عن ذواتها فانها لو تغيرت لتغير الواحد فى نفسه ، وتغير الواحد تعالى فى نفسه وتغير الحقائق محال ، ويمضى باسطا الكلام فى هذا المبحث ، موضحا كل ما يتعلق بالأحدية ومستلزماتها عن طريق اثارة السؤال والجواب ، الذى هو أخص أسلوبه فى هذا الكتاب ٠ كأن يقول : فان قلت: فهل كون الحق تعالى لم يولد من خصائصه أم يشاركه فى ذلك خلقه ؟ فالجواب هو كما قاله « ابن عربى » ان عدم الولادة ليس خاصا بالحق تعالى فان آدم لم يولد ، لكن لما كانت الولادة معلومة عند السائلين خوطبوا بما هو معلوم عندهم ، ونزه الحق نفسه عن مجانسة خلقه ٠٠٠ وهكذا ٠ حتى ينتهى من مبحث الى آخر ٠

فهذا مبحث فى حدوث العالم ودليله فى رأى المتكلمين التغير والاستحالة وكل متغير حادث ، ودليله من كلام الصوفية قول محيى

الدين ابن عربى » فى مقدمة « الفتوحات » وأما من حيث ظهوره للخلق فهو حادث باجماع فمن قال انه قديم مطلقا أخطأ ٠

وهذا مبحث في وجوب معرفة الله تعالى على كل عبد بقدر وسعه

وهذا مبحث فى وجوب اعتقاد أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق وأنها ليست معلومة فى الدنيا لأحد ٠

وهذا مبحث فى وجوب اعتقاد أنه تعالى أحدث العالم كله من غير حاجة اليه ولا موجب أوجب ذلك عليه ٠

الى آخر هذه المباحث المتعددة التى يفصل فيها الكلام ويحاول أن يوفق فيها بين رأى المتكلمين والصوفية ، ويمحو الاختلاف بينهم ، ومن ذلك ما يستشهد به فى ختام المبحث الرابع من كلام الأستاذ « أبى اسحاق الاسفراييني » فى قوله : جميع ما قاله المتكلمون فى التوحيد قد جمعه أهل الحق فى كلمتين : الأولى اعتقاد أن كل ما تصور فى الأوهام فالله بخلافه ، الثانية اعتقاد أن ذاته تعالى ليست مشبهة بذات ولا معطلة عن الصفات ، وقد أكد ذلك قوله تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » ٠

وينتقل الكتاب من مباحث الألوهية الى مباحث النبوة ، فيتحدث عن معجزات الأنبياء والرسل ، والفرق بينها وبين السحر ونحوه كالشعبذة والكهانة ، وبيان استحالة المعجزة على يد الكاذب كالمسيح الدجال ، وذكر نقول المتكلمين والصوفية فى ذلك ، وتحرير مسألة ما كان معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى ، وختم الجزء الأول ببيان الحكمة من بعثة الرسل ٠

وفى الجزء الثانى من الكتاب تحدث عن عصمة الأنبياء وثبوت رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، والفرق بين الرسالة والنبوة ،

وتحدث عن الاسراء وصحته وتوابعه ، كما تحدث عن ختم رسالة النبى صلى الله عليه وسلم للرسالات وأنه مبعوث للخلق أجمعين ٠

وعقد مبحثا للولاية وما يتفرع عنها ، ومصطلحات الأولياء كالقطب والأفراد والأوتاد والأبدال والكرامات ٠

وعقد فى كتابه مباحث عن الذنوب وأنواعها والتوبة والغيبيات ووجوب الايمان بها وعلامات الساعة وما يحدث يوم الحشر والجنة والنــار ٠٠٠

وللشعرانى آراؤه فى هذا الكتاب ، فلا تلحق نهاية الولى بداية النبوة أبدا عنده ــ على خلاف ما نسبه البعض اليه عند الكتابة عنه ــ وهذا الرأى أيضا ثابت عنه فى مقدمة لطائف المنن حيث يقول : مقامات النبوة تبتدىء بعد انتهاء مقام الولاية ، فلا تشترك الولاية مع شىء من أجزاء النبوة ٠ وهو يقول فى اليواقيت والجواهر: ولو أن وليا تقدم الى العين التى يأخذ منها الأنبياء لاحترق وغاية أمر الأولياء أنهم يتعبدون بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم قبل النسخ عليهم وبعده ومتى ما خرجوا عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم هلكوا وانقطع عنهم الامداد فلا يمكنهم أن يستقلوا بالأخذ عن الله أبدا ٠

وأجساد محبى النبى صلى الله عليه وسلم لا يلحقها التحلل والفناء فى رأيه ، ويقصد بالمحبين الذين خالطت محبة النبى حشاشتهم حتى سرت فى أجسامهم سريان الماء فى العود ، ويأخذ هذا الحكم كذلك كل من أكل الحلال الصرف الذى لاتخالطه شبهة ، وقد شاهد ذلك بنفسه عمليا فى شيخه الشيخ « نور الدين الشونى » وفى جده الشيخ « على الأنصارى » حين رأى جسديهما كحالهما يوم دفنهما بعد سنوات طويلة جدا من وفاتهما ٠

ويتابع « الشعرانى » الصوفية فى آرائهم التى تقول : ان أكبر الأولياء بعد الصحابة رضوان الله عليهم هو القطب ، وهو رجل كامل متخلق بأحسن الصفات وأجملها ، يوفى الروحانية حقها كما يوفى الطبيعة حقها ، ولا تخلو الأرض من قطب اطلاقا ـ يحقق معنى الخلافة التى أراد الله أن يجعلها للانسان فى الأرض « انى جاعل فى الأرض خليفة » ـ واذا مات قطب حل محله غيره . لأن القطب هو محل نظر الله فى الأرض ، ويلى القطب الأوتاد والأبدال ، والأوتاد أربعة أولياء ، والأبدال سبعة وقد يكونون أكثر من ذلك .

كما يتابعهم فى أشراط الساعة التى يوافق على بعضها بعض المتكلمين ، ومن هذه الأشراط خروج المهدى والدجال ونزول عيسى ابن مريم وخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها وفتح سد يأجوج ومأجوج ورفع القرآن . وكل الآيات تقع فى المائة الأخيرة من اليوم الذى وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بقوله ان صلحت أمتى فلها يوم وان فسدت فلها نصف يوم ، يعنى من أيام الرب المشار اليها بقوله تعالى : وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . قال بعض العارفين وأول اليوم محسوب من وفاة على بن أبى طالب فان تلك المدة كانت من جملة أيام النبوة .

الا أنه فى هذا الكلام نظر لأن معناه أن القيامة لابد أن تكون قد قامت على هذا الفهم ، ولكن الأحرى أن يقال كما قال القرآن الكريم « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى لايجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والمهدى من ولد فاطمة رضى الله عنها يبايعه المسلمون بين الركن والمقام ، يشبه الرسـول في خلقه ولا يشبهه فى أخلاقه ــ وله صفات معينة ذكرها « الشعرانى » فى كتابه .

والكتاب حافل بالأسرار الطريفة والموضوعات القيمة التى يجد القارئ فيهـا زادا وافرا يعينه على دينه ودنياه ، ومطرز فى نهايته بتقريظات شعرية ونثرية بقلم علماء عصره وأدبائه .

و « الشعرانى » يجدر بهذه التقريظات لا سيما اذا أدركنا أن هذا السفر الضخم الذى يضم مجلدين ولخرين قد ألف فى دون شهر ، بالرغم من أن اعتماده فى تأليف الكتاب كله كان على مطالعة « الفتوحات المكية » التى تحتوى على ستين وخمسمائة باب فى عدة مجلدات ضخمة وكان يضطر فى كل مبحث الى مراجعة الكتاب كله ، فكم من المرات قرأ الفتوحـات فى هذه الفترة الوجيزة ؟ وكيف تسنى له كتابة مؤلفه هذا مع ذلك ؟ اللهم الا اذا كان هذا من قبيل الكرامات التى يمن الله بها على من يشاء من عباده فيبارك لهم فى أوقاتهـــم حتى ينجزون الكثير فى الوقت القصير . وقد رأينا فيما سبق أنه استطاع أن يطلع على « مدونة مالك » فى جزء يسير من الليل ويعلق على هوامشـها جميعها بمـا يفيد الاطـلاع والفهم ، وكان زبدة هذا التعليق تأليف كتاب له يسمى « مختصر مدونة مالك » وقد قال الشيخ « شهاب الدين بن الشلبى » عن كتـاب « اليواقيت والجواهر » : اجتمعنا على خلق كثير من أهل الطريق فلم نر أحدا منهم حام حول معانى هذا المؤلف .

ويقول شيخ الاسلام « الفتوحى الحنبلى » فيه : لا يقدح فى معانى هذا الكتاب الا معاند مرتاب أو جاحد كذاب ، كما لا يسعى فى تخطئة مؤلفة الا كل عار عن علم الكتـــاب حائد عن طريق

بالصواب ، وكما لا ينكر فضل مؤلفه الا كل غبي حسود أو جاهل جحود ·

وقال عنه « شهاب الدين الرملي » : هو كتاب لا ينكر فضله

وغير هذه الأقوال مما يدل على اعتراف كامل بفضل « الشعراني » الذى لا يخلو كتابه اطلاقا من فائدة · تعين العالم والمتعلم وبخاصة في الغيبيات التى يخفى أمرها على أغلب الناس وفى الاطلاع عليها فائدة جليلة لتنبيه الأذهان وتصحيح العزائم وتقوية الخواطر واصلاح النفوس وتهذيب القلوب · ولا يقدح في هذا الكتاب ما ورد فيه حول بعض الأمور الغيبية فانها من قبيل الاجتهاد وللمجتهد حظه من الفضل والتقدير ·

لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية

كان الباعث على تأليف هذا الكتاب ناحية نقدية عند « الشعراني » فهو كما يقول : رأى الاخوان يفتشون على ما نقص من دنياهم ولم ير أحدا منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه الا قليلا ، فدفعه ذلك الى تنبيههم على ما نقص من أمور دينهم حتى يعرفوا مالهم وما عليهم ويجتهدوا فى تلافى النقص وتحرى الكمال ·

وقد بنى « الشعراني » كتابه على قسمين رئيسيين · القسم الأول فيه بيان لما أخل الناس به من المأمورات ، والقسم الثاني فيه بيان لما أخل به الناس فى اجتناب المنهيات ·

وقد بدأ بالمأمورات رغم أن الواقعين في المحظورات أكثر جريا على الأصل فى الترتيب اذ المعروف أن الطاعات أصلية والمعاصى عارضة فالترتيب اذن طبيعي ·

و « الشعرانى » فى كتابه هذا صاحب بصيرة ثاقبـــة فى النقد ومعرفة أدواء المجتمع على غير ما اتهمه بعض المستشرقين من أن عقليته خلت من روح النقد ، والمتتبع لما جاء فى الكتاب يراه وقد تغلغل فى صميم المجتمع المصرى وعرف كل خباياه وأسراره فلم يغفل ناحية الا وكان له فيها حديث وتوجيه ٠

وقد اعتنى « الشعرانى » فى هذا الكتاب ــ بصفة خاصة ــ بمجتمع العلمـاء ومجتمع الصــوفية ونقدهما نقدا يدل على خبرة ودراية ٠

فمن ذلك مثلا ــ عند حديثه عن العهد الذى أخذ عليه بالزهد فى الدنيا والترغيب فى الايثـار والجود ٠٠ يفيض فى ضرورة الالتزام به من جانب العلماء والصوفية بصفة أخص نظرا لأنهم قدوة الناس فى هذا الشـأن ، ولذلك ينحى عليهم باللائمة قائلا : وهذا العهد قل العمل به بين الناس حتى العلماء ومشايخ الزوايا ــ فقد اكتفوا بالتوسعة على أنفسهم فى المطعم والملبس والمنكاح فهم يتزوجون من سراة النـاس وأغنيائهم ويفضـــلون الجميـــلات ويؤثرون أنفسهم بالطيبات فى كل شىء ، حتى انهم ليأنفون من ركوب سوى الخيل المطهمة ، وقد رأى بعض من يدعى الصـــلاح والفقر لا يريد ركوب الحمار ، ويقول : أنا أستحى فى مصر أن أركب حمارة وأمر بها فى الطريق مع أنه متعمم بالصوف وله عذبة وشعر (يقصد لحية) وكان هذا الشيخ يفتخر قائلا الدنيا فى يدنا لا فى قلبنا ٠ وفى مرة أرسل اليـــه « الشعرانى » فقيرا ضريرا معيلا يسأله شيئا فرده أقبح رد ، فقال له الضرير : فأين ــ اذن ــ ما ادعيته أمام فلان بأن الدنيا فى يدك لا فى قلبك ؟ فبهت الشيخ ولم يحر جوابا ٠

ويقص « الشعراني » قصة أخرى عن أحد هؤلاء الذين يدعون الصلاح والولاية والزهد من أنه جمع مالا كثيرا وكان لا يبدو على مظهره شيء ومن ذلك ، وفي يوم ذهب ابن ذلك المدعي الى «الشعراني» يشكو اليه أباه وتقتيره • فقال له « الشعراني » لعل أباك يؤثر الفقراء عليكم • فقال الابن : لو كان هذا حاله لما كنز عنده الأموال الكثيرة في أماكن سماها بالمنزل ، فتعجب « الشعراني » من ذلك •

وقد اهتم « الشعراني » في كتابه بالعهود التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من واقع رسالته التي أبلغها للناس وأشهد عليها بقوله - عليه الصلاة والسلام - ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، وهذه العهود هي جملة أوامره الشريفة وسنته المطهرة قولا أو فعلا أو تقريرا وكلها لا تخرج عن الرغبة الكاملة في تطهير الانسان وتزكيته وتزيينه بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة مبتدئا في ذلك بالوفاء واخلاص النية في العلم والعمل وسائر الأحوال - وتحرى الاخلاص ما أمكن أمر مهم جدا اعتنى به وأفرد له حديثا طويلا مكررا - واتباع السنة المحمدية في الأقوال والأفعال والعقائد ، واقفا في ذلك عند حدود الكتاب والسنة والاجماع والقياس ولا يلجأ الى الاستحسان الا بعد استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم تأدبا مع ذلك العالم الذى لستحسن هذا الأمر الذى يقبل عليه ، وذلك خوفا من الابتداع في السنة •

وقد تناول « الشعراني » في هذا الكتاب كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالانسان في خاصة نفسه أو في علاقته بمجتمعه • كان يقول : أخذ علينا العهد أن نتصدق بالثوب الخلق ، أو نبقى الشيب باللحية ، أو نكتحل بالاثمد ، أو نسمى في بدء الطعام ، أو نؤثر غيرنا بأطايب الطعام اذا كانوا ضيوفا علينا ، أو نجتمع

على الطعام مع الأهل والاخوان فانه أدعى للبركة ، أو نختار الجليس الصالح ، أو نميط الأذى عن طـريق المسلمين ســـواء كان أذى محسوسا أو أذى معنويا ، والأذى المحسوس ما يعترض النـاس فى طريقهم من أحجار أو قاذورات أو نجاسات وغير ذلك ، والأذى المعنوى ما يعترضهم من شبه فى دينهم ودنياهم أو اشكالات أو خلافات ونحوها ٠

وهناك أمور دقيقة قد لا تخطر لأحد على بال ولكن فعلهـــا يترتب عليه أمور خطيرة تعود على الانسان نفسه أو تعود عليه وعلى غيره قد تنبه « الشعرانى » لها ونبه عليها كاستعمال الســـواك مثلا ٠ فهذا أمر يعود نفعه على الشخص فى صحته ونظافته وسلامته من الأمراض ، وكالتنظف والاغتسال المستمر الذى يعود نفعه على الشخص وعلى مجاوريه الذين لن ينفروا منه بل يأنســـون اليــه ويقبلون عليه ويتعاملون معه مادام نظيف الثياب والمظهر ٠ وهذا أدب اجتماعى نبيل ٠ وكما يعتنى بالنظافة الحسية يعتنى بالنظافة المعنوية لمـا يترتب عليها من اقامة المجتمـع على أسس سليمـــة متعاونة ، هذه الأمور الدقيقة فطن اليها « الشعراني » وأشـــار اليها فى كتابه ، ووضح الخطر الناتج عن اهمالها ان كانت من الأوامر وعن فعلها ان كانت من المنهيات ٠ وهو فى الوقت نفسه ينبه الى ما كان يتحلى به النبى صلى الله عليه وسلم من حرص كامل على ارشاد أمته الى تحيقق كمالها فى الدنيا والآخرة ٠

وهناك كتاب آخر للشعرانى يشبه هذا الكتــاب هو « **البحر المورود فى المواثيق العهـود** » وهو الكتاب الذى آثار بعض العلماء فى الأزهر ضد « الشعرانى » وزيفوا عليه فيــه بعض النصـــوص واضطر الى مواجهتهم بنسخته الأصلية التى وجدت مبرأة مما دس عليه فيها من افتراءات ، وقد أشار هو الى ذلك فى مقدمة كتابه

كما أشار اليه فى بعض تآليفه الأخرى • والعلاقة بين هذين الكتابين « لواقح الأنوار القدسية ، والبحر المورود » أن كلا منهما يدور حول ما يجب أن يأخذ المريد به نفسه من أمور ، وما يجب أن يدع من أمور أخرى حتى يصل الى الكمال الروحى المنشود •

والفرق بينهما أن العهود فى « لواقح الأنوار القدسية مستقاة من حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، من حيث انها وصاياه لأمته وعهوده عليها التى كانت ثمرة رسالته فى مدة ثلاث وعشرين سنة قضاها نبيا ورسولا بين ظهرانيهم •

أما عهود « البحر المورود » فهى ـ كما يقول « الشعرانى » أخذها عليه مشايخه الذين أدركهم فى أول القرن العاشر ، وقد أحب أن يرقمها فى هذه الطروس رجاء النفع بها ، وهى محررة على ضوء الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر حسب طاقته •

وهناك فرق آخر يظهر فى نوعى العهود ، هو أن عهود « لواقح الأنوار القدسية » مبنية على التيسير واستعمال الرخصة استنادا الى الأثر : ان الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه • أما عهود « البحر المورود فهى مبنية على العزيمة ، لأنها تريد أن تبنى شخصية قوية متكاملة لا تركن الى السهل من الأمور ، بل تقبل على الصعب منها بعزيمة قوية وارادة صلبة •

ومن جملة هذه العهود الأخذ بالزهد والتشديد فيه وعدم الميل الى المباح والركون اليه ، وصد النفس عن الاقبال على المدح والرغبة فيه شعرا كان أو نثرا ـ وصدها عن قبول الهدايا والميل اليها لا سيما لذا كانت من شخص يعلم من القرائن أن هذه الهدية لها قدر عظيم فى نفسه ، ذلك لأن تعظيم الهدية دليل على رائحة بخله وطعام البخيل داء ، وغير ذلك مما يدرك منه مدى علم الشعرانى بأغوار النفوس وأسرارها ومعرفة ما يبطن فيها من

نزعات يدق فهمها على الكثير . وندرك كذلك مقدرته على السياسة التي يجب أن يؤخذ بها المريدون حتى يصل بهم الى الكمال والرقي .

و « الشعراني » في أسلوبه سهل يصل بسرعة الى الافهام ، لا تعمل فيه ولا تعقيد ، وقد يستعمل فيه الألفاظ العامية اذا رأى في ذلك ما يعينه على تصوير المعنى بدقة في عصر كاد المتعلمون فيه يفقدون مفردات اللغة . وفي بيئة يحرص على ارشادها وتوجيهها بالأسلوب الذي يتناسب مع مستواها وهذه هي البلاغة بعينها التي تراعي مقتضيات الأحوال . ولكنه يدافع عن ذلك بقوله : ـ أخذ علينا العهد اذا ألفنا كتابا أو ألقينا درسا ألا نبالغ في تحقيق الألفاظ ولا في مراعاة حلاوة تركيبها هروبا من مضاهاة كلام الله عز وجل في الفصاحة والتناسق ، وخوفا على أنفسنا من وقوع الاعجاب بذلك فيهلك أحدنا ولا يشعر ، ثم لا يخفى أنه ليس المقصود من كلامنا في العلم الا ايضاح معاني مشكلاته لا غير . وكان « الخواص » يقول : ينبغي للعالم اذا ألف كتابا أن يتنزل في العبارة حتى يفهم كلامه أدنى العوام ، لأنه أكثر نفعا ، وأيضا حتى يجد الشارح لكلامه توريكا عليه واستدراكا ومطعنا ، وهذا ما درج عليه السلف الصالح .

ورحم الله « الخواص » فانه على أميته كان في منتهى البراعة في الفهم والأداء ، وكان له ذوق عال في معرفة خفايا النفوس لدى العلماء وخفايا كلامهم . ورحم الله تلميذه « الشعراني » الذي تلقى على يديه أصول الحكمة والدراية . فليتعلم منهما علماؤنا ما يجب أن يكون عليه العالم المتواضع الذي يجب ألا ينتظر من نفسه أن يبز السابقين واللاحقين في علمه وأسلوبه ، وأن يترك فرصة لغيره فلا يسد عليه الطريق في الدخول والوصول .

وكتاب « البحر المورود » مطبوع على هامش « لواقح الانوار القدسية » وكلاهما فى حاجة مع غيرهما من كتب « الشعرانى » الكثيرة الى عناية الناشرين والمحققين ، وفى العناية بها بعث لهذه الكتب الجليلة التى احتفلت بشئون الناس ومجتمعهم كما اهتمت بوصولهم الى أسمى الغايات ٠

لقد لفت « الشعرانى » بكتبه نظر الباحثين فى أمور المجتمع وجعله بعضهم خير أستاذ فى ذلك ، ولهذا نرى الدكتور « زكى مبارك » يتخذ من هذه الكتب مرجعا يصور منها كيف كان مجتمع الصوفية فى القرن العاشر ويقول فى ذلك : ان كتب الشــعرانى تعد وثيقة هامة تصور المجتمع المصرى فى القرن العاشر الهجرى وهو من كبار الباحثين فى الآداب العملية ، ولازالت آراؤه تسيطر على الجماهير فى بلادنا ، وآداب المريد التى وضــعها تعد من أهم الآداب التى تركت أثرا بعيدا فى صفوف المتصوفة » (١) ٠

وكتاب « لواقح الأنوار القدسية » وهامشه « البحر المورود من أروع ما كتب فى التصوف ويعدان من الكتب التى لم يســبق اليها ، ويقرر « الشعرانى » ذلك بنفسه فى مقدمة كتابه قائلا : هذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد الى وضع مثاله ، ولا أظن أحدا نسج على منواله ، ضمنته جميع العهود التى بلغتنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل المأمورات وترك المنهيات ٠

وفى الواقع يعد الكتاب احصـاء دقيقا لذلك يحتاج الى صبر طويل ومتابعة كاملة ٠ ما احوج الناس الى تصفحها لا سيما فى تلك الأيام التى يتحتم علينا فيها ترسم المثل الكاملة والقيم النادرة ٠

---

(١) التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق جـ ١ ص ٤٩ ، ٥٠ ٠

الا أن هذه المثل لا يمكن أن يتخلق بها أى انسان ما لـــم يتخذ له شيخا يرشده اليها ويعرفه أسرارها ، وشروط هذا الشيخ سبق الاشارة اليها ، و « الشعرانى » فى كتابيه هذين : « لواقح الأنوار ، والبحر المورود » يلح كثيرا على ضرورة الشيخ ، فكل عهد يذكره يعقب عليه بقوله وهذا العهد لا يمكن تحقيقه الا بواسطة شيخ كامل . كما يقول فى مقدمة « لواقح الأنوار » : لابد للمريد لتنفيذ هذه العهود من شيخ يسلك به الطريق ويزيل من طريقــه الموانع ، وقراءة هذه العهود لا تكفى وحدها بدون شيخ فانه لا يلزم من معرفة الفقيه بالأحكام والأصول الوصول الى العمل بها ، بل يحتاج مع ذلك الى شيخ يريه معالم الطريق كما وقع للغزالى والعز بن عبد السلام .

ويؤكد ذلك بقوله : وهذه العهود التى فى الكتاب لابد لها من شيخ وكل من لم يتخذ له شيخا يرشده الى الخروج من الآفات فهو عاص لله ، لأنه لا يهتدى لطريق العلاج ولو حفظ ألف كتــاب فى العلم ، فهو شأنه كمن يحفظ كتابا فى الطب ولا يعرف كيف ينزل الدواء على الداء .

رحم الله « الشعرانى » وجزاه عن اجتهــاده ونصــحه خـير الجزاء .

• خاتمـة

مكث « الشعرانى » فى زاويته التى أسسها على تقوى من الله ورضوان ، يعمرها بالذكر والعلم وللعبادة ، ويحج اليها الآلاف من المريدين والفقراء والطلاب والعلماء والأمراء والأعيـان يأخذون حظهم الوافر من العلم والعبادة والتقرب ، ويستروحون نسائم القرب من الله والتحبب اليه ، وهو لا يفتر عن الجهاد والعبادة والدعوة الى الاصلاح والقيام بالانصاف • حتى حانت وفاته ، بعـــد أن أصيب بالفالج فى عصر اليوم العاشر من ربيع الثانى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة •

ومكث مريضا به ثلاثة وثلاثين يوما ثم توفى بعد عصر يوم الأثنين الثانى عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة النبوية الشريفة •

وحمل فى اليوم التالى على الأعناق الى مصلى الجامع الأزهـر فى مشهد حافل جدا ، فقد اجتمعت الخلائق لموته ، وتقدمهم نائب السلطان ومن يليـه من أعيـان مصر وأمرائها وقوادها وقضاتهـا وعلمائها وفقهائها وطلابها ومتصوفيها وعامة الناس ، يحكى صاحب « الدرر المنظمة » قائلا : — ولم أر مشـهدا سـابقا لعالم أو ولى كمشهده ، ولا جمعا كجمعه ، ودفن بمدفن بنى له بجانب زاويته فى حال تمرضه • وفتح له باب منها ، وكان قد كمل بناؤه فى وقت صعود روحه الى بارئها (١) •

---

(١) الخطط التوفيقية •

وكان قد تبرع ببناء هذا المدفن أحد تلاميذه الذين أعجبوا به وتأثروا بمبادئه تأثرا شديدا ، وهو « حسن بك الصنجق » .

وقد طويت بوفاته صفحة عالم صوفى محقق وقف حياته على خدمة العلم والدين والتصوف والمجتمع ، وقد من الله عليه بأن أراه مقامه فى الجنة قبل وفاته فى رؤيا منامية استيقظ على أثرها ينشد أبياتا يتغنى فيها بذلك الفضل الالهى العظيم الذى ظلله وكساه حلل الجمال والاشراق وكان من هذه الأبيات : ـ

احبكم لا لشىء فى الوجود ولا
أرجو سواكم ولا أبغى بكم بدلا

يا سـادة غمرونا من فضائلهم
وألبسوا ذاتنـا التيجان والحللا

رحمه الله ورضى عنه .

ولئن كان لنا أن نتعلم من سيرة هذا الامام فاننا ـ فى مقدمة ما نحتاج اليه فى عصرنا الراهن ـ نتعلم كيف يرتفع الانسـان على نفسه ، ويتصاعد عن مستوى ما يراه من صغائر يشغل الناس أنفسهم بها ويضيعون أوقاتهم سدى فيها .

لقد حدد هذا الامام هدفه وانطلق نحوه لا يلوى على شىء ، وكان فى تحرير هدفه يعتمد على روح صافيـة وعزيمة صادقة ، ونحن محتاجون الى ذلك . محتاجون الى تحرير الغاية والوصول اليها بوسائلها المشروعة التى يحكمها الورع ويحرسها الايمـان ويحققها العزم القوى والارادة الصلبة .

لقد وضع « الشعرانى » ـ رحمه الله للمصلحين نبراسا فى الاصلاح يستنيرون به ويهتدون بهديه ، ولنا أن نتعلم منه كيف

يؤتى الاصلاح أكله عن طريق القدوة الطيبة والخلق الكامل ، فمهما وضع المصلحون من برامج ووقفوا من جهود واخترعوا من وسائل فكل ذلك لن يؤتى أكله مادامت القدوة الطيبة تعوزهم ، والحياة حافلة بما يصدق ذلك ، ولسنا فى حاجة الى ضرب الأمثلة عليه ٠

لقد آن لنا أن نأخذ فى حياتنا الدرس والعبرة للاحتفال بالقيم والمثل ٠ وأن نجعلها تحتل من قلوبنا وأرواحنا مكانة تجدر بها ، وأن يكون لعلمائنا وأساتذتنا وتاريخنا منزلة عظمى فى نفوسنا حتى يعصمنا ذلك عن الجرى فى تيار التقاليد المستحدثة التى تقضى على المقومات وتعصف بالأخلاق ، وتحرق فى طريقها شبابا ندخره لخير الدين والوطن ٠

ان شبابنا فى حاجة ماسة الى الحرص على الوقت والصبر على الدرس ومعاناة العلم وعدم الوقوف عند غاية قريبة منه ـ فالعلم بحر لا ساحل له ، وقد رأينا كيف كان « الشعرانى » يحرص حرصا زائدا على الانتفاع بكل دقيقة فى حياته فى سبيل تحصيل العلم والمعرفة يقول فى « الميزان » : كنت أطالع الجزء الكامل من شرح المهذب أو المهمات وأكتب زوائده على درس فى الروضة فى ليلة واحدة ، وكان غالب أقرانى يظن أننى تركت الاشتغال بالعلم لكونى كنت لا أحضر دروس أشياخهم ويقولون : لو أن « فلانا » دام على الاشتغال بالعلم لكان من أعظم المفتين فى مصر الآن ، وكنت أحضر دروسهم فى بعض الأوقات فلا أثب ولا أتكلم ولا أستشكل مسألة من المسائل لكونى أعرف المنقول فيها ٠

وقبل هذه العبارة سرد « الشعرانى » قائمة الكتب التى طالعها ودرسها وحفظها ، وهى قائمة تكاد تفوق العد والحصر ٠

كان « الشعرانى » حريصا حقا على طلب العلم ، وفى إحدى حجاته وقف تحت الميزاب فى الحجر وسأل الله تعالى الزيادة فى العلم فسمع قائلا يقول له من ناحية الميزاب : أما يكفيك أن الله تعالى أعطاك ميزانا للشريعة لم تجد لها ذائقا من علماء عصرك ـ فقال : الحمد لله رب العالمين على ذلك .

فالشعرانى ـ رحمه الله ـ مثل يمكن تقديمه للطالب لينتفع به كيف يجب على المتعلم أن يحرص على وقته ، وللعالم لينتفع به كيف يجب أن يكون متواضعا غير مغتر بعلمه ، فالغرور بالعلم مزلق خطير للعلماء ، وللمصلح لينتفع به كيف يكون قدوة لغيره فى اصلاحه ، وللمتصوف لينتفع به كيف يحرر مجاهداته على الورع ويحلى نفسه بالزهد وينقى خلقه من الرياء ويرتفع على مستوى السمعة والشبهات ، لأن مبنى التصوف على الخلق الفاضل الكريم.

ان حياة « الشعرانى » حلقات متماسكة من الخير والجمال ، فأحرى بنا أن نقتفى أثر هذه الشخصية المتكاملة ، لنصل بديننا وخلقنا ومجتمعنا ووطننا وشبابنا الى أرفع مستوى للكمال المنشود.

والله خير موفق ومعين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

الثلاثاء ٢٢ من رمضان ١٣٨٩ هـ

٢ من ديسمبر ١٩٦٩ م

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

• المراجع

١ ـ لطائف المنن والأخلاق ـ للشعرانى

٢ ـ لواقح الأنوار القدسية ـ للشعرانى

٣ ـ الطبقات الكبرى ـ للشعرانى

٤ ـ اليواقيت والجواهر ـ للشعرانى

٥ ـ البحر المورود ـ للشعرانى

٦ ـ الجواهر والدرر ـ للشعرانى

٧ ـ آداب العبودية ـ للشعرانى

٨ ـ الميزان الشعرانية ـ للشعرانى

٩ ـ تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر الى ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر ـ للشعرانى

١٠ ـ احياء علوم الدين ـ للغزالى

١١ ـ عالم الجن والملائكة ـ للاستاذ عبد الرازق نوفل

١٢ ـ الكواكب الدرية ـ للمناوى

١٣ ـ الشعرانى ـ للدكتور توفيق الطويل

١٤ ـ التصوف الاسلامى والامام الشعرانى للمرحوم طه عبد الباقى سرور

١٥ ـ التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ـ للدكتور زكى مبارك

١٦ ـ الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى

١٧ ـ المناقب الكبرى ـ لأبى صالح محمد المليجى الشافعى
١٨ ـ شذرات الذهب ـ لابن العماد
١٩ ـ الخطط التوفيقية ـ لعلى مبارك
٢٠ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ لابن اياس
٢١ ـ خطط المقريزى ـ للمقريزى
٢٢ ـ تاريخ أدب اللغة ـ لجورجى زيدان
٢٣ ـ سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى
لعبد الملك بن حسين العصامى المكى
٢٤ ـ مصر فى القرون الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى
للدكتور على ابراهيم حسن
٢٥ ـ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى
للاستاذ محمود رزق سليم
٢٦ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى
للمستشرق زامبادر
٢٧ ـ مساجد ومعاهد ـ دار الشعب
٢٨ ـ هدية العارفين ـ للبغدادى
٢٩ ـ معجم المؤلفين ـ لعمر رضا كحالة
٣٠ ـ كشف الظنون ـ لحاجى خليفة
٣١ ـ الاعلام ـ لخير الدين الزركلى
٣٢ ـ معجم المطبوعات العربية والمصرية ـ ليوسف اليان سركيس
٣٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ٠

فهـــرس

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤١٧٠

ISBN ٩٧٧ ــ ٠٢ ــ ٠٦٦٠ ــ ٧